القَوْلُ بالصَّرْفَةْ في إعجازُ القُرآن

بَيْنَ المُؤَيِّدينَ والمُعَارِضِينْ

د. سامي عطا حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان للقرآن الكريم – ولا يزال – مكان الصدارة في دراسات الباحثين ، فهو معجزة الرسول الخاتم – ﷺ – ، والقانون المنظم للسلوك ، والمرشد إلى معالي الأمور.

وكان العرب حين نزول القرآن كأنما شُدُّوا بأمراسِ كِتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ ، فهم يسمعون القرآن ويعجبون به ، ويكادون يسجدون لفصاحته ، ويوقنون –يقين العارف الخبير– أنه ليس من قول البشر،(1) لقد كان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية في مخاطباته ، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم ، وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا في النفوس . ومضى القرن الأول ، وتبعه القرن الثاني ، والعلماء لا يمسون نواحي إعجاز القرآن إلا مسا خفيفا، فلما كان القرن الثالث ، وبدأت السليقة العربية تفقد صفاءها ، وبدأت الثقافات المختلفة ، والفلسفات الهندية ، والفارسية ، واليونانية ، تتسلل إلى المجتمع الإسلامي ، اتسعت الخلافات المذهبية ، وتعددت النحل ، وتفرقت الأهواء والسبل ، واحتدمت المعارك ، وقويت الخصومة ، وعنف الجدل حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها الفحول ، وتصاولت في رحابها الوسيعة القروم ، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن ، فبرز قول غريب في البصرة التي كانت تموج بالتيارات الفكرية المختلفة ، مفاده : أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه ، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته ، وهو القول الذي تبناه فيما

---

1 – انظر مقال : مذهب الصرفة ، مجلة الأزهر الشريف ، مجلد : 21، 1369هـ ، د. علي محمد حسن العماري ص: 41 .

بعد : إبراهيم بن سيار النظام ، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة ، وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة ، عند ذلك عكف العلماء على دراسة كتاب الله بصورة علمية منظمة لاستجلاء مواطن الجمال في تعبيره الفني ، والأسرار البلاغية في بيانه المعجز[1] ، فكان نتيجة لذلك مؤلفات في الإعجاز لها مكانتها ، كما كان من ذلك ثروة كبيرة من الأقوال المبسوطة في إعجاز القرآن تضمنتها كتب علم الكلام وعلم التفسير . ولا أريد في هذا البحث سرد وجوه إعجاز القرآن التي قال بها العلماء ، وإنما سألقي الضوء على قول ظنه بعض العلماء وجها من وجوه الإعجاز ، وهويقينا ليس منها ، وإن كان له كبير الأثر في نشأة علوم البلاغة ، وفي تأليف كتبها فيما بعد .

وقد قسمت هذا البحث إلى : تمهيد ، وسبعة مباحث ، وخاتمة :

المبحث الأول : بينت فيه معنى الصرفة لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : بينت فيه مصدر القول بالصرفة .

وفي المبحث الثالث : ذكرت القائلين بالصرفة من المعتزلة .

وفي المبحث الرابع : ذكرت القائلين بها من أهل السنة .

وفي المبحث الخامس : ذكرت من تضاربت أقوالهم في الصرفة

وفي المبحث السادس : ذكرت القائلين بها من الشيعة الإمامية .

وخصصت المبحث السابع : لردود المعارضين للصرفة .

ثم بينت في الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في العرض لهذا الموضوع .[2]

---

1 – د. نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن ، ص 98 ،.

2 – أصل هذا البحث ، بحث محكم تحت عنوان : الصَّرفة .. دلالتها لدى القائلين الكويت .بها وردود المعارضين لها. نشر في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، عدد51 ، سنة 2002م ، جامعة

المبحث الأول

معنى الصرفة لغة واصطلاحا

الصرفة لغة :على وزن فعلة– بفتح الفاء واللام وسكون العين–:رد الشيء عن وجهه ، يقال: صرفه يصرفه ، صرفا ، فانصرف ،وصارف نفسه عن الشيء :صرفها عنه . قال تعالى : (ثم انصرفوا)(سورة التوبة : **127**)[1] أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا منه ، وقيل :– انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا . وقوله تعالى : –(صرف الله قلوبهم)(**سورة التوبة : 127**) أي :– أضلهم الله مجازاة على فعلهم ، وصرفت الرجل عني فانصرف).(2)

ومادة (صرف) عند أهل اللغة يدور معناها: حول الرجوع والتحول والتقلب ، والمنع من جهة إلى جهة أخرى .

فقد ورد في معجم "مقاييس اللغة " تحت مادة (صرف) قوله : " صرف " معظم بابه يدلّ على رجع الشيء ، من ذلك صرفتُ القوم صرفًا وانصرفوا إذا رَجَعْتَهم فرَجَعُوا ، والصَّرف في القرآن : التوبة ؛ لأنه يُرجع به عن رتبة المذنبين ، قال الخليل : الصَّرف : فَضْل الدّرهم على الدرهم في القيمة ومعنى الصَّرف عندنا: أنه شيء صُرف إلى شيء ، كأن الدِّينار صُرف إلى الدّراهم ، أي رُجع إليها ، إذا أخذت بدَله ، ومنه اشتُقّ : اسم الصَّيرفي : لتصريفه أحدهما إلى الآخر ، وصَرْف الكلام :

1– .. والآية بتمامها (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون).

2– ابن منظور : لسان العرب –ج7: صفحة328 (مادة صرف) .

تزيينـه والزِّيـادةُ فيـه ، وإنمـا سُمّي بـذلك ؛ لأنـه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلـى استماعه " . (1)

وفـي اللسـان : "الصَّـرف :ردُّ الشـئ عنـد وجهــه ، صَـرَفَهُ يَصْـرِفُهُ صَـرْفًا فانصَـرَف ، وصَـارَف نفسـه عـن الشـئ : صَـرَفها عنـه ، وقولـه تعـالي : (ثـم انصرفوا))(سورة التوبة : **127**) أي : رَجَعُوا عن المكان الذي استمعوا فيه ،وقيل : انصرفوا عن العمل بشيء مما سَمِعُوا ، (صرف الله قلوبهم) (سورة التوبة : 127) : أي أضلّهم الله مُجازاةً علي فِعْلهم ، وقوله عز وجل: (سأصـرف عـن آيـاتي) (الأعـراف: 146) أي : أجْعَلُ جـزاءَهُم الإضـلال عـن هِدايـة آيـاتي ، وقولـه عـز وجـل (فمـا يسـتطيعون صـرفًا ولا نصـرًا) (الفرقان : 19) أي : ما يستطيعون أن يَصْرِفُوا عن أنفسهم العذاب ، ولا أن ينصُرُوا أنفسهم .

والصّرفُ : التقلُّبُ والحيلةُ ، ومنه : التصرُّفُ في الأمور ، وصرّفنا الآيات : أي بيّناها ، وتصريف الآيات : تبيينها ، والصرّفُ : أن يَصرفَ إنسانًا عن وَجْهٍ يُريدُه إلى مَصرفٍ غير ذلك ، وصرّفَ الشيء : أعملَه في غير وجهٍ ، كأنـه يصرفُه عن وجهٍ إلـي وجهٍ ، وتصـرّف هو ، وتصـريف الريـاح : صَرْفُها من جهةٍ إلي جهةٍ ".(2) وفي " المفردات في غريب القرآن " تحت كلمة (صرف) " الصرْف : ردُّ الشيء من حالة إلى حالةٍ أو إبدَالُهُ بغيره ، يُقال : صـرفتُهُ فانصـرف . وقولـه عـز وجـل : (وإذ صـرفنا إليك نفرا مـن الجـن)(الأحقـاف : 29) معنـاه أي : أقبلنــا بهـم إليــك وإلــى الاسـتماع منــك ، والتّصريف : كالصَّرف إلا في التكثير، وأكثر ما يُقال في صرف الشيء من حالـةٍ إلـى حالـةٍ ، ومن أمرٍ إلـى أمرٍ، وتصريف الريـاح هو صَرفْها من حالٍ

---

1 ـ انظر : معجم مقاييس اللغة : لابن فارس 3: 342 ، مادة (صرف) .ط : الأولى 1411هـ ـ 1991م .

2 – انظر : لسان العرب 4 : 2434 ، مادة (صرف) . ط: دار المعارف

إلى حالٍ قال تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد)(طه : 113) ومنه تصريف الكلام وتصريف الدراهم وتصريف النّاب ، يُقال : لنا به صريفٌ ، وقيل لكل خالص عن غيره صِرفٌ ، كأنه صُرف عنه ما يشُوبه " . (1) وفي " معجم ألفاظ القرآن الكريم " : والصّرف : ردّ الشيء من حال إلى حال ، ومن الردّ تجيء استعمالات كثيرة : كصرف النقود أي تغييرها ، والصرف بمعنى إخلاء السبيل ، وصرْف القلوب : تحويلها عن الهداية . والمصْرِف : المعدِل ، والتصريف : كالصرف مع التكثير ، فتصريف الأمور ، والرياح ، والسحاب : تحويلها من جهة إلى جهة ومن حال إلى حال . والانصراف مطاوع الصرف . " (2)

مما أوردناه يتأكد لدينا ما ذكرناه آنفا من أن معاني " الصرفة " في اللغة : لا تخرج عن معنى الردّ والرجوع والتحول والتقلب ، وتدور على صرف الشيء عن وجهه إلى جهة أخرى .

وتعني الصرفة في الاصطلاح : أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن ، وكانت في مقدورهم ، لكن عاقهم عنها أمر خارجي ، فصار معجزة كسائر المعجزات ، ولو لم يصرفهم عن ذلك ، لجاءوا بمثله .(3) فكأن القوم الذين تحداهم الله بالقرآن تحولت هممهم ، وصرفت عن معارضته بغير إرادتهم ، بل رغما عنهم ، مع قدرتهم الذاتية على ذلك ، أو أنهم سلبوا العلوم التي يعرفونها من أنفسهم ، فمعنى الصرفة على هذا ، أن الله سبحانه لم يمكن الناس من إنشاء مثل هذا القرآن ، وأن نظم القرآن غير معجز في ذاته ، وإنما عجز القوم عن تأليف مثله ، لأن الله تعالى صرف قدرهن وأفكارهم عن هذا ،

---

1 - انظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص 279 ط : جريدة الجمهورية 1991 م

2 - معجم ألفاظ القرآن الكريم 2 : 70 ، ط : الهيئة المصرية العامة ، الثانية 1970

3 – الزركشي : البرهان في علوم القرآن– ج2: ص 93 . والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج2 : ص 118.

فالإعجاز إذا لا- عند القائلين بالصرفة – تأثير خارجي لا يرجع إلى ذات اللفظ القرآني . (1)

وقد اختلف القائلون بالصرفة في بيان حقيقة ما يقصده هؤلاء بالصرفة ، فقالوا : إن الله سبحانه- لأجل إثبات التحدي -حال بين فصحاء العرب وبلغائهم ، وبين الإتيان بمثل القرآن بأحد الأمور الثلاثة التالية:-

1- صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة ، فكلما هموا بها ، وجدوا في أنفسهم صارفا ودافعا يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة ، ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم عن الانصداع لهذا الأمر ، بل إن المقتضي فيهم كان تاما ، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر ، ولولا ذلك لأتوا بمثله .

2- سلبهم – سبحانه – العلوم التي كانت العرب مالكة لها ومتجهزة بها ، وكانت كافية للإتيان بما يُشاكل القرآن ويقاربه ، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله .

3- إنهم كانوا قادرين على المعارضة ، ومجهزين بالعلوم اللازمة لها ، ولكن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة ، مع كونهم قادرين ، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم.(2)

وقد بين جمهور العلماء ، أن الصرفة بكل صورها ، تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن ، وأنها وهمٌ ذهب إليه خيال القائلين بها ، دون سند ، أو دليل .

---

1 – انظر : محمد بن حسن بن عقيل موسى : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء ، ص 93-94 .

2 – العلوي : الطراز ج3: ص291. وانظر العماري : حول اعجاز القرآن – سلسلة الثقافةالإسلامية ، عدد: 44 . والخالدي : البيان في اعجاز القرآن ، ص 82-83.

المبحث الثاني

مصدر القول بالصرفة

يعزى القول بالصرفة عند كثير من الباحثين، إلى أنه من التيارات التي وفدت علينا من الخارج ، وأن بعض المتفلسفين من علماء الكلام ، وقفوا على أقوال البراهمة في كتابهم الفيدا(1) ، وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار ، ليس في كلام الناس ما يماثلها

---

1 – **الفيدا** : Veda ويقال له Wed هو الكتاب المقدس في الدين الهندوسي ، و مكتوب باللغة السنسكرتية – لغة الهند القديمة – هو موسوعة ضخمة في 800 مجلد تم تأليفه بفعل أشخاص كثيرين متعاقبين في فترة زمنية طويلة تقدر بعشرة آلاف سنة وقيل 30 الف سنة ، ألفه المهاجرون الآريون القادمين من أوروبا الذين استقروا في مصب نهر السند – كراتشي حاليا – ، وهم الذين بذروا أصل الديانة الهندوسية ثم كلما جاء راهب يزيد كتابا أو أكثر في سلسلة الفيدا ومع تعاقب الزمان وصل لهذا الحجم الهائل ، ثم مع الزحف الإسلامي تم نقل عاصمة الدين الهندوسي إلى براهمابور ومعه تم نقل كتابهم المقدس ، تعتبر الفيدا المخطوطات الاكثر قدسية من أربعة أبواب رئيسية هي الرافافيدا(كتاب ادعية) والجروفيدا(مجموع من الفاظ الالوهية) و السامافيدا(كتاب يتعاطى بالالغام) والاترافيدا(كتاب التعاويذ السحرية والادوية الشعبية) وكلها يحرم قراءتها على غير طبقة البراهمة – الذين خلقهم الإله براهما من راسه حسب أساطيرهم – وهم رهبان الهندوس وسدنة معابدهم ، قسم الرامايانا يتحدث عن خلق الكون وأصل الخليقة وما حصلت فيها من حروب و ملاحم بين الآلهة نفسها وصراعات الخير والشر وعشقياتهم وتضحياتهم وكل ذلك قبل خلق البشر ، والقسم الثاني الأوبانيشاد وفيه إرشادات وتعاليم عن الطقوس والقرابين وكيفية العبادة والديانة حسب الدين الهندوسي ، والقسم الثالث المهابهارتا ويتحدث عن أناشيد المطر والزرع والعمل والمهن والإرشادات والتوصيات الحياتية العامة ، والقسم الثالث مانوسمرتي ويتحدث عن الطبقات وحقوقها وامتيازات كل طبقة على الأخرى وطريقة العيش وحدودها حسب هذه الطبقات الدينية ، قسمت الفيدا البشر إلى أربع طبقات وهي البراهمة brahma الذين خلقهم الإله براهما من رأسه فهم صفوة البشر وتجب خدمتهم والتذلل لهم عند الهندوس وهؤلاء هم سدنة المعابد والكهنة وحراس الفيدا والدين الهندوسي ، والطبقة الثانية الكشاتريا kshatrya ، وهم الذين خلقهم الإله براهما من الجزء العلوي منه كتفيه وصدره وهم الجنود والضباط وأهل الحرب الذين يحرسون المعابد وكهنتها ، ومنهم كانت سلالات ملوك الهند ولازال رئيس الهند شنكر ديال شارما بينما لا ضير إن كان رئيس الوزراء من طبقات

–في زعمهم –، بل يقول خاصتهم : إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله ، لأن – براهما– (1) صرفهم عن أن يأتوا بمثلها ، يقول–**أبو الريحان البيروني** (2) (تـ 440هـ – **1048**م) في كتابه – ما للهند من مقولة

أوأديان أخرى ، والطبقة الثالثة هم الفايشيا vaishia ، الذين خلقهم الإله براهما من فخذيه وهم المهرة والحرفيون وأهل الهندسة والصناعة ، وعملهم خدمة ما يحتاجه الصنفان الأولان في كل أمور الحياة ، أما الصنف الرابع هم الشودر chuddar خلقهم الإله براهما من أقدامه أسفل جزء منه وهم المنبوذون ومن لا حق له في العيش والتمتع بأقل مقومات الحياة ، من وصايا الفيدا أن التشودر لا حق له بأن يضع عينه في عين البرهمي وإن فعل ذلك فإنه يجب قلع عينه ، ولو رفع صوته على البرهمي فإن لسانه يجب أن تقطع ، وحسب تعاليم الفيدا فإنه لا يمكن لبشر أن يرتقي من طبقته لطبقة أعلى ، ولا يصير الإرتقاء عندهم إلا بتناسخ الأرواح لأن عندهم حيوات كثيرة متعاقبة يمكن للواحد منهم أن يعيشها ، فإن كان الشخص خيرا ارتقت روحه في الحياة التالية لمرتبة أعلى وربما ارتفع من طبقة لطبقة البراهما ولا مانع أن أن يرتقي حتى يرقى إلى إله ، وإن كان شريرا يتدنى من طبقته لطبقة أسفل وربما ينقلب إلى حشرة مهانة حسب سوء عمله في الحياة السابقة التي عاشها ، كتاب الفيدا لا يشبه أي كتاب ديني آخر لأن الهندوسية من أقدم الأديان الوثنية قاطبة فكل دين وثني أخذ منه بينما لا يكاد يوجد فيه ما يشابه الذي سبقه ولذلك تأثرت به البوذية والإغريق والكومفوشيوسية والفرعونية والمجوسية ، كان كل كاهن يزيد شيئا على هذا الفيدا حتى بلغت حجما مهولا إلى أن جاء القرن الميلادي الأول بعد و طلب الكاهن الكبير شنكر أن تتوقف الزيادات على الرامايانا وأعلن أنه يبدأ بنفسه ولم يزد شيئا وحرمه على من بعده ، توقف كهنة الهندوس عن الزيادة في الفيدا لتنتهي إلى الصورة الحالية للكتاب . انظر : (قصة الحضارة) . تأليف ويل ديورانت، و(تاريخ البشرية) . تأليف أرنولد توينبي، و (البوذية) . تأليف د.عبدالله نومسوك ، و محمد غلاب : مشكلة الألوهية – ص97..

1 – براهما :من آلهة الهندوس ، وهو عندهم مرادف للمطلق الأعلى أو (الأتمان) انظر : مشكلة الألوهية : ص 98 .

2 - **أبو الريحان محمد بن أحمد البَيْرُوني** (5 سبتمبر 973م – 13 ديسمبر 1048م) عالم مسلم كان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضيا وصيدليًا ومؤرخًا ومترجمًا لثقافات الهند. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وهو أول من قال إن الأرض تدور حول محورها، صنف كتباً تربو عن المائة والعشرين. ولد في ضاحية كاث عاصمة خوارزم في أوزبكستان ، رحل إلى جرجان في سن ال25 ، ونشر هناك أولى كتبه وهو (الآثار الباقية ، عن القرون الخالية) وحين عاد إلى موطنه نشر ثاني مؤلفته الكبرى (تحقيق

مقبولـة فـي العقـل أو مرذولـة – مـا نصـه : (إن خاصـتهم يقولـون إن فـي مقـدورهم أن يـأتوا بأمثالهـا ، ولكـنهم ممنوعـون عـن ذلـك احترامـا لهـا)[1] ، والظـاهر أن هذه الفكرة قد وفدت للساحة الفكريـة الإسلامية ، عندما ترجمت الفلسفات الهندية في عهد –أبي جعفر المنصور– [2] ومن جاء بعده من

ما للهند من مقولة ، مقبولةٍ في العقل أو مرذولة) كما كتب مؤلفين آخرين كبيرين هما (القانون المسعودي) ، (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم). توفي سنة(440 هـ–1048م) وأطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب. كان عالم رياضيات وفيزياء وكان له أيضا اهتمامات في مجال الصيدلة والكتابة الموسوعية والفلك والتاريخ. سميت فوهة بركانية على سطح القمر باسمه . تعلم اللغة اليونانية والسنسكريتية خلال رحلاته وكتب باللغة العربية والفارسية. ومن أقواله المشهورة : لأَن أُهجَى بالعربية أحب إلي من أن أُمدَح بالفارسية . انظر : كتاب البيروني للدكتور أحمد سعيد الدمرداش. طباعة دار المعارف (ج.م.ع).

1 – انظر : د. عرفة بسيوني : فكرة النظم في تطورها وأهدافها ، ص 35 .

2 – **أبو جعفر عبد الله المنصور** (712–775م)، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ثاني خلفاء بني العباس وأقواهم. واشتهر المنصور بتشييد مدينة بغداد التي تحولت لعاصمة الدولة العباسية. ويعتبر أبو جعفر هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فقد حكم ما يقرب من 22 عاما.

ولادته ونشأته : ولد أبو جعفر المنصور سنة (**95 هـ = 714** م)في **قرية الحميمة** التي تقع في جنوب االمملكة الأردنية الهاشمية ، ونشأ بين كبار رجال بني هاشم الذين كانوا يسكنون الحميمة، فشب فصيحا عالما بالسير والأخبار، ملما بالشعر والنثر. وكان أبوه محمد بن علي هو الذي نظّم الدعوة العباسية، وخرج بها إلى حيز الوجود، حين نجحت الدعوة العباسية وأطاحت بالدولة الأموية؛ تولى أبو العباس السفّاح الخلافة سنة (132 هـ –749 م) واستعان بأخيه أبي جعفر في محاربة أعدائه والقضاء على خصومه وتصريف شئون الدولة، وكان عند حسن ظنه قدرة وكفاءة فيما تولى، حتى إذا مرض أوصى له بالخلافة من بعده، فوليها في (ذي الحجة 136 هـ – يونيو **754** م) وهو في الحادية والأربعين من عمره. كان المنصور من أعظم رجال بني العباس فقد كان في خلقه الجد والصرامة والبعد عن اللهو والترف. فقد اتصف بالشدة والبأس واليقظة والحزم والصلاح والاهتمام بمصالح الرعية وقد عرف عن المنصور ميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه، ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف .

حكام بني العباس ، فتلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الإغراب في أقوالهم ، هذه الفكرة الغريبة الوافدة، ودفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا هذا القول ويطبقوه على القرآن، – وإن كان لا ينطبق– ، فقال قائلهم : إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ، ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله .) (1)

ومما يؤيد احتمال كون فكرة – الصرفة – من التيارات الفكرية الوافدة ، ما ذكره **الجاحظ** (2) – في **كتابه البخلاء** –من صور هذا الغزو الفكري الذي

وفاة المنصور: ذهب الخليفة المنصور للحج عام **158 هـ، 775** م، وكان ابنه محمد "المهدي" قد خرج ليشيعه في حجه، فأوصاه بإعطاء الجند والناس حقهم وأرزاقهم ومرتباتهم، وأن يحسن إلى الناس، ويحفظ الثغور، ويسدد دينًا كان عليه مقداره ثلاثمائة ألف درهم، كما أوصاه برعاية إخوته الصغار، وقال: إنني تركت خزانة بيت مال المسلمين عامرة، فيها ما يكفى عطاء الجند ونفقات الناس لمدة عشر سنوات. مرض المنصور في الطريق، وقبل أن يدخل مكة توفي على أبوابها. انظر : عماد البحراني، أبو جعفر المنصور "المؤسس الحقيقي للدولة العباسية"، دورية كان التاريخية، عدد5 سبتمبر2009. ص 54 – 58.

والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص 259 .

1 – أبو زهرة : المعجزة الكبرى– القرآن : – ص 69 –71.

2 – **الجاحظ** : هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (159 هـ–255 هـ) من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها.عمّر الجاحظ نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، والبخلاء أشهر هذه الكتب.. قال ابن خلدون عند الكلام على علم الأدب: (وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الكامل للمبرد، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها) .ولد في مدينة البصرة نشأ فقيرا، وكان دميما قبيحا جاحظ العينين عرف عنه خفة الروح وميله إلى الهزل والفكاهة، ومن ثم كانت كتاباته على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والتهكم. طلب العلم في سن مبكّرة، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، ولكن اليتم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم، فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته. ويورد ياقوت

بدأ يتسرب إلي ديار المسلمين في صدر العصر العباسي ، منذ أن اتخذ أبو جعفر المنصور – الطبيب جورجيس بن بختيشوع – طبيبا خاصا له ، قال الجاحظ :(إن طبيبا عربيا مسلما يدعى– أسد بن حاني – كسدت حاله مرة ، فقال له قائل : السنة وبيئة – أي : كثيرة الأوبئة – والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين يأتيك الكساد ؟ قال : أما واحدة فإني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب ، واسمي أسد ، وكان ينبغي أن يكون اسمي : صليبا أو يوحنا ، وكنيتي : أبو الحارث ، وكان ينبغي أن يكون : أبو عيسى ، أو أبو زكريا ، أو أبو ابراهيم وعليَّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغي أن يكون علي رداء حرير أسود . ولفظي عربي ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل – جند يسابور–) (1) .. وهذه الرواية إن دلت على تسامح المسلمين ، وبعدهم عن التعصب الذي يرميهم أعداؤهم به ظلما وعدوانا، فهي تدل كذلك على تسلل الغزو الفكري ، حتى استمكن وتوطن في عصر كانت الدولة الإسلامية رافعة أعلام عزها ، وباسطة سلطان مجدها .

وقد أ لمح الدكتور أحمد فؤاد الأهواني إلى أسباب هذا الغزو الفكري فقال : (كان معظم المشتغلين بالعلم والفلسفة نصارى ، وصابئة ، وكان من

الحموي قولاً لأبي هفَّان . وهو من معاصريه . يدلُّ على مدى نَهَمِ الجاحظ بالكتب، يقول فيه: «لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنَّه لم يقع بيده كتاب قَطُّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ولا عَجَبَ إذ ذاك في أن يُفْرِد الصَّفحات الطِّوال مرَّات عدَّة في كتبه، للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها. والحقُّ أنَّه كان أشبه بآلة مصوِّرةٍ، فليس هناك شيءٌ يقرؤه إلاَّ ويرتسم في ذهنه، ويظلُّ في ذاكرته آماداً متطاوله.

وفاته : توفي سنة 255 هـ وقد نيف على التسعين سنة. وقد هدّه شلل أقعده ، وعندما كان جالسا في مكتبته – كما قيل – يطالع بعض الكتب المحببة إليه، وقع عليه صف من الكتب أردته ميتاً، لقد مات الجاحظ مدفونا بالكتب, مخلفاً وراءه كتباً ومقالات وأفكاراً ما زالت خالدةً حتى الآن.انظر : الجاحظ حياته وآثاره ,طه الحاجري ,دار المعارف 1963م.

1 – الجاحظ : البخلاء – ص **78** .

الطبيعي أن يعنى بالفلسفة أولئك الذين كانوا من المشتغلين بها قبل دخولهم في الإسلام ، وكان أغلبهم من السريان ، والصابئة ، ولقد كتب كثير من اليهود ، والنصارى ، والصابئة، مؤلفات باللسان العربي ، بعد انتشار الإسلام ، واستقرار قواعد الدولة الإسلامية .) (1) فلا غرابة في انتقال قول البراهمة في كتابهم المقدس – الفيدا – ، إلى بعض المسلمين ، عن طريق المشتغلين بالفلسفة ، أو الذين يتلقفون كل وافد من الأفكار ، ومنها فكرة الصَّرفة .

وقد خالف الدكتور أحمد أبو زيد كثيرا من الباحثين حين قال : (فإيراد قضية إعجاز القرآن في سياق هذا البحث المتعلق بالصرفة ، وفي معرض الرد على الدهريين ، يفيد بأن هذه النظرية إنما وضعت للدفاع عن القرآن ، وتنزيهه عن مطاعن الملحدين .) (2) فهو يرى بأن المعتزلة وضعت هذه النظرية للدفاع عن القرآن ، ولا ينكر أحد دور المعتزلة في الدفاع عن القرآن ، وبيان إعجازه ، وأسراره البيانية ، إلا أن عدم اتفاقهم على مفهوم واحد لنظرية الصرفة ، يدل على أنها لم تصدر عن عقيدتهم في كلام الله ، وفي خلق القرآن ، لذا أميل إلى ما ذكره كل من البيروني، والبغدادي ، والشهرستاني ، من أقوال – ذكرت بعضها وسأذكر بعضها الآخر – تبين مصدرها الخارجي ، وإن نشأت وترعرعت في بيئة الاعتزال .

ولأن رواج نظرية – الصرفة– ، يؤدي إلى أن القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته ، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله ، أي أنها تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم .

1– د. أحمد فؤاد الأهواني : الكندي فيلسوف العرب – سلسلة أعلام العرب عدد: 26 .

2 ـ د. أحمد أبو زيد : الإستدلال العقلي على إعجاز القرآن ، ص257 .

المبحث الثالث

القائلون بالصرفة من المعتزلة

نبت القول بالصرفة أول ما نبت في رواق الفلسفة الكلامية ، قاله شيخ من شيوخها وهو:

1- النَّظّام :(ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري تـ سنة 221هـ) (1) ، فهو أول من جاهر به ، وأعلنه ودعا إليه ، ولاحى عنه، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول : إنه أول من جهر به ، ولا نقول إنه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ، ويجاهر

---

1 - **هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظّام** البصري، وُلد سنة 185 هـ في البصرة، تتلمذ على يد أبي هذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه وكوّن له مذهباً خاصاً (النظامية)، وكان أستاذ الجاحظ، توفي وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره سنة 221هـ في بغداد. كان من اكابر المعتزلة. يقول الأستاذ أحمد أمين : (و قد كان المعتزلة بعده عيال عليه)(ضحى الإسلام3: 126) قال الجاحظ فى الجزء الرابع من (االحيوان): (إنّهُ لولا مكانَ المتكلمين لهلكت العوامّ من جميع الأمم، ولولا مكانُ المعتزِلة لهلكت العَوَامُّ من جميع النِّحل، فإن لم أقل، ولولا أصحابُ إبراهيمَ وإبراهيمُ لهلكت العوامُّ من المعتزلة)ويقول أيضا : (الاوائل يقولون انه يكون فى كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً، فهو أبو إسحاق النظّام)(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة/ص265)

بها . (1) تتلمذ على خاله أبي الهذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه ، وكون مذهبا خاصا به ، مات في ريعان شبابه عن ست وثلاثين عاما ، وكان أستاذا – للجاحظ – (2)، ترجم له **أبو منصورعبد القاهر البغدادي** (3) (ت 424هـ)– في كتابه : (الفَرق بين الفِرق) ، عند ذكره الفرقة النظامية ، فقال : (عاشر النظام في شبابه قوما من الثنوية (4) وقوما من السمنية (5)، وخالط قوما من ملاحدة الفلاسفة ، ثم دون مذاهب الثنوية ، وبدع الفلاسفة ، وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف ، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه) . ثم قال : (والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه – أي النظام –: أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ، ليست بمعجزة للنبي – عليه الصلاة والسلام – ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجه

---

1 – أبو زهرة : المعجزة الخالدة –، ص 71 .

2– زهدي حسن جار الله ::– المعتزلة – ص120– 129

3 – **البغدادي (عبد القاهر)** (249هـ) : أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي، متكلم من أئمة الأصوليين وأعيان فقهاء الشافعية. ولد في بغداد ونشأ فيها ثم رحل مع أبيه إلى خراسان واستقرّ في نيسابور، وتفقه على أهل العلم والحديث، كان البغدادي ماهراً في علوم كثيرة، وكان عارفاً بالنحو، وبرع في علوم الدين، فاشتهر اسمه وبعد صيته. ولما مات شيخه الإسفراييني قام مقامه في التدريس بمسجد عقيل، كان البغدادي ذا مال كثير، أنفقه على العلم والحديث، ولم يكن يسعى بعلمه ليكسب مالاً. صنف في العلوم المختلفة، وأكثر مصنفاته في علوم الدين، ومن أجلّ كتبه كتاب (الفَرْق بين الفِرَق)، وكتاب (أصول الدين)..انظر : وفيات الأعيان:3 : 203 برقم:392; تبيين كذب المفتري: 2 : 254 الأعلام للزركلي:4 : 173.

4– الثنوية : قوم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . الشهرستاني : الملل والنحل: ص : 80 بهامش الفصل .

5– السمنية : فرقة بوذية هندية قالت بقدم العالم وبتناسخ الأرواح – . البغدادي :الفرق بين الفرق – ص270. وخالد العلي، الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي ص13.

الدلالة منه على صدقه ، ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته ، فإن العباد قادرون على مثله ، لولا أن الله منعهم بمنع ، وعجز ، أحدثهما فيهم .) (1)

وترجم له **الشهرستاني**(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت 548هـ) فقال :-(والنظامية أصحاب إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام ، طالع إبراهيم كثيرا من كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها : قوله في إعجاز القرآن: إنه من حيث إخباره عن الأمور الماضية ، والآتية ، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ، ومنع العرب من الاهتمام به جبرا ، وتعجيزا ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله ، بلاغة ، وفصاحة ، ونظما .) (2)

فالنظام – إذن – يرى : أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن ، أو عن القدرة على الإتيان بمثله ، فانصرفوا عن ذلك ، وتعذرت عليهم المعارضة ، لا لأن القرآن في حد ذاته خارج عن طوق البشر ، أو خارقا لمقدرتهم ، ومألوف عادتهم ، فهو في ذلك لا يتفوق على البليغ الفصيح من كلام العرب ، ولا تكاد تكون له مزية أو فضل في ذلك ، ولو ترك لهم المجال ، وأفسح أمامهم الطريق ، لأتوا بمثل القرآن فصاحة ، وبلاغة ، وحسن نظم وتأليف . قال النظام : (الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم ....ثم قال : إن نظم القرآن وحسم تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي – ﷺ – ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما نظم القرآن ، وحسن تأليف آياته فإن

1- انظر : البغدادي : الفرق بين الفرق :ص 128- 150.

2 – الشهرستاني : الملل والنحل: ج 1 / ص56- 57.

العباد قادرون على مثله ، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف .. وهذا عناد منه لقول الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (الإسراء : 88) ([1]) والملاحظ هنا أن النظام لم ينف إعجاز القرآن الكريم في ذاته ، وإنما حصره في الإخبار بالغيوب التي لا يستطاع الإتيان بمثلها. أما النظم والأسلوب فكان الإعجاز فيهما عند بالصرفة ، وهو في هذا مكابر متحد لما ذكره الله تعالى من استحالة الإتيان بمثله . ([2])

2- **تابع – النظام– على رأيه هذا نفر من المعتزلة** ، منهم : عيسى بن صبح المكنى بأبي موسى المردار (وهناك من قال المردار)(3) ، الذي نسب إليه القول بأن :(الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وبما هو أفصح منه.)(4)، وقد وافق (النظام ، والمردار) على إنكار إعجاز القرآن بنظمه ، وأن العباد قادرون على مثله ، كل من : عباد بن سليمان (5)،

---

1 – انظر : البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص 128 ، ومقالات الإسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري ، ص 225 .

2 – انظر : محمد بن حسن بن عقيل موسى : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء ، ص95 – 96 .

3– عيسى بن صبيح أبو موسى المردار : – كان معروفا بالناسك ، أخذ الإعتزال عن بشر بن المعتمر ، تولى رئاسة المعتزلة ببغداد ، (ت سنة 226هـ). ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص 70 .

4 – البغدادي : الفرق بين الفرق – ص154.وانظر د. عمر السلامي : الإعجاز الفني في القرآن ، ص 52–65. والشهرستاني ، الملل والنحل : ج1: ص 69.

5 – أبو سهل عباد بن سليمان البصري : معتزلي من أهل البصرة من تلاميذ هشام بن عمرو الفوطي كان معتزليا، وقد خالف عباد المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه ، وكان حاذقا في علم الكلام ، ثم تحول إلى مذهب الزنادقة ، وله مصنفات . انظر : ابن النديم : الفهرست: ص269، 280 . والذهبي: سير أعلام النبلاء : 10: 551–552.

وهشام الفوطي (1) وأبي اسحق النصيبي (2)وغيرهم ، قال الأشعري : قالت المعتزلة إلا النظام وهشاما الفُوَطي ، وعباد بن سليمان: تأليف القرآن ونظمه معجز ، محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم، وأنه علم لرسول الله – ﷺ – **فهشام وعباد لا يريان أن القرآن معجز بنظمه، ولازم هذا أنهما يقولان بالصرفة ، بل نص على قولهما ذلك الباقلاني (3).**

1– هشام بن عمرو الفُوَطي : –المعتزلي الكوفي ،مولى بني شيبان ، صاحب ذكاء ، وجدال ، وبدعة ، وله أقوال مستشنعة ، عده صاحب (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) في نهاية الطبقة السادسة من المعتزلة ، وكان يحظى باحترام المأمون .: طبقات المعتزلة ص71، 271. والواو من لفظة الفوطي محركة كما في السير وطبقات المعتزلة ، وقد زعم ابن النديم أن الواو واجبة التسكين ، ولم يأت بسبب هذا الوجوب . انظر ابن النديم : الفهرست : ص 355.

2 – أبو اسحق النصيبي :– من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة ، وكان يشك في النبوات كلها . أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة – ج1/ ص141 . وقد نسب إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي القول بالصرفة . انظر : الطراز : 3: 391.

3 ـ انظـــر : إعجـــاز القـــرأن ، للبـــاقلاني : ص 99. ومقـــالات الإســـلاميين : 225. ولكن الدكتور محسن الخالدي في بحثه (**المتهمون بالصرفة**) والمنشور بمجلة جامعة النجاح (مجلد 24، عدد5 ، 2010م) أنكر اتهام **هشام وعباد** أنهما قالا بالصرفة ، وأن من اتهمهم بذلك لم يرجع إلى مستند تاريخي صحيح وصريح يثبت ذلك ، ويُعَدُّ ذلك في نظره .. انتهاكا لحرمة المنهجية العلمية .. إلى آخر هذا الخبال والكلام البطال ... ونقول له : لورجعت إلى إعجاز القرآن للباقلاني لوجدت الدليل قال الباقلاني : (ولا بد لمن جوز السجع فيه ، وسلك ما سلكوه ، من أن يسلم ما ذهب إليه النظام ، وعباد بن سليمان ، وهشام الفوطي ، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف ...) (انظر إعجاز القرآن للباقلاني : تحقيق السيد أحمد صقر ص 99)ألا يكفي هذا الدليل .. انظر إذن ما قاله أبوالحسن الأشعري: يقول أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) وهو يستعرض آراء المعتزلة في نظم القرآن ، هل هو معجز أم لا: واختلف المعتزلة في نظم القرآن ، هل هو معجز أم لا ؟ على ثلاثة أقاويل :

[[– 1) فقالت المعتزلة . إلا النظام ، وهشاما الفُوَطي ، وعبّاد بن سليمان . تأليف القرآن ونظمه معجز ، محالٌ وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وإنه عَلَم لرسول الله – ﷺ – .

ولهذه الآراء الشاذة ، والمعتقدات الباطلة ، نص كثير من العلماء ، – ومن المعتزلة أنفسهم – ، على تكفير النظام ، وفرقته .

3- وقال أبو مسلم ، محمد بن بحر الأصبهاني تـ (322 هـ)(1)

بالصرفة : ذهب أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهاني في تفسيره إلى أن

---

2) وقال هشام وعباد : لا نقول إن شيئا من الأعراض يدُّل علي الله سبحانه ، ولا نقول أيضا : إن عَرَضا يدل علي نبوة النبي – ﷺ –، ولم يجعلا القرآن عَلَما للنبي – ﷺ – ، وزَعَما أن القرآن أعراض.

3) وقال النظام:الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنعٍ وعَجْزٍ أحدثهما فيهم " انظر . مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري 1 /296 . ط : الهيئة المصرية العامة. الأولى : 1392 هـ . 1972 م.]] وانظر : الشهرستاني في الملل والنحل : (1: 68-69 ، ط مصر ، 1968م) ، وثورة العقل للدكتور عبد الستار الراوي : ص 74 . ود. عبد الرحمن بدوي في موسوعته مذاهب الاسلاميين ص 219 ، وعدت عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) (النظام ، وهشاما ، وعبادا ، من متقدمي شيوخ المعتزلة القائلين بالصرفة) (الاعجاز البياني ص 72) . وذكر الدكتور وليد قصاب أنه لم يشايع النظام على رأيه إلا : (عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى المردار ، وعباد ، وهشام ، ومن ذكرهم البغدادي) (انظر : التراث البلاغي والنقدي للمعتزلة ، ص 47 ، 315) فهشام وعباد لا يريان أن القرآن معجز بنظمه ، ولازم هذا أنهما يقولان بالصرفة ...ألا تكفي هذه الأدلة يا دكتور المنهجية العلمية ..!؟

1 – **أبو مسلم الأصفهانيّ** : هو محمّد بن بحر الأصفهانيّ أبو مسلم الكاتب المترسّل البليغ، المتكلّم ، الجدليّ (تـ 322 هـ). كان الوزير أبو الحسن عليّ بن عيسى بن داود الجرّاح يُقَربه و يَصِله. قال محمّد بن إسحاق: له من الكتب جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب الاعتزال أربعة عشر مجلّدا، و غيره من الكتب. و وصفه أبو عليّ التنوخيّ، بالكاتب المعتزليّ العالم بالتفسير، و بغيره من صنوف العلم (**انظر** : الوافي بالوفيات للصَفَديّ، ج2، ص244، رقم646؛ ومعجم الأُدباء لياقوت الحمويّ، ج5، ص239، رقم828).

و للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ . شيخ الطائفة. وصف جميل عن تفسيره و تفسير عليّ بن عيسى الرُمّانيّ، يقول: و أصلح من سلك في ذلك (الطريقة العقليّة في فهم معاني القرآن) مسلكا جميلاً مقتصدا، محمّد بن بحر، أبو مسلم الأصفهانيّ، و عليّ ابن عيسى الرمّانيّ، فإنّ كتابيهما أصلح ما صنّف في هذا المعنى...(**انظر:** مقدّمة التبيان، ج1، ص21.). و هذا التفسير من أهمّ تفاسير السلف، و الذي سلك مؤلّفه مسلكا وسطا بين طريقتي العقل و

إعجاز القرآن يتأتى من ناحيتين : 1- من جهة نظمه. 2. من جهة صرف الناس عن معارضته .

وقال : " إن إعجاز القرآن يكون من جهتين :

إحداهما : إعجاز يتعلق بنفسه ، وهو الذي يتعلق بفصاحته وبلاغته .

والأخرى : بصرف الناس عن معارضته .

ثم يقول معلقا على الوجه الثاني :" وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا إذا اعتبر ، وذلك أنه ما من صناعة محمودة كانت أو مذمومة ، إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفيّة ، واتفاقات حمليّة ، بدليل أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف ، فينشرح صدره بملابستها ، وتطيعه قواه في مباشرتها ، فيقبلها بانشراح صدر ، ويزاولها باتساع قلب ، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم إلي معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمثله ، ولم يتصدوا لمعارضته لم يخف علي أولي الألباب، أن صارفا إلهيّا صرفهم عن ذلك ، وأيّ إعجاز أعظم من

النقل، و جمع بين الدراية و الرواية، و أحسن و أجاد. هذا الإمام الرازيّ . و هو يخالفه في المذهب نراه مُعجَبا بنظرات و آراء أبي مسلم في تفسيرهِ هذا، و يستفيد منه الكثير البالغ. هو عندما يأتي على تفسير قوله تعالى : (قالَ آيَتُكَ أَن لا تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ إِلاّ رَمزا) (آل عمران : 41) ، يذكر ثلاثة أقوال، و القول الثاني لأبي مسلم: أمر بصوم الصمت ثلاثة أيّام. و يعقّبه بقوله: و هذا القول عندي حسن معقول. و أبو مسلم حسن الكلام في التفسير، كثير الغوص على الدقائق و اللطائف(**انظر** : التفسير الكبير، ج8، ص40 .41). و هذا التفسير . على عظمته. قد ضاع اليوم. و قد قام بجمع شتاته سعيد الأنصاريّ الهنديّ مقتصرا على ما أورده الفخر الرازيّ في تفسيره، و سمّاه ملتقَط جامع التأويل لمحكم التنزيل و طُبع في جزء صغير(**انظر** : معجم المفسّرين، ج2، ص498.) .

أن يكون كافة البلغاء عجزةً في الظاهر عن معارضته ، مصروفةً في الباطن عنها "(1)

هكذا يقرر الأصبهاني بأن من بين وجوه إعجاز القرآن ، عجز البلغاء عن معارضته في الظاهر ، وصرفهم عن الإتيان بمثله في الباطن ، وأن وراء ذلك صارفا إلهيّا صرفهم عن ذلك .

ومع أن مفهوم – الصرفة – نشأ في البيئة الاعتزالية بادئ بدء ، إلا أن ذلك لا يعني أن مفهومها عندهم جميعا كان واحدا ، بل كان لها **ثلاثة مفاهيم** ، هي :–

1– **المفهوم النظامي للصرفة الذي ينفي عن القرآن الإعجاز** ، ويجعله في مستوى الكلام البليغ الذي استحسنته العرب ، وحظي عندها ، ولا فضل للقرآن في ذلك على غيره ، وكان باستطاعة العرب الإتيان بمثله ، لولا أنهم صرفوا مقهورين بقوة خارجة عنهم ، لا طاقة لهم على دفعها . وهو رأي مرفوض لا يعتد به ، ولا يؤبه له – كما سأبين – . وقد كانت رؤوس المعتزلة أول من رفضه ، ورده ، ولم يتابعه عليه إلا شرذمة قليلة منهم . **يقول الجاحظ (ت 255هـ)** مفندا قول النظام ، حيث قال مخاطبا أحمد بن أبي دؤاد (2) (ت 240 هـ) : (فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي ، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على الطعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي ، ولا لحشوي ، ولا لكافر مباد ، ولا

---

1 - انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 4 : 12.ود.حسين نصار :الصرفة والإنباء بالغيب ، ص 17. ولم أجد هذه الأقوال في تفسير أبي مسلم الذي قام بتجميعه د. خضر محمد نبها . ولا في ملتقط جامع التأويل ، وهي نصوص لأبي مسلم قام بجمعها سعيد الأنصاري من تفسير الفخر الرازي وغيره .

2 – هو أحمد بن أبي دؤاد الملقب بأبي عبد الله القاضي ، من الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة ، توفي سنة 240 هـ . القاضي المعتزلي : طبقات المعتزلة ، ص**78** .

لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ، ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة.)(1) ، فواضح من هذا النص أن النظام لو كان يعترف ولو ضمنيا بأن نظم القرآن وتأليفه معجز ، لكان الجاحظ أول من يعرف ذلك ، ولما تصدى لنقض صرفة النظام وردها ، وإذن فمفهوم الصرفة لدى النظام ، وأصحابه ، ليس مجرد شعور بالعجز ، وانصراف تلقائي ، وإنما مفهومها أن الناس كانوا قادرين على مثل القرآن ، لولا أن منعهم الله بمنع وعجز أحدثهما فيهم ، لذلك لم يجد هذا المفهوم قبولا من الجاحظ ، فاستنكره وتصدى لنقضه، ورده ، واستنكره أيضا جمهور المسلمين ، وردوا عليه ردودا منطقية مقنعة ،

منها : ما رد به **الفخر الرازي**(ت 606 هـ) حيث قال-:(قال النظام : إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليؤيد به النبوة ، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، وإنما لم يعارضه العرب ، لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب دواعيهم عن الاعتراض ، ويدل على فساد ذلك وجوه ثلاثة :-

الأول :- لو أن الله صرفهم عن المعارضة ، وأعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها ، لما استعظموا فصاحة القرآن ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنه يجب أن يكون تعجبهم من تعذر معارضة القرآن ، بعد أن كانوا قادرين على المعارضة ، وهذا يبطل ما قاله النظام .

الثاني :- أن كلامهم قبل التحدي لم يكن مقاربا لفصاحة القرآن ، ولو كان كذلك ، لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكن الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، مما يبطل هذه الدعوى .

---

1 - الجاحظ : حجج النبوة - ص143-144.

الثالث :- ليس من المعقول أن ينسى العرب الفصحاء أساليبهم وصيغهم المعلومة في مدة يسيرة ، لأن ذلك يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب ما زالوا يحتفظون بعقولهم بعد التحدي ، فبطل ما قاله النظام .)(1)

2 – **المفهوم الثاني للصرفة : الذي عرف في البيئة الاعتزالية ، هو مفهوم الجاحظ والرماني- لها** ، وهو مفهوم لا يقدح في بلاغة القرآن ، ولا ينكر تفوقه ، بل هو يقر بهذا الإعجاز ، ويعترف به ، ويحس أن ما جاء به القرآن الكريم خارج عن طوق البشر ومقدورهم ، فالصرفة عند الجاحظ ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية ، جاءت لمصلحة المسلمين .(2)حتى يحفظ القرآن من عبث العابثين ، وتشكيك المشككين ، الذين يمكنهم أن يخدعوا الناس ، ويزوروا أمامهم الحقائق ، وقد صرف الله نفوس القوم عن معارضة القرآن ، لا لأنهم قادرون على مثله والله منعهم من ذلك كما قال – النظام – ، ولكن لئلا يكون لأهل الشغب وضعاف الإيمان متعلق للطعن والتشكيك ، وإفساد عقائد ذوي النفوس المريضة ، يقول **الجاحظ** : (ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القضية على الأعراب ، وأشباه الأعراب ، والنساء، وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال)(3). ويذكر الجاحظ هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من كتابه الحيوان ، فيقول:-(

1 – الرازي : تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – ص 21

2 – الجاحظ : الحيوان: – ج4 ص85-89

3- الجاحظ : الحيوان – ج6 ص296 .

وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن ، ولم يأتوا به مضطربا، ولا ملفقا ، ولا مستكرها إذ كان في ذلك لأهل الشغب متعلق)(1).

ومن الواضح أن الصرفة عند الجاحظ بمفهومها هذا ، لا ينفي عن القرآن روعته البلاغية ، ودرجته العالية في سلم الفصاحة، والبيان ، وقد أكد الجاحظ هذه الحقيقة أكثر من مرة ، فذهب الى أن وجه الإعجاز في القرآن إنما هو النظم والتأليف ، وأن القرآن الكريم بلغ القمة في روعة نظمه ، والذروة العظمى من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم ، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم ، وقال واصفا بيان القرآن : (وعبت كتابي في خلق القرآن ، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة ، وعبت كتابي في أصول الفتيا والأحكام ، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه .)(2) . فهناك فرق بين مفهومي النظام ، والجاحظ للصرفة ...

فالنظام : يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن ، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع .

أما الجاحظ : فلم يستعمل الصرفة بمفهومها النظامي الذي سبق أن أنكره عليه ، وإنما استعملها بمفهوم آخر ،لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم . فانصراف العرب عن معارضة القرآن ، إنما وقع بعد أن تحداهم الرسول – ﷺ – بنظمه ، وهي لذلك ليست تعني أن الله أحدث فيهم منعا ،وعجزا، وإنما تعني أن له تعالى تدبيرا ، حفظ به القرآن من شغب المعاندين ، فصرف أوهامهم ونفوسهم ، عن كل محاولة لمعارضة القرآن ، لما قد يدخل بذلك من الشبه على ضعاف العقول ، ولما قد ينشأ عنه من الفتنة .

ومما يدل على أن الجاحظ لم يكن يحس بأي تعارض بين الصرفة بهذا المفهوم وبين نظرية النظم ، أنه جمع بين النظريتين في مكان واحد ، فبعد أن

---

1 – الجاحظ : الحيوان –ج4: ص90.

2 – الجاحظ : الحيوان – ج1 : ص 9

انتهى من تقرير مبدأ الصرفة ، قال :(وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق ، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به)(1). فكلام الجاحظ ينص على أن الذي أعجز العرب ، هو نظم القرآن البديع ، وأن النظم هو الذي تحداهم به الرسول- ﷺ - . أما حديثه عن صرف الله لهمم العرب عن محاولة محاكاته ، فهو يبرز معنى فيه منة امتن الله بها على المسلمين ، حين لم يتكلف بعض المتكلفين معارضة القرآن ، ولو فعل ذلك بعضهم ، فليس المخوف عندئذ أن يأتي بكلام من مثله ، فذلك مستحيل بنص كلام الجاحظ السابق ، ولكن المخوف هو أن يأتي بكلام ينخدع به بعض الضعفاء ، ويتعلقون به ، كما تعلق أصحاب مسيلمة بما ألفه لهم من هراء ، وعندئذ يحدث ما يشوش على القرآن ، عندما يوجد من يستجيد ما ادعي أنه معارضة له ، فيدافع عنه ، ويزعم أنه قد عارض ، وقابل ، وناقض ، فيكثر القيل والقال ، فكان هذا التدبير الإلهي ، لئلا يكون لأهل الشغب متعلق يتعلقون به .(2) فلم يكن إذن تناقض ، أو اضطراب في رأي الجاحظ في إعجاز القرآن، (3) - بل هو في نظره رأي مستقيم ، ونظرية سليمة ، لأن علة

---

1 - للجاحظ : الحيوان ، ج4: ص 90 .

2 - د. عبد الغني محمد سعد بركة : الإعجاز القرآني ، وجوهه وأسراره ، ص 62 .
والسيوطي : الإتقان ج4 : ص 6 .

3 - وللإمام مصطفى صادق الرافعي رأي مختلف فقال : (أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية ، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ...ثم يقول: غير أن الرجل كثير الاضطراب ، ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة ، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها ,, وقد سرد في موضع من كتاب (الحيوان) طائفة من أنوع العجز ، وردها في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عها ورفع ذلك القصد من صدورهم) :انظر : إعجاز القرآن ، ص 164-165. وبمثل ذلك قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب (ولا شك أن هذه إحدى مغالطات الجاحظ و خلابته (أي : خداعه) بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان ..) الإعجاز في دراسات السابقين ، ص 369. وأرى أن الرافعي والخطيب قد

العجز في نظر الجاحظ كائنة في نظام الكلام ، ومخرجه من لفظه وطابعه ، وأن العرب قد تبين لهم ذلك واستيقنوه ، وأنهم عجزوا عجز من يعرف علة عجزه ، وليس عجز المتحير المصروف . (1)

والصرفة عند الرماني(أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله تـ 384هـ) (2) :- تشبه الصرفة عند الجاحظ ، فهي لا تقدح في بلاغة القرآن ، وحسن تأليفه ، فقد ذكر الرماني أن القرآن في أعلى مراتب البيان ، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب ، وبلاغييهم ،فهو مقتنع بإعجاز البلاغة القرآنية ، التي لولاها لجاءوا بمثله. يقول الرماني :- (وأما الصرفة : فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم ، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة

جانبا الصواب ، فصرفة الجاحظ ليست كصرفة النظام ، وهي لا تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن ، فكلام الجاحظ – كما أسلفنا – ينص على أن الذي أعجز العرب ، هو نظم القرآن البديع ، وأن النظم هو الذي تحداهم به الرسول– ﷺ – . أما حديثه عن صرف الله لهمم العرب عن محاولة محاكاته ، فهو يبرز معنى فيه منة امتن الله بها على المسلمين ، حين لم يتكلف بعض المتكلفين معارضة القرآن ، ولو فعل ذلك بعضهم ، فليس المخوف عندئذ أن يأتي بكلام من مثله ، فذلك مستحيل بنص كلام الجاحظ السابق ، ولكن المخوف هو أن يأتي بكلام ينخدع به بعض الضعفاء ، ويتعلقون به ، كما تعلق أصحاب مسيلمة بما ألفه لهم من هراء ، وعندئذ يحدث ما يشوش على القرآن.

1 – د. محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي ، ص 360 .

2 – **الرماني** :هو أبو الحسن علي بن عيسى الرمانيّ النحوي الُمعتزليّ،(296هـ . 384هـ):أحد الأئمة المشاهير، أخذ عن الزجاج وابن دريد، وعنه التنوخي ، والجوهري، صنف في التفسير واللّغة والنحو والكلام، وشرح سيبويه، وله في الاشتقاق والتصريف، وألّف في الاعتزال، وكان من أوعية العلم على بِدعته : .. له مئة مصنف، توفّي في جمادى الآخرة سنة 384 هـ . وكان مع اعتزاله شيعياً.انظر : وفيات الأعيان٢: ٤٦١. ومحمد بن أحمد الذّهبي، سير أعلام النبلاء،ج16 ، ص 534.

، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز ، التي يظهر منها للعقول .)(1)

3- **وأما المفهوم الثالث للصرفة عند المعتزلة ، فهو : مفهوم القاضي عبد الجبار** (قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني ت415هـ)(2) وقد خالف فيه جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها ، ولم يرض عن تفسيراتهم ، فقد أبعد مفهوم الجبرية ، الذي ساد في حديث – النظام – والجاحظ- والرماني – عنها ، لأنها كانت عندهم جميعا ، شيئا خارجا عن إرادة القوم ، مجبورين عليها جبرا (3). وقدم بين يدي ذلك أدلة منها :-

(أولا :- لو كانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح ، أو قول بليغ ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام ، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم ، لما أمكنهم الكلام المعتاد ، ولكن القوم ظلوا يتكلمون ،ويأتون بالقول الفني الممتاز ، ولم ينحدر مستوى بيانهم أو يهبط ، ولكنه كان- على علوه - ، لا يرقى إلى مستوى القرآن .

ثانيا : – ولو ثبت هذا المنع ، لكان في حد ذاته هو المعجز، وليس القرآن ، فإن من سلك هذا المسلك في القرآن ، يلزمه أن لا يجعل له مزية ألبتة .

---

1 – الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، ص 110

2 – **القاضي عبد الجبار**(ت415ه) : ابن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل ، العلامة المتكلم ، شيخ المعتزلة ، صاحب التصانيف ، من كبار فقهاء الشافعية ، ولي قضاء القضاة بالري ، وتصانيفه كثيرة ومن أشهر كتبه : المغني؛ المحيط؛ وكتابه المشهور في مبادئ الاعتزال شرح الأصول الخمسة ؛ ومن كتبه في أصول الفقه: النهاية ؛ وقد كان القاضي عبدالجبار من أكثر شيوخ المعتزلة إملاء وتدريساً . توفي في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة من أبناء التسعين . أنظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، 17: ص. 245

3- د. وليد قصاب : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص: 320 .

ثالثا : – ولو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره ، لبطل بعض القرآن ، ولما كان صحيحا قوله تعالى :– (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . (الإسراء: **88**)

رابعا : – القول بالصرفة يتعارض مع الآية السابقة ، لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء : إن بعضها يكون ظهيرا لبعض ، لأن المعاونة، والمظاهرة ،إنما تمكن مع القدرة ، ولا تصح مع العجز ، والمنع .) .(1)

وبعد أن قدم – القاضي عبد الجبار– هذه الأدلة التي نقض بها مفهوم من تقدموه عن – الصرفة –، **توصل القاضي الى مفهوم جديد للصرفة ،**

وهو في هذه المرة يرتبط بالقوم أنفسهم ، وليس شيئا خارجا عنهم ، أو مفروضا عليهم فرضا ، وهذا المفهوم هو : –(أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة ، لعلمهم بأنها غير ممكنة ، على ما دللنا عليه ، ولولا علمهم بذلك ، لم تكن لتنصرف دواعيهم ، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة ..)(2). فهي صرفة تشبه اليأس الذي يعتري الإنسان من أمر ما حاوله عدة مرات ، وكان يمنى كل مرة بالإخفاق الذريع ، فإذا بعزيمته تتثبط ، وهمته تنهار ، وذلك كان شأن القوم مع القرآن ، فلم يكن تركهم للمعارضة لأمر خارجي ، وإنما لإحساسهم باليأس ، وتيقنهم من العجز عن الإتيان بمثل القرآن ، ثم ينهي– القاضي–حديثه عن مفهومه للصرفة ، فيقول :

---

1 – القاضي عبد الجبار : المغني ج 16: ص324 .

2 – المغني : ج16 : ص 334 .

(فالصحيح ما قلناه ، من أنهم علموا بالعادة تعذر مثله ، فصار علمهم صرفا عن المعارضة .)(1). فالصرفة بهذا المفهوم الجديد عند القاضي عبد الجبار ، ليست تلك الصرفة التي عند النظام ، أو الجاحظ ، والتي تعني : القهر ، والجبر ، إنما هي صرفة ذاتية ، فهم أدركوا بالفطرة ، أن أسلوب القرآن في علوه وسموه ، وروعة نظمه وبيانه ، لا يمكن مجاراته ، ومعارضته ، فانصرفوا ذاتيا بلا قهر، أو جبر من قوة خارجية عن المعارضة ، اقتناعا منهم ويقينا بالعجز، أي أن العقل فكر وجرب ، ثم اقتنع بأن إدراكاته التي وصل إليها، تمنعه من الإتيان بمثل هذا القرآن ..

فالأمر في الحقيقة : انصراف ، وليس صَرفة .(2)

المبحث الرابع

القائلون بالصرفة من أهل السنة

قد يستغرب كثير من الباحثين عندما يقرأ أن بعض كبار علماء أهل السنة يقولون بالصرفة بمفهوميها النظامي ، أوالجاحظي . وعَدُّوها وجها من وجوه الإعجاز ، أمثال :- أبي الحسن الأشعري ، و الإسفراييني ، والراغب الأصفهاني ، والماوردي، وابن حزم الأندلسي ، والبيهقي ، وإمام الحرمين ، والغزالي . ، وأبي العباس القرطبي .

1- قال بها أبو الحسن الأشعري(260 هـ - 324 هـ) (3) :

1 - المغني : ج16 / ص 325 ، والقاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، 586-589.

2 - د. وليد قصاب : ، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، ص 320-323 . بتصرف

3 - **أبو الحسن الأشعري:** هو :إمام المتكلّمين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير ، .البصرة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى

يقول الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم **(ت548هـ)**[1] أثناء حديثه عن **أبي** الحسن الأشعري: - **(والقرآن عنده معجز من حيث البلاغة ، والنظم ، والفصاحة ، إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة ، فاختاروا أشد**

الأشعري ، عاش معظم حياته معتزليا ثمّ تاب وأخذ يردعلى المعتزلة، ثمّ تبنى مذهب الكلاّبية في تأويل بعض الصفات؛ وفي هذا الطّور من حياته ينتسب إليه الأشاعرة، ثمّ رجع عن كلّ ذلك إلى مذهب السلف، وعليه استقر إلى أن قضى، وألّف فيه كتبه الأخيرة(كالإبانة.) مؤلفات الأشعري كثيرة قيل إنها بلغت ما يقارب الخمسين مصنفا وقيل أكثر من ذلك، منها: مقالات الإسلاميين.، ورسالة إلى أهل الثغر. ، و الإبانة عن أصول الديانة...وهذه المصنفات الثلاث الأخيرة هي من آخر ما صنفه، وهي المعبرة عن عقيدته التي مات عليها. توفي أبو الحسن الأشعري سنة 324 هـ ودفن ببغداد .. وقد حاول النظام ، والأشعري ، وأبو هاشم معالجة قضايا كلامية ليست معقولة ولا متحققة حتى قالوا عجائب علم الكلام ثلاث : طَفرة النظام (وهي غير الصَّرفة) ، وكسب الأشعري ، وأحوال أبي هاشم . انظر : مجلة جامعة الملك سعود ، المجلد الخامس عشر . انظر: ، الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ج15 ، ص **86**. و :محمد أحمد لوح، جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، ط 1، .ص 252 .. . و طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: تاج الدين السبكي، ج4، ص365.

1 - **الشهرستاني** : هو أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد المشهور بالشهرستاني ، والشهرستاني منسوب إلى شهرستان وهي بلدة في خراسان الإقليم المعروف في إيران . كان يوصف بدماثة الخلق وطيب الصفات ، وهذا ما تشهد به مؤلفاته ، كانت مكانة الشهرستاني كبيرة عند العلماء فقد لقبوه بعدة ألقاب منها : الفقيه - المتكلم - الأصولي - المحدث - المفسر ، طلب العلم وهو في سن الخامسة عشرة ، فرحل إلى بلاد كثيرة منها : مدن خراسان وخوارزم ومكة المكرمة وبغداد . وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يزيد على عشرين مؤلفاً ، ومن هذه المؤلفات : - الملل والنحل ، و نهاية الإقدام في علم الكلام ، كان الشهرستاني شافعي المذهب ، وقد اعتبره السبكي الابن في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) من رجال المذهب الشافعي. وقد اتفق الباحثون على أنه ولد في مدينة شهرستان .واختلف العلماء في السنة التي ولد فيها ، واتفقوا على مكان وفاته ، وهو بلدة شهرستان أيضاًَ ولكن اختلفوا في سنة وفاته ، والأرجح أنها سنة **548** هجرية .انظر :الشهرستاني وآراؤه الكلامية لشيخنا الدكتور فتح الله بن بدران وداتئرة المعارف الاسلامية ، و كتاب (منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل) للأستاذ محمد بن ناصر السحيباني .

القسمين اختيار عجز عن المقابلة، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع من المعتاد)(1) .

وقال **الشيخ السفاريني : محمد بن أحمد** (1189هـ) [2] : -

[[وفي شفاء أبي الفضل القاضي عياض(3) بعض ميل للقول بالصرفة ، فإنه قال : وذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري إلى أنه(أي القرآن) مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا ، وعجزهم عنه . وقال به جماعة من أصحابه . قال: وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدورالبشر ، وتحداهم بأن يأتوا بمثله قاطع. قال :

---

1 - الشهرستاني : الملل والنحل ، بهامش الفصل ، ج1: ص 135- 136 .

2 - **السفاريني** : محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي، محدث وفقيه أصولي، وصوفي ومؤرخ، ولد بقرية سفارين من قرى طولكرم سنة أربع عشرة ومائة وألف، ونشأ بها، قرأ القرآن في سنة ألف ومائة وإحدى وثلاثين في نابلس، واشتغل بالعلم قليلا وارتحل إلى دمشق سنة ألف ومائة وثلاث وثلاثين، ومكث بها قدر خمس سنوات، فقرأ بها على الشيخ عبد القادر التغلبي "دليل الطالب" للشيخ مرعي الكرمي الحنبلي ، و"الإقناع" للشيخ موسى الحجاوي. ألف العلامة الشيخ السفاريني العديد من المؤلفات والشروح وذكر أنها نحو ثلاثين مؤلفا منها: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب،. وشرح ثلاثيات أحمد في مجلد ضخم.شرح نونية الصرصري سماها (معارج الأنوار السنية في سيرة النبي المختار) في مجلدين. وتحبير الوفا في سيرة المصطفى.والدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات.وغيرها ......انظر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة .

3 - **القاضي عياض :**هو الإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثمّ السبتي المالكي .لم يحمل القاضي العلم في الحداثة، ورحل إلى الأندلس فأخذ عن علمائها .كان هينا في غير ضعف، صلبا في الحق .له عدة مصنفات تدلُّ نفاستها على عظيم مكانته .توفّي رحمه الله مطعونا برمحٍ على أيدي من تسمى بالموحدين !!!بأمرٍ من مهد يِهم ابن تومرت؛ لأنه أنكر القول بعصمته، وكان ذلك سنة 544هـ، انظر : الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ج 20 ، ص 213

وهو أبلغ في التعجيز ، وأحرى بالتقريع ، والاحتجاج بمجيئ بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم(أي على القول بأنه معجز بنظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب) وهو أبهر آية ، وأقمع دلالة (أي في ثبوت الحجة) ، وعلى كل حال(أي : كل تقدير من قول الاعجاز بالصرفة أو البلاغة) فما أتوا في ذلك بمقال ، بل صبروا على الجلاء والقتل ، وتجرعوا كاسات الصغار والذل ، وكانوا من شموخ الأَنْف ، وإباء الضيم ، بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ، ولا يرضونه إلا اضطرارا ، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم ، لأسرعوا بالحجج، وقطع العذر ، وإفحام الخصم لديهم ، وهم ممن لهم قدرة على الكلام ، وقدوة بالمعرفة به لجميع الأنام ، وما منهم إلا من جهد جهده ، واستنفد ما عنده في إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره ، فما حلوا في ذلك بحبة من بنات شفاههم ، ولا أتوا بنقطة من معين مياههم ، مع طول الأمد ، وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ، بل أبلسوا فما نبسوا ، ومنعوا فانقطعوا (أي عن المعارضة)..اهـ كلامه]] [1]

2- عدها **أبو اسحاق الاسفراييني(ابراهيم بن محمد بن ابراهيم تـ 418هـ)** [2] وجها من وجوه الإعجاز ، قال في شرح المواقف - أثناء حديثه عن

---

1 – محمد بن أحمد السفاريني: لوامع الأنوار البهية ، ج1: ص 175- 176.ط3، المكتب الإسلامي ، بيروت .

1- **أبو إسحاق الإسفراييني:** هو الإمام أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الإسفراييني الأصولي المتكلم البغدادي الشافعي، الملقب ركن الدين. أحد المجتهدين في عصره، كان شيخ خراسان في زمانه، بُنيت له بنيسابور مدرسة مشهورة. من تصانيفه كتاب "جامع الخلي في أصول الدين والردِّ على الملحدين"، في خمس مجلدات، وغيرها . قال الحافظ ابن عساكر: حكى لي من أثِقُ به: أن الصاحب إسماعيل بن عبَّاد كان يقول: ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صلٌّ مطرق، والإسفراييني نارٌ تحرق. نقل عنه الأصوليون ، أنه كان ينكر المجاز في اللغة، وأنه كان يقول: القول بأن كل مجتهد مصيب، أوله سفسطة، وآخره زندقة. توفي بنيسابور، وكانت وفاته يوم عاشوراء من سنة ثماني عشرة وأربع مائة، وقد نيف عن

وجوه إعجاز القرآن – : (وقيل : إعجازه بالصرفة ، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة ، لكن الله صرفهم عن معارضته ، واختلف في كيفية الصرف ، (فقال الأستاذ) أبو اسحاق منا ، (والنظام) من المعتزلة ، (صرفهم الله عنها مع قدرتهم) عليها ، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها ، مع كونهم مجبولين عليها ، خصوصا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم ، كالتقريع بالعجز ، والاستنزال عن الرياسات ، والتكليف بالانقياد ، فهذا الصرف خارق للعادة ، فيكون معجزا .) (1)

3 – **وقال الماوردي** (أبو الحسن علي بن محمد ت 450هـ)(2) **بالصرفة** :– فبعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن في كتابه – أعلام النبوة – قال : (الوجه العشرون من أوجه إعجازه : الصرفة عن معارضته ، واختلف من

الثمانين، ثم إنه نقل إلى إسفرايين ودفن في مشهده. انظر : طبقات الشيرازي 106، و معجم البلدان لياقوت الحموي 1 : 178، و وفيات الاعيان لابن خلكان 1 : 28

[1] – القاضي عضد الدين الإيجي : شرح المواقف ج8 / ص 246 .

[2] - **الماوردي** : هو **أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي** (364 – 450 هـ / 974 – 1058 م) أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة، الفقيه الحافظ، ولد في البصرة عام 364 هجرية، لأب يعمل ببيع ماء الورد فنسب إليه فقيل "الماوردي". ارتحل به أبوه إلى بغداد، وبها سمع الحديث، ثم لازم واستمع إلى أبي حامد الإسفراييني. عمل بالتدريس في بغداد ثم بالبصرة وعاد إلى بغداد مرة أخرى. كان يعلم الحديث وتفسير القرآن. لقب عام 429 هـ بأقضى القضاة، ثم بعد ذلك تولى منصب قاضي القضاة.كان الماوردي ذا علاقات مع رجال الدولة العباسية كما كان سفير العباسيين ووسيطهم لدى بني بويه والسلاجقة. بسبب علاقاته هذه يرجح البعض كثرة كتابته عما يسمى بالفقه السياسي. ومن كتبه في هذا المجال: أدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية ، وقانون الوزارة. و أعلام النبوة، وتفسير القرآن "النكت والعيون"وقد اتهم الماوردي بالاعتزال لكن انتصر له تلميذه الخطيب البغدادي فدافع عنه ، ودفع عنه الادعاء. توفي في يوم الثلاثاء شهر ربيع الأول من سنة 450 هـ، ودفن من الغد في مقبرة باب حرب، وكان قد بلغ **86** سنة، وصلى عليه الإمام الخطيب البغدادي. . انظر :مجلة دعوة الحق المغربية : العدد **218**.

قال بها : هل صرفوا عن القدرة على معارضته مع دخوله في مقدورهم ..؟ على قولين :

أحدهما :– إنهم صرفوا عن القدرة ، ولو قدروا لعارضوا .

والقول الثاني :– إنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم .

والصرفة إعجاز على القولين معا ، في قول من نفاها ومن أثبتها ، فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة ، ثم يقول : فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها ، صح أن يكون كل واحد منها معجزا ، فإذا جمع القرآن سائرها كان إعجازه أقهر ، وحجاجه أظهر ، وصار كفلق البحر ، وإحياء الموتى ، لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله) (1)

وقال في **تفسيره النكت والعيون** : – (فأما إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله ، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه :

أحدها : أن وجه إعجازه ، هو الإعجاز والبلاغة ، حتى يشتمل يسير لفظه على كثير المعاني ، مثل قوله تعالى : (وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ) (البقرة : 179) ، فجمع في كلمتين ، عدد حروفهما عشرة أحرف ، معاني كلام كثير .

والثاني : أن وجه إعجازه ، هو البيان والفصاحة ، التي عجز عنها الفصحاء ، وقصّر فيها البلغاء ، كالذي حكاه أبو عبيد (2) ، أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : (فاصدع بما تؤمر)(الحجر : 94) فسجد ، وقال سجدت لفصاحة هذا الكلام ، وسمع آخر رجلا يقرأ : (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِياً) (يوسف : 80) فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام

---

1 – الماوردي : أعلام النبوة – ص 85–86 .

2 – **أبو عبيد القاسم بن سلام** : محدث ، مقرىء ، فقيه ، أخذ عن أبي زيد الأنصاري ، ومعمر بن المثنى ، والقراء ، والأصمعي . تـ سنة 222هـ انظر : معجم الأدباء : 16: 254.

.وحكى الأصمعي(1) قال : رأيت بالبادية جارية خماسية أو سداسية وهي تقول :

أستغفر الله لذنبي كله.....قتلت إنسانا لغير حله .

مثل غزال ناعم في دَلِّه.........فانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أتعد فصاحة بعد قول الله عزَّ وجلَّ : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي] إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص : 7) فجمع في آية واحدة ، بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وإنشاءين .

والثالث : أن وجه إعجازه ، هو الوصف الذي تنقضي به العادة ، حتى صار خارجا عن جنس كلام العرب ، من النظم ، والنثر ، والخطب ، والشعر ، والرجز ، والسجع ، والمزدوج ، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها ، مع كون ألفاظه وحروفه في كلامهم ، ومستعمله في نظمهم ونثرهم .

حكي أن ابن المقفع (2) طلب أن يعارض القرآن ، فنظم كلاما ، وجعله

---

1 – هو (الأصمعي) **عبد الملك بن قريب** بن عبد الملك بن علي ، أبو سعيد ، أديب ، لغوي ، أصولي من أهل البصرة . قدم بغداد في أيام هرون ، توفي بالبصرة سنة 216هـ . انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج1: ص 362.

2 – **عبد الله بن المقفع** : كاتب ، شاعر ،فارسي الأصل ، نشأ بالبصرة ،واتهم بمعارضة القرآن ، فقال الرافعي: هذه النسبة مكذوبة عليه، وأنّ ابن المقفّع من أبصر الناس بعدم إمكان معارضة مثل القرآن، لا لشيء إلاّ لأنّه من أبلغ الناس. وإذا قيل أنّ فلانا يزعم إمكان المعارضة فاعلم أنّه إمّا جاهل أحمق أو عالم أعمته العصبيّة، وابن المقفّع ليس واحدا منهما، ذلك الرجل العاقل الخبير بموضع نفسه من كلام الله المجيد. واتهم بالزندقة ، أسلم على يد «عيسى بنعلي» عمّ المنصور. ولعلّه لذلك (لمنافسة كانت بينه وبين عمّه) أمر عامله بالبصرة (سفيان بن معاوية) بشنق ابن المقفّع نكاية به، بحجّة زندقته في ظاهر الأمر.. من آثاره : الأدب الصغير ، الدرة اليتيمة ،وترجم كليلة ودمنة للفيلسوف الهندي بَيْدَبا ، وغيرها ، انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ج5: 222. وابن كثير : البداية والنهاية :10: 96. والرافعي لا، إعجاز القرآن ، ص 202–203. "

مفصلا ، وسماه سورا ، فاجتاز يوما بصبي يقرأ في مكتب : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيِ الأمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود : 44) فرجع ، ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا ، وما هو من كلام البشر ، وكان فصيح أهل عصره .

والرابع : أن وجه إعجازه ، هو أن قارئه لا يكل ، وسامعه لا يمل ، وإكثار تلاوته تزيده حلاوةً في النفوس ، وميلاً إلى القلوب ، وغيره من الكلام ، وإن كان مستحسن النظم مستعذب النثر ، يمل إذا أعيد ويستثقل إذا ردد .

والخامس : أن وجه إعجازه ، هو ما فيه من الإخبار بما كان مما علموه ، أولم يعلموه ، فإذا سألوا عنه ، عرفوا صحته ، وتحققوا صدقه ، كالذي حكاه من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر ، وحال ذي القرنين ، وقصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الماضية في دهرها .

والسادس : أن وجه إعجازه ، هو ما فيه من علم الغيب ، والإخبار بما يكون ، فيوجد صدقه وصحته ، مثل قوله لليهود : (قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ) (البقرة : 94) ثم قال : (وَلَنْ يَتَمَنَّمْوهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أيدِيِهِمْ) (البقرة : 95) فما تمناه واحد منهم ، ومثل قوله تعالى لقريش : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) (البقرة : 24) فقطع بأنهم لا يفعلون ، فلم يفعلوا .

والسابع : أن وجه إعجازه ، هو كونه جامعاً لعلوم لم تكن فيهم آلاتها ، ولاتتعاطى العرب الكلام فيها ، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد ، ولا يشتمل عليها كتاب وقال تعالى :) مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام : 38) وقال : (تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ) (النمل : 89) . وقال النبي – ﷺ – : (فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم هو الحق ليس بالهزل من طلب الهدى

من غيره ضَلّ)(1) وهذا لا يكون إلا عند الله الذي أحاط بكل شيء علماً .

والثامن : أن إعجازه هو الصرفة ، وهو أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فلم تحركهم أنفه التحدي ، فصبروا على نقص العجز ، فلم يعارضوه ، وهم فصحاء العرب مع توفر دواعيهم على إبطاله ، وبذل نفوسهم في قتاله ، فصار بذلك معجزا لخروجه العادة كخروج سائر المعجزات عنها .

واختلف من قال بهذه الصرفة على وجهين :

أحدهما : أنهم صرفوا عن القدرة عليه ، ولو تعرضوا لعجزوا عنه .

والثاني : أنهم صرفوا عن التعرض له ، مع كونه في قدرتهم ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

فهذه ثمانية أوجه ، يصح أن يكون كل واحدٍ منها إعجازاً ، فإذا جمعها القرآن وليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزاً بأولى من غيره ، صار إعجازه من الأوجه الثمانية ، فكان أبلغ في الإعجاز ، وأبدع في الفصاحة والإيجاز(2)

4- **ومن القائلين بالصرفة ابن حزم الظاهري (** علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي ت 456هـ)(**3**) :

---

1 ـ قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف جدا ، تخريج الطبري ، ج1: ص 172. وقد ضعف الألباني الحديث في المشكاة : ج1: ص 660. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه – .

2 – الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، النكت والعيون : ص 31- 33. المؤلف : دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان . تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم .

3 ـ **ابن حزم الأندلسي:** يعد من أكثر علماء الأندلس بل علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، وهو إمام حافظ. فقيه ظاهري،. ومتكلم، أديب، وشاعر، وناقد محلل، بل وصفه

ذكر ابن حزم بأن وجه إعجاز القرآن الكريم يكمن في أمرين هما: نظمه، وبما فيه من الإخبار بالغيب ، ثم عقب علي ذلك بقوله : " وهذا هو الحق الذي ما خالفه فهو ضلال " .(1)

ثم بعد ذلك نراه يصرح بأن الله تعالي منع الخلق عن مثله ، وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق ، يقول : " فإن قالوا : فقولوا أنتم هل

البعض بالفيلسوف. وزير سياسي لبني أمية، سلك طريق نبذ التقليد وتحرير الأتباع. قامت عليه جماعة من المالكية وشُرِد عن وطنه. توفي في منزله في أرض أبويه المعروفة بمونتيخار حالياً. عاش حياته الأولى في صحبة أخيه أبى بكر، الذي كان يكبره بخمس سنوات، في قصر أبيه أحد وزراء المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر من بعده. وكانت تربيته في تلك الفترة على أيدي جواري القصر الذي كان مقاما في الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر الزاهرة، والملاصق لدار المنصور بن أبى عامر .. سكن ابن حزم وأبوه قرطبة ونالا فِيهَا جاهاً عريضاً.ولي وزارة للمرتضى في بلنسية، ولما هزم وقع ابن حزم في الأسر وكان ذلك في أواسط سنة (409) هجريه، ثم أطلق سراحه من الأسر، فعاد إلى قرطبة . وله ردود كثيرة على الشيعة واليهود والنصارى وعلى الصوفية والخوارج. كان الإمام ابن حزم ينادي بالتمسك بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة ورفض ما عدا ذلك في دين الله، لا يقبل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة التي يعتبرها محض الظن..وكانت الناس تضرب المثل في لسان ابن حزم، فقيل عنه: (سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان)، فلقد كان ابن حزم يبسط لسانه في علماء الأمة وخاصة خلال مناظراته مع المالكية في الأندلس، وهذه الحدة أورثت نفورًا في قلوب كثير من العلماء عن ابن حزم وعلمه ومؤلفاته، وكثر أعداؤه في الأندلس.ألب أعداؤه المعتضد بن عباد أمير اشبيلية عليه ، فاصدر قراراً بهدم دوره ومصادرة أمواله وحرق كتبه، وفرض عليه ألاّ يغادر بلدة أجداده ، كما توعد من يدخل إليه بالعقوبة، وهناك توفي سنة 1064 م. هو من أكثر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، ألف ابن حزم في الأدب كتاب طوق الحمامة، وألف في الفقه وفي أصوله، مثل : المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار إثنى عشر جزءا توفى ابن حزم ولم يتمه حيث توقف عند المسألة رقم2023 وأتمه ابنه الفضل من كتاب أبيه الإيصال طبع عدة مرات . و الإحكام في أصول الأحكام ثمانية أجزاء في مجلدين طبع عدة مرات ..وغيرها الكثير انظر كتاب محمد أبوزهرة، ابن حزم حياته وعصره، دار الفكر العربى، القاهرة، 1373 هـ/1954 م، ص27 ..وغيرها .

1 – الفصل في الملل والأهواء والنحل 3 / 16 .

القرآن موصوف بأنه في أعلى درج البلاغة أم لا ؟ قلنا وبالله التوفيق : إن كنتم تريدون أن الله قد بلغ به ما أراد فنعم ، هو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها ، وإن كنتم تريدون هل هو في أعلي درج البلاغة في كلام المخلوقين ؟ فلا؛ لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة ، أو خطبة ، أو تأليف ، أو موعظة ، حروف الهجاء المقطعة لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلا ، وأن الله تعالي منع الخلق عن مثله ، وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق " .(1)

ومما قاله في الفصل في الملل والأهواء والنحل :-

(والنحو الرابع : ما وجه إعجازه ..؟ فقالت طائفة : وجه إعجازه كونه في أعلى مراتب البلاغة ، وقالت طوائف :- إنما وجه إعجازه أن الله منع الخلق من القدرة على معارضته فقط ، فأما الطائفة التي قالت : إنما إعجازه لأنه في أعلى درج البلاغة ، فإنهم شغبوا في ذلك ، بأن ذكروا آيات منه، مثل قوله تعالى : (ولكم في القصاص حياة)(سورة البقرة : آية 179) ونحو هذا ، ومَوَّهَ بعضهم بأن قال : لو كان كما تقولون من أن الله تعالى منع من معارضته فقط ، لوجب أن يكون أغث ما يمكن أن يكون من الكلام ، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ) . وبعد رده على هذين الدليلين قال : (فلا بد لهم من هذه الخطة ، أو من المصير إلى قولنا: إن الله منع من معارضته فقط).

ثم قال في آخر كلامه :- [والحق من هذا هو ما قاله الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ..) (سورة الإسراء ، آية : **88**) وأن كل كلمة قائمة المعنى ، يعلم إذا تليت أنها

---

1 - المرجع السابق 3 / 18 ، 19 .

من القرآن ، فإنها معجزة ، لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا ، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك] (1) .

تحقيق مذهب ابن حزم في الإعجاز :

1- يقر ابن حزم بأن القرآن معجز للخلق جميعا قليله وكثيره في ذلك سواء

2- ابن حزم قائل بالصرفة التي لا تنفي علو القرآن ، ولم نجد له كلمة واحدة يقول فيها إن الله لو خلى بين الناس وبين القرآن لأتوا بمثله ، ولا كلاما يشبه هذا المعنى . بل له ما يفيد عكسه .

3- يقر ابن حزم بسمو رتبة القرآن على كلام البشر بل على كل كلام للإنس والجن جميعا وهذه عبارته : صح بهذا ما قلناه من أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين وأنه على رتبة قد منع الله تعالى جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله (2) والخارج عن نوع بلاغة المخلوقين إما أن يكون دونها أو فوقها لا مساويا لها ، ومراده الأول بدليل قوله " وأنه على رتبة " فأثبت له رتبة وقف الخلق دونها . " (3)

4- يرفض ابن حزم أن يَجمعَ القرآنَ مع كلام الخلق نوعٌ واحدٌ هو البلاغة ، بحيث يشتركان في أن كلا منهما كلام بليغ وينفرد القرآن بكونه في أعلى مراتب البلاغة . يقول : لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ولا من أوسطه " (4).

5- يرى ابن حزم أن توجيه الإعجاز بكون القرآن في أعلى مراتب البلاغة ، يقلل من شأن القرآن ولا يرفعه . وأن إدخاله مع كلام البشر في مقياس واحد "

---

1 – ابن حزم : الفصل ، ج3/ ص17–21 . وانظر د. مصطفى مسلم : مباحث في إعجاز القرآن ، ص 63.

2 – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : 1 : 87

3 – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : 3 :12

4 – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : 3 : 12

هو البلاغة " يسيء إليه ، حتى لو قيل هذا في أعلى الدرجات وذاك في أدناها . يقول– رحمه الله – : لأن معجز الأنبياء هو خارج عن الرتب ، وعن طبائع كل ما في العالم ، وعن بنية العالم ، لا يجري شيء من ذلك على قانون ، ولا على سنن معلوم ، لكن قلب عين وإحالة صفات ذاتية ، كشق القمر وفلق البحر واختراع طعام وماء، وقلب العصا حية و إحياء ميت قد أَرَمَّ " (1) . بل يذهب إلى أن هذا القول يخل بالإعجاز أصلا : " لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون في كل من كان في أعلى طبقة ، وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود " (2) فكأنه يرى أن البلاغة هي المقاييس البشرية لجودة الكلام ، والقرآن ليس يدخل تحت هذه المقاييس أصلا ، والقول بأن القرآن أبلغ من كلام البشر ظلم لكلام الله تعالى ، يشبه قالة من يقول : إن قدرة الله أشد من قدرة الناس ، وعلمه تعالى أوسع من علم البشر ، وهي مقارنة جائرة غير منصفة بحال ، وما قدرة الناس وعلمهم بجوار علم الله وقدرته إلا محض عدم ، (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)(البقرة : 216). وكأني بابن حزم في هذه الحال يتمثل قول الشاعر :

متى ما أقل مولاي أفضل منهم .... أكن للذي فضلته متنقصا

ألم تر أن السيف يُزري به الفتى ...إذا قال إن السيف أمضى من العصا (3)

6- يرفض ابن حزم وهو الظاهري أن يعلل عجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن بأي علة أخرى سوى أنهم قد عجزوا، فاختار القول لذلك بالصَّرفه فهو الذي يفيد ذلك ، فالقائلون بها لا يذكرون لعجز الناس سببا سوى أن الله أراد ذلك . وهذا ما يريده ابن حزم الظاهري الكاره لكل علة، وتعليل لشيء من أفعال الله تعالى أو أحكامه . فهو الذي جاهد جهادا مريرا لنفي القياس

---

1 – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : 5 : 4

2 – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : 3 : 11

3 – البيتان لأبي درهم البندنيجي كما في يتيمة الدهر للتعالبي : 2 : 224.

والتعليل .فاختيار ابن حزم هنا متناسب تمام التناسب مع أصوله الفكرية العامة . يقول الأستاذ أسامة عبد الرحمن المراكبي : وبعد هذا البيان لا نرى مقبولا أبدا قول د : محمد أبو موسى " واحتجاج ابن حزم كان متجها إلى توهين القول بتفوق القرآن في النظم والبلاغة ، وهذا شيء فريد في بابه . ولا قوله " إنه لم يتقن بحث الإعجاز ونرى أن الشيخ قد عجل على ابن حزم دون أن يقف معه وقفة تأمل يستحقها الإمام بلا شك ، لمكانته ومنزلته في العلم والدين "(1) . بل لعل ابن حزم – رحمه الله – ما أراد بهذا إلا أن يرفع مكانة القرآن الذي قال فيه : (مع القرآن أحيا متمسكا به ، وأموت إن شاء الله متمسكا به ، ولا أبالي بمن سلك غير طريق القرآن، ولو أنهم جميع أهل الأرض غيري) (2)

---

1 – د:محمد محمد أبو موسى ، الإعجاز البلاغي: 360 وما بعدها . وانظر : البحوث القرآنية في تراث ابن حزم جمع ودراسة ونقد " أسامة عبد الرحمن المراكبي(من مقال له بملتقى التفسير) ولو تأملنا قول الإمام ابن حزم السابق **(منع الناس عن مثله وكساه الإعجاز)** لوجدناه متناقضا ، لأنه لا معنى لأن يكسوه الله الإعجاز ، إذا كان عجز البشر عنه منعا منه سبحانه ، وما دام الوجه هو منع الناس ، فلا يوصف النظم بالإعجاز، لأن المعجز هو منع الناس عن الإتيان بمثله ، فالمنع يخلع صفة الإعجاز عن النظم، وينقلها إلى المنع . ومن المشهور عن الإمام مالك بن أنس أنه كان يقول عند التحديث في الحرم النبوي الشريف: كل أحد يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى الروضة الشريفة. وقال الإمام الشافعي في كتابه الأم في أثناء كلام:(وهذا يدل على أنه ليس لأحد دون رسول الله – ﷺ – أن يقول إلا بالاستدلال) وما قاله هؤلاء الأئمة المهتدون هو ما أجمع عليه السلف .

فقول الإمام ابن حزم وغيره من الأئمة الذين يقولون بالصرفة لا نأخذ بها ،لأن ذلك يسلب الإعجاز الذاتي عن القرآن الكريم . ونأخذ برأي من أثبت الإعجاز لآيات القرآن ورفض الصرفة .ولا يعيب هؤلاء الأئمة إن جانبهم التوفيق في رأي أو أكثر .. ولا ينتقص ذلك من علمهم ومنزلتهم ... ولكل جواد كبوة ...

2 – ابن حزم ، الإحكام : 4 : 571..

5 – **وقال بها الحافظ البيهقي** : (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي (تـ 458 هـ) في رفض الصرفة [1] ، إذ ذكر في كتابه الاعتقاد أوجها خمسة من وجوه الإعجاز في القرآن ، فقال : واختلف أهل العلم في إعجاز القرآن : **1-**

منهم من قال : لإعجازه من جهة البلاغة ، وحسن اللفظ دون النظم . ولم يرتض هذا الوجه فقال : (لا معنى لقول من زعم أن الإعجاز في لفظه لأن الألقاط مستعملة في كلام العرب ومتداولة في خطابها, ولأن البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفرد الألفاظ وحسب ، دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ، ومواضعها المصرفة إليها ، والمستعملة فيها) ([2])

2 – ومنهم من قال:إعجازه من جهة نظمه دون لفظه ، فإن العرب قد تكلمت بألفاظه . وقد نصر البيهقي هذا الوجه بقوله : (وأما إعجازه من جهة النظم ، فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآن سائر أصناف الكلام التي تكلمت بها العرب) ([3])

---

1 – **أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي** ،ولد في بيهق (384-458هـ) الإمام المحدث المتقن صاحب التصانيف الجليلة ، تتلمذ على جهابذة عصره وعلماء وقته. بدأ طلب العلم وسماعه الحديث منذ نعومة أظافرة. و قام الإمام البيهقي برحلة طويلة لطلب العلم فسمع أولا بمدن خراسان : طوس، همدان، وغيرها من بلاد خاراسان ، ثم دخل مكة المكرمة وسمع من علمائها، وبعد ما االنتهى من أداء فريضة الحج توجه إلى بغداد والكوفة وما حولها من بلاد العراق ، وبعد ما أنهى رحلته رجع إلى بيهق وانقطع بقريته للتأليف.
ومؤلفاته : كثيرة ، منها : السنن الكبير في عشر مجلدات ، والسنن والآثار في أربع مجلدات ، والأسماء والصفات في مجلدتين ، والترغيب والترهيب مجلد ، ودلائل النبوة أربع مجلدات ، و شعب الإيمان مجلدان ..وغيرها . بورك في علمه وتصانيفه ، كان ورعا ، قانعا زاهدا ، وكان أهلا للاجتهاد . توفي سنة ثمان وخمسين وأربع مائة ودفن ببيهق، وهي على يومين من نيسابور، وعاش أربعا وسبعين سنة. انظر : سير أعلام النبلاء جزء18 ص164-168. ومعرفة السنن والآثار للبيهقي 1: 212 .

2 – البيهقي ، الاعتقاد : ص 259.

3 – المرجع السابق . ونفس الصفحة .

3 – ومنهم من قال : إعجازه في إخباره عن الحوادث ، وإنذاره بالكوائن في مستقبل الزمان ، ووقوعها على الصفة التي أنبأ عنها . وارتضى البيهقي هذا الوجه ، وهو الإخبار عن الكوائن المستقبلة ، وساق له كثيرا من الشواهد .

4 – ومنهم من قال : إعجازه في أن الله **أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي** ، وتوفر الدواعي إليه ، لتكون آية للنبوة ، وعلامة لصدقه في دعواه .

ثم نصر هذا القول ، وذهب إليه بقوله : (**وأما الصرفة والتعجيز** مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله ، فإنما يعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفير الدواعي وشدة الحاجة إليه ، وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه ، لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ، ونقض كلمته ، ولما خرجوا في أمره إلى نصب القتال والتغرير بالأنفس ، وإتلاف الأموال ، ومفارقة الأهل والأوطان ، ولكان ذلك أيسر عليهم من مباشرة هذه الخطوب ، ومقاساة هذه الشدائد والكروب ، فلما لم يفعلوه دل على عجزهم عن ذلك ، وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء ، فجعل يتلوى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء ، فلا يشك شاك أنه عاجز عن شربه **أو ممنوع لسبب يعوقه عنه،** وأنه لم يتركه اختيارا ، مع توفر الدواعي له ، وشدة الحاجة منه إليه ، وهذا بين والحمد لله ... ومن دلائل صدقه أنه كان من عقلاء الرجال عند أهل زمانه ، وقد قطع القول فيما أخبر عن ربه – عز وجل– ، بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به ، فقال : (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ .....)(البقرة : 24) ، فلولا علمه بأن ذلك من عند علام الغيوب ، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلاف ، وإلا لم يأذن له عقله في أن يقطع القول بشيء بأنه لا يكون..) [1] ودلل على ذلك بقوله : (وحين امتنع أبو لهب من الإسلام ، وقال لرسول الله –ﷺ– ما قال ، أنزل الله عز وجل فيه

---

1 – الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، الاعتقاد في الهداية إلى سبيل الرشاد ، حققه أحمد أبو العينين ، ط1، دار الفضيلة ، الرياض . ص 355–356.

: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ .) (المسد : 1-3) فمات أبو لهب (1) على شركه ، وصلى النار بكفره ، وإنما أنزلت

---

1 - هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكنيته أبو عتبة ، وكناه أبوه أبو لهب ، لتلهب وجهه وحسنه وإشراقه ؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : (أبو النور ، وأبو الضياء)، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لهب) الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم ، وهو النار . ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره. وفي ذلك كناية عن كونه جهنميا ; لأن اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان . والأب : يطلق على ملازم ما أضيف إليه وهي الكنية التي اشتهر بها. قال الآلوسي : (وفيها كناية تشير إلى مصير أبى لهب بأنه صاحب اللهب بمعنى أنه سيصير إلى لهب جهنم كما دلت عليه الآية الآتية وهى" سيصلى نارا ذات لهب " ، أو لجعله كناية عن الجهنمي فكأنه قيل تبت يدا جهنمي ، وذلك لأن انتسابه إلى اللهب كانتساب الأب إلى الولد ، يدل على ملابسته له وملازمته إياه ، كما يقال هو أبو الخير وأبو الشر وأخو الفضل وأخو الحرب لمن يلابس هذه الأمور ويلازمها .(انظر : الآلوسى ، روح المعانى ج23: 169)

وكان أبو لهب من سادات قريش في الجاهلية ، وكان تاجرا كثير المال ، وتزوج من العوراء أروى (أم جميل) بنت حرب بن أمية ، وكان علاقته بابن أخيه حسنة للغاية ، فقد سارع أبو لهب إلى إعتاق مولاته (ثُوَيبة) حين بشرته بولادة محمد - ﷺ - ، ثم خطب أبو لهب ابنتي رسول الله - ﷺ - (رقية وأم كلثوم) لولديه (عتبة وعتيبة) إلا أن أبا لهب أمرهما بتطليقهما حين نزلت فيه سورة (تبت يدا أبي لهب وتب) . وكان (عتيبة) قد تزوج (أم كلثوم) بنت رسول الله - ﷺ - وفارقها قبل أن يدخل بها ، ثم جاء إلى النبي- ﷺ - وقال له : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم سطا عليه وشق قميصه ، فدعا عليه رسول الله - ﷺ - وقال : إني أسأل الله أن يسلط عليك كلبا من كلابه ، فخرج مع تجار قريش لبلاد الشام ، فنزلوا ليلا بجوار (الزرقاء)كما قيل ؟ فجاءه الأسد بعد أن حطوا رحالهم ، وحام حولهم ، ثم وثب إلى عتبة وضربه ، فقال قتلني . وفيه قال حسان ابن ثابت :

من يرجع العام إلى أهله ....فما أكيلُ السبع بالراجع .

أصيب أبو لهب بداء يعرف بالَعَدَسة (وهيَ بثرة قاتلة كالطاعون تصيب الجسد كله ..كما يقول ابن منظور : مادة عدس، مجلد 6 : 132) بعد غزوة بدر بسبعة أيام ..

وعبد العزى بن عبد المطلب(**أبو لهب**) عم رسول الله – ﷺ – ، والذي كان من أشد الناس عداوة له ، لو أنه رجع عن عداوته لرسول الله – ﷺ – وأعلن إسلامه أمام قومه ولو نفاقاً ، وقال لرسول الله – ﷺ – : إنك يا محمد تدّعي بأن الإسلام يجبّ ما قبله ، وكتابك يقول : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ...) (الأنفال : 38) وأنا الآن أؤمن بك وبدينك ، فماذا أنت فاعل فيما ألقيته على مسامعنا من هذا الكلام الذي تدعيه ؟ .

لكن الله عز وجل أبعده عن ذلك ، ومنعه من فعله ، ولذلك جاء قوله (وتب) بعد الجملة الدعائية لتؤكد ثبوت هذا الهلاك والخسران الذي أعده الله . عز وجل . لهذا الرجل ، وأنه كائن له لا محالة . وكانت هذه السورة (المسد) ، سبباً في إسلام مفكرة أمريكية تُدعى (**مرجريت**) ، وهي امرأة شابة في الخامسة والثلاثين من عمرها ، تعمل أستاذة في إحدى الجامعات الأمريكية، وقد أشهرت إسلامها في دولة تونس عام 1418هـ الموافق 1997م بسبب ثلاث وعشرين كلمة في القرآن الكريم. تحكي القصة المثيرة التي كانت وراء إسلامها قائلة : "عشت الحياة طولا وعرضا ، لكنني كنت شغوفة بدراسة الأديان الثلاثة . المسيحي ، واليهودي ، والإسلامي . ومكثت في ذلك سنوات وسنوات .

وأخيرا : هداني الله إلى دليل دامغ تتضاءل أمامه كل الحجج والأدلة والبراهين في الأديان الأخرى ، تقول وأنا أقرأ القرآن وأدرسه آية آية ، وضعت يدي على سورة المسد ، وفيها يقول المولى عز وجل : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ .) (سورة المسد 1–5). فقد تضمنت هذه السورة نبأ دخول أبي لهب ، ودخول زوجه النار ، ومعنى ذلك هو الإخبار عن عدم تشرفهما بقبول الإسلام إلى آخر حياتهما ، وقد وقع ذلك ، وكان بمقدور (أبي لهب) أن يَطلع على الناس ، ويشهر إسلامه ، فيضع الإسلام كله في مأزق ، لو أن القرآن كان من عند البشر . كان أبو لهب حيا ، والنبي – ﷺ – حيا، والصراع على أشّده بين الإيمان والكفر ، ولولا أن هناك قوة تفوق قدرة البشر لخرج (أبو لهب) ونطق بالشهادتين أمام الناس ، وقال لهم : لقد كذب قرآن محمد حينما وصفني بالكفر حتى أموت ، فمن منّا الصادق اليوم : أنا أم محمد ؟ هكذا وصلتُ إلى هذا الدليل المقنع بأن الإسلام هو الدين الحق، وأن القرآن من عند الله. ثم ختمت حديثها قائلة : ومن يدرس القرآن الكريم ، سوف يكتشف الكثير والكثير ، إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج20، ص 209. وانظر التحقيق الصحفي ص 3 وهو بعنوان " 21 كلمة وراء إ شهار السيدة مرجريت إسلامها " والصحيح (23) كلمة ، للصحفي : محمد رجب ، والمنشور في

وأبو لهب حيّ ، فلم يمكنه – مع حرصه – على تكذيب رسول الله – ﷺ –
ونقض كلمته أن يظهر الإسلام ليشكك الناس في النبي – ﷺ – . وفيما
أخبرهم من شأنه ، ولا يجوز أن تقع هذه الأمور على الاتفاق ، وتستمر على
الصدق ، فلا يختلف شيئا منها ، إلا أن يكون من علام الغيوب .([1])

5 – وذهب بعض العلماء إلى إثبات الإعجاز للقرآن من جميع هذه الوجوه.(**2**)..
فالإمام البيهقي يميل للقول بالصرفة ، وربما كان متأثرا بشيخه الإسفراييني
. ([3]) مع قوله أن القرآن معجز في نظمه ، كما قال الجاحظ من قبل .

6 – وقال بها كذلك : إمام الحرمين(أبو المعالي عبد الملك بن عبد
الله الجويني ت478هـ)([4]) ، فبعد أن قرر في كتابه

مجلة اللواء الإسلامي التي تصدر عن الحزب الوطني بمصر ، بعدد الخميس 22من المحرم
1418 هـ الموافق 29 من مايو 1997م . وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : 1: 115 .
وأسباب النزول للواحدي ، 376–377. ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، كلمة السخنة .)

[1] - وكأن الإمام البيهقي يريد الإيحاء بأن الله كما منع أبا لهب من الإسلام ، منع العرب من
معارضة القرآن . .؟!

[2] - انظر : الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، الاعتقاد في الهداية إلى سبيل الرشاد ،
حققه أحمد أبو العينين ، ط1، دار الفضيلة ، الرياض : ص 348. .

3 – انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج17: ص 373.

4 – **أبو المعالي الجويني** : هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن
عبد الله بن حيوه الجويني، ولد في **18** محرم 419هـ في بيت عرف بالعلم والتدين؛ واستطاع
الجويني أن يحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة. كان نجمه قد بدأ يلمع في نيسابور وما حولها،
لكنه تعرض لبعض العنت والتضييق، فاضطر إلى مغادرة نيسابور، وتوجه إلى بغداد فأقام فيها
فترة وتوافد عليه الطلاب والدارسون، وما لبث أن رحل إلى تهامة فأقام بمكة وظل بها أربع
سنوات يدرّس ويفتي ويناظر ويؤم المصلين بالمسجد الحرام حتى لقبه الناس بـ"إمام الحرمين"
لعلمه واجتهاده وإمامته، وكان يقضي يومه بين العلم والتدريس ويقيم ليله طائفا متعبدا في
الكعبة المشرفة؛ فصفت نفسه، وعلت همته، وارتفع قدره.ولكن مؤلفات الجويني على كثرتها لم
تنل القدر الملائم لها من العناية والاهتمام من قبل الباحثين والمحققين، فمعظمها لا يزال

-الإرشاد [1] – أن وجه الإعجاز في القرآن هو (اجتماع الجزالة مع الأسلوب ،والنظم المخالف لأساليب كلام العرب ، فلا يستقل النظم بالإعجاز على التجريد ، ولا تستقل الجزالة أيضا ، ثم الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية) ، **يتراجع في(العقيدة النظامية)** [2] ويناقض رأيه معلنا : أن وجه الإعجاز هو : الصرفة فقال : (وقد أكثر الناس في وجه إعجاز القرآن ، وتقطعوا فيه أيادي سبأ ، وصار معظم الناس إلى أن القرآن تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة ، خارج عن المعتاد في ذلك ، ثم زعم زاعمون : أن إعجازه في شرف جزالته ، وذهب آخرون : إلى أن إعجازه في الجزالة الفائقة ، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر ، والخطب ، والأراجيز، ثم يقول : – من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات ، مجاوز لفصاحة اللَّدد البلغاء ،واللسن الفصحاء فقد حاد عن مدرك الحق) ، ثم يقرر الجويني : أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن كان بسبب الصرفة ، فيقول :– (فتبين قطعا أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم ، وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها ، ومن هدي إلى هذا المسلك فقد رشد إلى الحق المنير ، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا ... إلى أن يقول : فإذا لم تجر المعارضة ، لم يبق لامتناعها ، مع توفر الدواعي عليها محمل إلا صرف

مخطوطا، ولم يُطبع إلا عدد قليل منها: الإرشاد في الكلام. والشامل في أصول الدين.وغياث الأمم في التياث الظلم. تم تحقيقه علي يد الدكتور عبد العظيم الديب. وغيرها . أصيب الجويني بعلة شديدة، فلما أحس بوطأة المرض عليه انتقل إلى "بشتنقان" للاستشفاء بجوها المعتدل، ولكن اشتد عليه المرض فمات بها، وذلك في مساء الأربعاء (25 ربيع الآخر **478هـ)** عن عمر بلغ تسعا وخمسين عاماً. انظر ترجمة الجويني في: طبقات الشافعية الكبرى 5/165، ووفيات الأعيان 2: 341..

1 -الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد، ص 349 .

2 – ألفه الجويني بعد كتابه الإرشاد ، كما ذكر محققا الإرشاد (محمد يوسف موسى ، وزميله) انظر المقدمة : **ص / س.**

الله الخلق ، فكيف يهتدي إلى إعجاز القرآن ، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة ، وشفاء الصدور في الحكم ؟ فإن مثله من مقدورات الخلق ، ولكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم)(1)

7 – **وعدها الراغب الأصفهاني** (الحسين بن محمد ت 502هـ)(2)

كذلك وجها من وجوه الإعجاز ، و للراغب الأصفهاني وقفة في مقدمة تفسيره " جامع التفاسير" مع وجوه إعجاز القرآن الكريم ، فكان مما قال: (إن الإعجاز " قد ذكر " في القرآن " على وجهين:

أحدهما: إعجاز متعلق بفصاحته..

والثاني: بصرف الناس عن معارضته: فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة: فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، وذلك أن ألفاظه ألفاظهم، ولذلك قال تعالى: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا)(يوسف:2) وقال: (الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ) (البقرة : 1–2) (تنبيهاً على أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام.

ولا يتعلق أيضاً بمعانيه، فإن كثيراً منها موجود في " الكتب المتقدمة " ولذلك قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) (الشعراء : 196) ، وقال (أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) (طه: 133) وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب ، فإعجازه ليس برجع إلى القرآن بما هو

---

1 ـ الجويني : العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ـ ص 72-73 (باختصار يسير).

2 – **الرَّاغِب الأَصْفَهَاني** هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب. قال الزركلي أنه «اشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي».(توفي ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) هو أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة. من مؤلفاته التى ذكرها الزركلي: محاضرات الأدباء ، والذريعة إلى مكارم الشريعة ، الأخلاق ويسمى أخلاق الراغب ، وجامع التفاسير، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره ، والمفردات في غريب القرآن ..وغيرها .انظر : الاعلام ، للزركلي ، 2: 255

قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه النظم أو بغيره ، وسواء كان مورداً بالفارسية ، أو بالعربية ، أو بلغة أخرى ، أو بإشارة ، أو بعبارة .
فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا. كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، أو الخطبة خطبة.

فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والخلخال تختلف أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة، فإذا ثبت هذا ، ثبت أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص. وبيان كونه معجزاًَ هو أن نبين نظم الكلام، ثم نبين أن هذا النظم مخالف لنظم سائره، فنقول: لتأليف الكلام خمس مراتب:

الأولى: ضم حروف التهجي بعضها إلى بعض، حتى يتركب منها الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.
والثانية: أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها لجمل المفيدة، وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام.

والثالثة: أن يضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مبادئ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له المنظوم .

والرابعة: أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له: المسجع.
والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص، ويقال له الشعر.
وبالحق صار كذلك: فإن الكلام إما منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن..
والمنظوم: إما محاورة، ويقال لها: الخطابة، وإما مكاتبة، ويقال لها: الرسالة، وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة.ولكن من ذلك نظم مخصوص.والقرآن حاو لمحاسن جميعه ، بنظم ليس هو نظم شيء منها ، بدلالة أنه لا يصح

أن يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصح أن يقال: هو كلام، ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم. ولهذا قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) (فصلت : 42–43) تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر.

فإن قيل: ولِمَ لمْ يتبع نظم القرآن الوزن الذي هو الشعر، وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون، إذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزوناً؟

قيل: إنما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية في الشعر منافية للحكمة الإلهية ، فإن القرآن هو مَقَرُّ الصدق، ومَعْدِنُ الحق. وقصوى الشاعر تصوير الباطل في صورةِ الحق، وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحري الصادق، حتى إن الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق إلا بالعرض.

ولهذا يقال: من كانت قوته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر، ومن كانت قوته العاقلة فيه أكثر فيه كان في قرضه أقصر.

ولأجل كون الشعر مقر الكذب، نزه الله نبيه – ﷺ – عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال، وواسطة بين الله وبين العباد، فقال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)(يس:69) ، فنفى ابتغاءه له. وقال تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) (الحاقة : 41) أي: ليس بقول كاذب. [1]

---

1 – هذا تفسير – في ظني – مجانب للصواب .. فاللغة العربية متميزة ، ولسانها متفرد في دقته ، حيث أصبح التعبير اللغوي هو : (الإنشاء الحضاري) الذي يقابل أبنية وهياكل الشعوب الأخرى ، المعلقاتُ على أستار الكعبة توازي أعمدة هرقل وإيوان كسرى ، إنها حضارة اللسان وعبقريته وجاء القرآن ليتحدى ببنائه الحضاري اللغوي ، كل البناءات الحضارية ، صِيغَ بنهج إنشائي دفع به اللغة إلى كمالها الحضاري ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهو من أصلِ حضارتهم ، ومن مادتها ، فعجزوا عن بلوغ الكمال اللغوي الإنشائي الذي ارتقت إليه اللغة في

القرآن ، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، واحتاروا وتَحَيَّروا لا هو بالشعر ولا بالنثر ، ولكنه توليدٌ جديدٌ من أصلِ المادة ، ودون الخروجِ عن خصائصها ، غير قابل للتماثل والتطابق ، فلم يجد الخصومُ رداً سوى القول بأنه : (سِحرٌ يُؤثر .)(المدثر:24) لقد جاء القرآن متجاوزاً للشعر في إبداعيةِ الإنشاء ، ويختلف عنه اختلافاً جذرياً في تدقيق المعاني (وقصدها) ، فعمد إلى وضعِ مقارنة حَدِّية بين القرآن والشعر العربي على مستوى المبنى والمعنى ، فقال تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) (يس:69) وقال: (وما هو بقول شاعر) (الحاقة:41) وقال : (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .) (الشعراء : الآيات : 224–227) (انظر : العالمية الإسلامية الثانية ، محمد أبو القاسم حاج حمد : ص 163). كما حَمَلَت هذه الآية توجيهاً دقيقاً للعربي ، لينظر إلى الفارق بين المعاني التي يحتويها القرآن ، والمعاني التي يحتويها الشعر ، فالشعر في أرقى حالاته هو : (بناءٌ وَضعيّ) ، والقرآن : (بناءٌ إلهيٌ مَنهجيّ) ومع ذلك لم ينفِ الله الإبداع الشعري ويَستَلِبُهُ في مقابل القرآن ، بل نَبَّه إلى خصائصه المفارقة ، وَوَجَّه إلى تزكيتِهِ ، حتى لا يَهيمَ الشاعرَ في كل واد وحتى يقولَ ما يفعل . فالقرآن يبين لهم :أن مَنهَجَ محمد – ﷺ – ومنهج القرآن ،غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا ، فإن هذا القرآن يستقيمُ على نهجٍ واضح ، ويدعو إلى غايةٍ محددة ، ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية ، والرسول – ﷺ – لا يقولُ اليومَ قولاً يَنقضُهُ غداً ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ، إنما يُصِرُّ على دعوة ، ويثبتُ على عقيدة ، ويَدأبُ على منهجٍ لا عِوَجَ فيه ، والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة ، تتحكم فيهم مشاعرهم ، وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت ، يَرضَونَ فيقولون قولاً ، وَيَسخطون فيقولون قولاً آخر ، ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبتُ على حال . فمنهجُ الرسول – ﷺ – ومنهجُ الشعراء مختلفان... ومع هذا فالإسلام لا يحاربُ الشعر والفن لذاته – كما يُفهمُ من ظاهر الألفاظ – إنما يُحارب المنهجَ الذي سار عليه الشعر والفن ، منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابِطَ لها ، ومنهج الأحلام الموهومةِ التي تَشغلُ أصحابها عن تحقيقها . فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً ، وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع ، فالإسلام – عندئذ – لا يكره الشعر ولا يُحارب الفن .(انظر : في ظلال القرآن ج5: ص 2621) .

أما تنزيهه – ﷺ – عن إنشاء الشعر ونظمِهِ ، وما ذلك عن عَيّ ، أو عَجز ، وإنما حِفظٌ من الله تعالى لمن قال في حقه (وما علمناه الشعر) (يس : 69) ،

فقد رُوِي أنه – ﷺ – أنشد بيتَ طرفة بن العبد غيرَ مَوزون ، فقال :

سَتُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً .... ويأتيك من لم تُزود بالأخبار

وصحَةُ المِصراعِ الثاني من البيت هي : ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزَود .

ومن ذلك أيضا موقفه – ﷺ – من الشاعر المشهور العباس بن مرداس ، حين فَضَّلَ الرسول – ﷺ – عليه في العطاء: الأقرع بن حابس ، وعُيينة بن حِصن ، فقال العباس أبياتاً منها :

أصبحَ نهبي ونهبَ العبيد .... بين عُيَينةَ والأقرعِ .

فبلغَ الرسولُ – ﷺ – ذلك ، فدعاهُ ، فقال له : أنت القائل :

أصبح نهبي ونهب العبيد ...... بين الأقرعِ وَعُيَينة .

فقال أبو بكر– رضي الله عنه – : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لم يقل ذلك ، ولا والله ما أنت بشاعر ولا ينبغي لك الشعر ، وما أنت براوية ، قال : فكيف .؟ فأنشده أبو بكر البيت ، فقال: هما سواء ، لا يضرك بأيهما بدأت ، بالأقرع أو بعيينة . (انظر الأغاني : ج3/ ص 65).

وقد ورد أن الرسول – ﷺ – تَمَثَّلَ بأبياتٍ من الشعر في مواطن الجهاد ، ومَواسمِ العملِ في الخير ، منها ما ذكره البراء بن عازب– رضي الله عنه – أنه سمع رسولَ الله– ﷺ – يرتجز يوم الأحزاب بكلماتِ ابن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ..... ولا تصدقنا ولا صلينا

(رواه البخاري في باب الرجز في الحرب ج4/ ص 25)

وثبت عنه – ﷺ – أنه قال في غزوة حُنَين :

أنا النبي لا كَذِب .... أنا ابن عبد المطلب .

(انظر: صحيح البخاري ج5: ص 99).

والرَّجَزُ عند أكثر العلماء لا يُعَدُّ شعرا إلا على سبيل التَّجَوُّز ، أو هو بمنزلةٍ بين الشعر والنثر . (انظر أقوالهم في كتاب صور البديع ، لعلي الجندي، ج1/ ص 5–22)

قال القرطبي مُعَلقاً على الأبيات التي ارتجزها الرسول – ﷺ – بقوله : (ولا اعتراضَ لملحدٍ على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلامِ الرسول ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ، ليس بشعر ، ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزونٍ من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعراً) (انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج15: ص 53 – 55).

وقال البيضاوي في تفسير سورة يس (الآية 69) : وقوله – ﷺ –: أنا النبي لا كذب ... وقوله : هل أنت إلا أصبع دُميتِ .... اتفاقيٌّ من غير تكلف وقَصدٍ منه إلى ذلك ، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات ، على أن الخليل ما عَدَّ المشطور من الرجز شعراً .) هذا ما ذكره أهل الذكر من العلماء والمفسرين في سبب تنزيه الرسول– ﷺ – عن قولِ الشعر.

ويبدو لي أن هناك سبباً آخر وهو : ما تناقلته الرواة من أن الشعراء في الجاهلية يقولون

أو يقال عليهم : أن لهم قُرناءَ من الجن يُلهمونهم الشعر ، وأن للشعر شيطانَين : يدعى أحدهم : (الهَوبَر) ، والآخر : (الهَوجَل) ، فمن انفرد به الهَوبر ، جادَ شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به الهَوجل، فَسَدَ شعره . ويزعمون أن مع كل فَحلٍ من فحول الشعراء شيطان من هذه الشياطين ، فيزعمون أن– لافظ بن لاحظ – هو صاحب امرئ القيس ، و – هَبيد – صاحب عَبيد بن الأبرص ، حتى قال قائلهم : لولا هَبيد ما كان عَبيد ، وقال الشاعر الجاهلي :

إني وإن كنت صغير السِّنِ .... وكان في العين نُبُوٌّ عني

فإن شيطاني أميرُ الجِنِ .... يذهبُ بي في الشعر كل فن .

.... حتى يَرُدَّ عَنِيَ التَّظني .

ويزعمون أن اسم شيطان الأعشى : مِسحِل، واسم شيطان (المُخَبل العَبدي) عمرو، وقال الأعشى :

دعوت خليلي مِسحلاً ودَعوا له .... جَهَنّام ، بُعداً لِلغَوِيّ المُذَمَّمِ

وافتخر – أبو النجم – بأن شيطانه ذَكَر ، فقال :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشر ...... شيطانُه أُنثى وشيطاني ذَكَر .

وقال حسان بن ثابت :

ولي صاحبٌ من بَني الشَّيْصَبان .... فَطَوراً أقولُ وطوراً هُوَ ...

هذا ..ولم يكن لشعراءِ الجاهلية شياطينهم فحسب ، وإنما كان للشعراء الإسلاميين أيضا كالفرزدق ، وجرير ، وبشار ، وغيرهم من الفحول ، وارجع إلى جمهرة شعراء العرب للقرشي ، والأغاني للأصفهاني ، وبلوغ الأرب للآلوسي ، والشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة ، والخصائص لابن جني ، وبحث : جن الشعراء : للمستشرق جولد تسيهر ، ترى الشيئ الكثير العجيب من عقائد الجاهليين في الجن .. لذا قال سبحانه : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) (يس:69) ليُبعِدَ أمثال هذه التصورات عن أذهان العرب ، مع أن العرب نبزوا الرسول – ﷺ – بأنه شاعر مُلهَم من الجن ، فرد عليهم القرآن بقوله (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) (الطور : 29)وبقوله: (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)(الحاقة: 40-41) أما ذم القرآن للشعراء فقد فهمه أهل العلم على أنه الشعر المشتمل على زُور ، أو مُناهضةِ حَق ، وما عداه فمأذونٌ في إنشاده. وقال شُراح الحديث كلاماً كثيراً حول أقوالٍ قالها الرسول – ﷺ – في الشعر والشعراء :(لئن يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يُرِيَهُ – أي : يصيب رئته ويفسدها – خير له من أن يمتلئ شعراً)(صحيح البخاري : ج7: ص 109) . غير أننا نجد رواية أخرى في مجمع الزوائد (ج**8**:ص 120) ، تقول الرواية عن جابر : (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، أو دماً ، خير من أن يمتلئ شعرا هُجيتُ به) ، والقول الأخير هنا فيه تحديد لنوع الشعر ، وفي الأول إطلاق . وقال النبي – ﷺ – (إن من الشعر لحكمة)(أخرجه أبو داود في الأدب ، رقم : 5010) ومن الثابت أن الصحابة –رضي الله

إلى أن يقول : وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته، فظاهر أيضاً إذا اعتبر، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعله من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة، إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية، واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد فالواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانشراح صدر .وقد تضمن ذلك قوله تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (المائدة: 48) ، وقول النبي – ﷺ – (أعْمَلُوا فَكُلَّ مَّيَسَّر لما خلُقِ لَهُ) (1)

فلما رؤي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن وأعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته ، لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهياً يصرفهم عن ذلك ، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مُخيرةً في الظاهر أن يعارضوه، ومُجْبَرةً في الباطن عن ذلك. وما أليقهم بإنشاد أبي تمام :

عنهم – كانوا يتناشدون الأشعار . عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : (جالستُ النبي – ﷺ – أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويذكرون أشياءَ من أمر الجاهلية ، فربما تبسم معهم)(أخرجه الترمذي : رقم 2850) وقد وردت عدة أحاديث صحيحة في أمرِ النبي – ﷺ – بهجاء المشركين ، إلا أن أوفاها وأجمعها الحديث الذي روته عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله – ﷺ – قال : (أهجوا قريشا ، فإنه أشد عليهم من رشق النبل ، فأرسل إلى ابن رواحة ، ثم إلى كعب بن مالك ،ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل عليه حسان قال : والذي بعثك بالحق ،لأَفرينَّهُم بلساني فَرْيَ الأديم ..قالت عائشة : فسمعت رسول الله– ﷺ – يقول لحسان : إن روح القدس لا يزال يؤيدك ، ما نافحتَ عن الله ورسوله) (صحيح مسلم : رقم : **2487**) . والعرب يَعلمون ما للشعر من الاتصال بالنفوس ، وما له من الأثر في استهواءِ القلوب ، ولما جعل المشركون يَسطون على مقام النبوة بالهجاء ، ويتخذونه سلاحاً لمحاربة دين الحق ، كان من الحكمة البينة أن يُكافَحَ أولئك الهجاءون بسلاحهم ، فأَذِنَ الرسول – ﷺ – لحسان بن ثابت وغيره أن يجازي تلك السيئة بمثلها ، وأخبر أن جبريل يؤيد حساناً ، وكذلك كانت العاقبة للذين انتصروا من بعد ما ظلموا ، فليس من الصواب أن يُخلي السبيل لتلك الأشعار الطاعنة ، والمقالات المُغرضة ..؟! فتطرق كل أذُنْ ، وتحوم على كل قلب ، دون أن تقف أمامها قوة تعمل على مِثالها ، فَتَكُفَّ بأسها ، وتَنفضُ عن الصدور وَساوِسَها .

1 – حديث مرفوع، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ , وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ شَيْبَانَ كِلاهُمَا عَنْ عَبْدِ الْوَارِثِ . انظر : القضاء والقدر ، للبيهقي : رقم 224.

فإن نكُ أهملنا فأضعف بسعينا ..... وإن نك أُجبرنا ففيمَ نُتعتع .[1]

والله ولي التوفيق والعصمة .) [2]

8 – وعدها الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد ت 505هـ) (3) :–

وجها من وجوه الإعجاز، فقال في كتابه –الاقتصاد في الاعتقاد– :

---

1 – البيت من قصيدة يمدح يها أبا سعيد الثغري ، أولها : " أما إنّه لولا الخليط المودّعُ" – ق:91 – الديوان:ج2ص319 . قال الخطيب التبريزي في شرحه : (إن خلينا والدنيا لينال كل منها بقدر طاقته وسعيه ، فما أضعف سعينا وأخلق بأن لا ننال منه شيئا ، وإن نك أُجبرنا على ما نحن فيه من الغنى والفقر ، ففيم نهذي ونردد في الكلام .. والتعتعة : ترديد الكلام .

2 – الراغب الأصفهاني : مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ص104– 109 . تحقيق – احمد حسن فرحات دار الدعوة – الكويت، وانظر علوم القرآن عند المفسرين ، ج2: ص434–435.

3 - **أبو حامد الغزالي:** أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء (450 هـ – 505 هـ / 1058م – 1111م). كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، وكان صوفيّ الطريقةِ، وقد عُرف كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية السنّيّة في علم الكلام، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبي الحسن الأشعري، (الباقلاني والجويني والغزّالي). لُقّب الغزالي بألقاب كثيرة في حياته، أشهرها لقب "**حجّة الإسلام**". كان له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ في عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، وترك عشرات الكتب في تلك المجالات. ولد وعاش في طوس، ثم انتقل إلى نيسابور ليلازم أبا المعالي الجويني (الملقّب بإمام الحرمين)، فأخذ عنه معظم العلوم، ووصفه شيخه أبو المعالي الجويني بأنه: «بحرمغدِق». وكان الجويني يُظهر اعتزازه بالغزالي، حتى جعله مساعداً له في التدريس،وعندما ألف الغزالي كتابه "المنخول في علم الأصول" قال له الجويني: «دفنتني وأنا حيّ، هلّا صبرتَ حتى أموت؟». **يُكنّى** بأبي حامد لولد له مات صغيراً، ويُعرَف بـ "**الغزّالي**" نسبة إلى صناعة الغزل، حيث كان أبوه يعمل في تلك الصناعة، ويُنسب أيضاً إلى "**الغَزَالي**" نسبة إلى بلدة غزالة من قرى طوس، وقد قال ابن خلكان أن نسبته إلى "الغزّالي" (بتشديد الزاي) هو المشهور، كما يُعرف بـ"الطوسي" نسبة إلى بلدة طوس الموجودة في خراسان، والتي تعرف الآن باسم مدينة مشهد موجودة في إيران. ولد أبو حامد الغزّالي عام 450 هـ الموافق **1058**، في "الطابران" من قصبة طوس، وقيل بأنّه وُلد عام 451 هـ الموافق 1059. وقد كانت أسرته

فقيرة الحال، إذ كان أباه يعمل في غزل الصوف وبيعه في طوس، ولم يكن له أبناء غيرَ أبي حامد، وأخيه أحمد والذي كان يصغره سنّاً كان أبوه مائلاً للصوفية، رجلاً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده، وكان يحضر مجالس الفقهاء ويجالسهم، ويقوم على خدمتهم، وينفق بما أمكنه إنفاقه، وكان كثيراً يدعو الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهاً، فكان ابنه أبو حامد أفقه علماء زمانه، وكان ابنه أحمد واعظاً مؤثراً في الناس.

الغزالي في بغداد : وصل الغزالي إلى بغداد في جمادى الأولى سنة 484 هـ، في أيام الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، ودرّس بالمدرسة النظامية حتى أُعجب به الناس لحسن كلامه وفصاحة لسانه وكمال أخلاقه. وأقام على التدريس وتدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدّة أربعة سنوات، حتى اتسعت شهرته وصار يُشدّ له الرّحال، ولُقّب يومئذٍ بـ "الإمام" لمكانته العالية أثناء التدريس بالنظامية في بغداد، ولقّبه نظام الملك بـ "زين الدين" و"شرف الأئمة". وكان يدرّس أكثر من 300 من الطلاب في الفقه وعلم الكلام وأصول الفقه، وحضر مجالسه الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب وأبي بكر بن العربي، حيث قال أبو بكر بن العربي: «رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم»، وبعد 4 سنوات من التدريس خرج من بغداد خفيةً في رحلة طويلة بلغت 11 سنة، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، وانهمك الغزالي في البحث والاستقصاء والردّ على الفرق المخالفة بجانب تدريسه في المدرسة النظامية، فألّف كتابه "مقاصد الفلاسفة" يبيّن فيه منهج الفلاسفة، ثمّ نقده بكتابه "تهافت الفلاسفة" مهاجماً الفلسفة ومبيّناً تهافت منهجهم ، ثمّ تصدّى الغزالي للفكر الباطني (وهم الإسماعيلية) الذي كان منتشراً في وقته والذي أصبح الباطنيون ذوو قوّة سياسية، حتى أنّهم قد اغتالوا الوزير نظام الملك عام **485** هـ الموافق **1091**، وتُوفي بعده الخليفة المقتدي بأمر الله، فلما جاء الخليفة المستظهر بالله، طلب من الغزالي أن يحارب الباطنية في أفكارهم، فألّف الغزالي في الردّ عليهم كتب "فضائح الباطنية" .

ويعتبر كتابه إحياء علوم الدين أحد أهم الكتب في موضوع التصوف وعلم الأخلاق، والذي ألّفه خلال رحلة عزلته التي دامت 11 سنة، حيث ابتدأ التأليف به في القدس، وأنهاه في دمشق...رحل الغزالي إلى القدس واعتكف في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم ارتحل وزار مدينة الخليل في فلسطين، وما لبث أن سافر إلى مكة والمدينة المنورة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى بغداد،ثم إلى طوس، لبث فيها بضع سنين، وما لبث أن تُوفي يوم الاثنين 14 جمادى الآخرة 505 هـ، الموافق 19 ديسمبر 1111م، في "الطابران" في مدينة طوس، ولم يعقب إلا البنات. **انظر** : وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص98.و طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج5، ص306.. و عبد الرحمن بدوي (1977). مؤلفات الغزالي (الطبعة الثانية). الكويت:. صفحات 9–15.

(فإن قيل :ما وجه إعجاز القرآن ؟

قلنا : الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب ، والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم ، وسائر صنوف كلامهم ، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر ، نعم ، ربما يرى للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة ، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه

من القرآن ، ولكن من غير جزالة ، بل مع ركاكة ، كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال : الفيل وما أدراك ما الفيل .. الخ ..
فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه ، مع ركاكة يستغثُّها الفصحاء ، ويستهزئون بها ، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافة العرب منها العجب ، ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في فصاحته ، فهذا إذن معجز وخارج عن مقدور البشر من هذين الوجهين ، أعني من اجتماع هذين الوجهين

فإن قيل : لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ، ولو قصدت لقدرت عليه ، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به .

والجواب :

إن ما ذكروه هوس ، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف ، مهما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي ، وشن الغارات ، ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا ، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى ، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات .)[1]

1- الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص129-130.

9- وقال بها أبو العباس القرطبي (تـ 656 هـ) (1) : عرض أبو العباس : أحمد بن عمر القرطبي "تـ 656هـ (2) في الجزء الثالث من كتابه

---

1 – هو: الإمام الفقيه المحدّث أبو العباس ضياء الدين أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري الأندلسيّ القرطبي المالكي.ولد سنة 578هـ في قرطبة, وعُرف بابن المزيِّن, رحل مع أبيه من الأندلس وهو صغير, إلى فاس وتلمسان ,ثم الإسكندرية, والمدينة ومكّة, والقدس.
مصنفاته: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم. وتلخيص صحيح مسلم .مختصر البخاري ، وله كتاب في أصول الفقه.وغيرها . توفي أبو العباس القرطبي في الرابع من ذي القعدة من عام 656هـ, ودفن بالإسكندرية.انظر : الوافي بالوفيات 7: 295, تذكرة الحفاظ4 : 1438.

2 – وأبو العباس هذا ليس القرطبي المفسر صاحب الجامع لأحكام القرآن كما توهم صاحب المنهجية د. محسن الخالدي مدرس التفسير في جامعة النجاح في مدينة نابلس المحتلة !؟.

وللأستاذ سمير القدوري مقال تحت عنوان : (من هو القرطبي مؤلف كتاب الإعلام في الرد على النصارى ؟) قال فيه : وقع لجماعة من المعنيين بالتراث العربي لبس بشأن هوية " الإمام القرطبي" المبهم اسمه صاحب كتاب الإعلام, بما في دين النصارى من الفساد
والأوهام. وأقدم الذين غلطوا في أمر القرطبي, هو **إسماعيل باشا البغدادي** الذي نسب الكتاب المذكور إلى أبي عبد الله محمد بن أحمد بن فَرْح الأنصاري القرطبي(ت.671هـ) مفسر القرآن الكريم. ثم تابع البغداديَّ على هذا القول المستشرقُ **الألماني كارل بروكلمان** في الملحق الأول على كتابه تاريخ الأدب العربي .
ثم أخذ بقوليهما بعد ذلك, الدكتور **القصبي محمود زلط** فقال عند تعداده لكتب القرطبي المفسر ما نصه:" ومنها: الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد و الأوهام و إظهار محاسن دين الإسلام, ولقد أشار البغدادي إلى هذا الكتاب في هدية العارفين, وحدد بروكلمان مكان هذا الكتاب فذكر في كتابه تاريخ الأدب العربي أنه يوجد منه نسختان خطيتان بمكتبة كوبريلي بتركيا تحت رقم 794- 814" . وعن هؤلاء الثلاثة انتشرت نسبة كتاب الإعلام إلى القرطبي المفسر في الدراسات العربية, فرغم أن الكتاب حقق كاملا مرتين, الأولى من طرف أحمد حجازي السقا سنة 1980م , الذي تردد بعض الشيء في نسبة الكتاب إلى القرطبي المفسر, و الثانية من طرف الباحثة فايزة سعيد صالح عزام, في نطاق رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى للعام الجامعي 1405هـ و الباحثة بدورها تنسب الكتاب للقرطبي المفسر تقليدا لأسلافها في هذه القضية.
وحقق الكتاب جزئيا ثلاث مرات على الأقل, من طرف كل من:
– عبد الله الخلائفي محقق القسم الثاني من الكتاب .

:"الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ..." الأدلة على نبوة سيدنا محمد – ﷺ – وجعل النوع الثالث منها الاستدلال بالقرآن الكريم على نبوته فقال : " فإن قيل: فبينوا لنا وجوه إعجاز القرآن ، وهل هو من جنس ما يقدر عليه البشر ، فصرفوا عنه ، أو ليس من جنس ما يقدرون عليه ؟

فالجواب : أن نقول : ذهب بعض علمائنا إلى أن وجه إعجازه إنما هو من **جهة أن صرفوا عن الإتيان** به ، وأنه من جنس مقدور البشر ، لكن لم يقدروا عليه ، وهذا إن كان ، فهو بليغ في الإعجاز ، وذلك أنَّ المعجزات ضربان :

– علي بو عمامة من جامعة ستراسبورغ بفرنسا عام 1978م .

كل هؤلاء لم يفلحوا في تجاوز ما قاله البغدادي و كارل بروكلمان, ونحن نفند إن شاء الله ما ذهبوا إليه من ثلاثة وجوه.

الوجه الأول: يلاحظ القارئ لكتاب الإعلام اختلاف أسلوب صاحبه و أسلوب القرطبي المفسر.

الوجه الثاني: يلاحظ اختلاف جوهري بين مؤلف الإعلام و بين القرطبي المفسر فيما يتعلق بمسألة إعجاز القرآن, فحينما يقول صاحب الإعلام بالصَّرْفة أي" أن البشر قد صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن, بل عن الإتيان بآية طويلة من آياته" . في حين كان القرطبي المفسر يرفض تماما هذا المذهب ويقول في شأنه:" وهذا فاسد لأن لإجماع الأمة قبل حدوث المخالف, أن القرآن هو المعجز, فلو قلنا إن المنع و الصَّرْفَة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا, وذلك خلاف القرآن" . فنحن نرى أن مذهب القرطبي المفسر على النقيض تماما من مذهب مؤلف الإعلام في قضية من أمهات المسائل العقيدة الإسلامية وهذا ليس دليلا هينا على استبعاد كون المفسر مؤلفا لكتاب الإعلام.

الوجه الثالث: أننا لم نجد أحدا, قبل البغدادي, ممن ترجم للقرطبي المفسر ذكر أن له كتابا في الرد .

وبمثل ذلك قال د. محمد بن إبراهيم أباالخيل في مقال مطول تحت عنوان : **كتاب "الاعلام" هل ألفه القرطبي ؟** وطرح سؤالا قال فيه : هل كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " ... من تواليف القرطبي المفسر المشهور... وقال : ولقد عثرنا على إحالات لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، وهو شيخ القرطبي المفسر، .في شرحه لصحيح مسلم،(المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم.) يشير فيها إلى كتاب اسمه: "الإعلام " ، وذلك في عدة مواضع... فثبتت بذلك نسبة الكتاب لأبي العباس القرطبي ، وليس للقرطبي المفسر .

ضرب خارج عن مقدور البشر ، كانفلاق البحر ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وضرب يكون من جنس مقدور البشر إلا أنهم يمنعون من فعله ، ولا يقدرون عليه 0فلو أن نبيا ادعى أنه رسول الله واستدل على صدقه بأن قال لقومه : آيتي ألا تقدروا اليوم على القيام ، فكان ذلك ، فهذا دليل صدقه ، وهو معجزة جلية ، أبلغ في الإعجاز من الإتيان بما ليس بمقدور 0ولا يبعد أن يكون إعجاز القرآن من هذا القبيل ، فإن البشر **قد صرفوا** عن الإتيان بمثله ، بل عن الإتيان بآية طويلة من آياته ، ومن تنازع في ذلك ، فعليه بأن يأتي بقرآن مثله ، أو بسورة من مثله ، وهذا من نوع خصائص نبينا – ﷺ – . وذلك أن معجزاته موجودة بعده ، وحاضرة مشاهدة في كل وقت ، لم تنقطع بانقطاع وجوده ، ولا ماتت بموته ، بل هي موجودة مستمرة إلى قيام الساعة ، فكل من أبدى نكيرا في نبوته ، أو قدحا في رسالته ، قلنا له : إن كنت صادقا في تكذيبك له ، فعارض قرآنه ومنزله ، فإن لم يفعل تبين العقلاء منه أنه مُتواقح مُبطل . **ثم نقول** : والذي ذهب إليه أكثر علمائنا: أن القرآن خارج عن مقدور البشر ، وليس من جنس مقدورهم ، وأن القرآن وإن كان كلاما ، فليس بينه وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء إلا ما كان بين الحية التي انقلبت عصى موسى عنها ، وبين حيات السحرة التي كانت تخيل للناظر إليها أنها حيات تسعى ، ووجوه إعجازه كثيرة ، لكنا نبدي منها أربعة ونقتصر عليها لبيانها وظهورها.. " (1)0

ويذكر في ختام كلامه : ولا يظن ظانٌّ أن إعجاز القرآن إنما هو من هذه الوجوه الأربعة فقط بل وجوه إعجازه أكثر من أن يحصيها عدد أو يحيط بها أحد ، ولو شئنا لذكرنا منها وجوها كثيرة ، لكن شرط الاختصار منع من الإكثار، ومن لم ينفعه الكلام المفيد فهو مُعرض كسل عن الكثير " (2)

---

1 – الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، لأبي العباس القرطبي :**327–328** – تحقيق د. أحمد حجازي السقّا ، دار التراث العربي ، القاهرة . .

2 – المرجع السابق : ص347

وهنا أقول مع الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (1): (إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته ، ثم ليشتد عجبي وأسفي ، حين ينسب إلى نفر من علماء المسلمين ، الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن ، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن . على أن الحق لا يعرف بالرجال ، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال ، وها قد طاش هذا الرأي في الميزان – كما سنبين – ،فلنرده على قائله أيا كان .

وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر)(2)

المبحث الخامس

العلماء الذين تضاربت أقوالهم في الصرفة

ومن علماء أهل السنة من يقول بالصرفة –على سيل الفرض والاحتمال– : مثل : – الفخر الرازي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام ابن القيم ، وابن كثير .

1–

فالرازي (محمد بن عمر بن الحسين بن علي الملقب بفخر الدين ت606هـ)

---

1 – **محمد عبد العظيم الزرقاني** من علماء الأزهر بمصر.من أهالي الجعفرية في المحافظة الغربية من مصر. ونسبته إلى زرقان وهي بلدة تابعة لمحافظة المنوفية. ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة في عام 1367هـ = 1948 م. من كتبه: مناهل العرفان في علوم القرآن. بحث في الدعوة والإرشاد. انظر :

خيرالدين الزركلي: الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت 1990م.

2 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج2/ ص 315 . بتصرف يسير . والبيت من منظومة (أبو الحسن بن الحصار في أقسام المكي والمدني من السور)، حيث يقول في مطلعها :

يا سائلي عن كتاب الله مجتهداً .... وعن ترتيب ما يتلى من السور..

وكيف جاء بها المختار من مضر........ صلى الإله على المختار من مُضَرِ.

وختمها بالبيت الذي أوردناه ، وقد أورد السيوطي المنظومة في كتابه الإتقان في علوم القرآن .

(1) تضاربت أقواله في إعجاز القرآن الكريم ، فمرة يقول بإعجاز القرآن بفصاحته، وقصر الصرفة على السور القصار ، وجعل البلاغة وجه إعجاز بقية سور القرآن منعا من المكابرة ، والتهمة في الدين ، يقول في تفسيره (لآية التحدي) الآية (23) في سورة البقرة . (ولما كانت نبوة محمد – ﷺ – مبنية على كون القرآن معجزاً، أقام الدلالة على كونه معجزاً. واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من **طريقين:**

الأول: أن يقال إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة: إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة ، أو زائداً عليه بقدر ينقض، والقسمان الأولان باطلان ، فتعين الثالث، وإنما قلنا إنهما باطلان، لأنه لو كان كذلك ، لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول ، فالشهود والحكام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج ، لأنهم كانوا في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية. وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال،

---

1 - **الفخر الرازي** : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري ، المعروف بفخر الدين الرازي الطبرستانى أو ابن خطيب الرَّي. الأُصوليّ المفسر .اشتغل على أبيه الإمام ضياء الدين خطيبِ الري له تواليف كثيرٌة ذاعت في البلاد شرقًا وغربا .قال الذّهبي وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم، وانحرافا ت عن السنة، والله يعفو عنه؛ فإنه توفّي على طريقة حميدة، والله يتولّى السرائر. كان يرد على الفلاسفة والمعتزلة، ولقب بشيخ الإسلام. له تصانيف كثيرة ومفيدة في كل فن من أهمها: التفسير الكبير الذي سماه "مفاتيح الغيب"، وقد جمع فيه ما لايوجد في غيره من التفاسير، وله "المحصول" في علم الأصول، و"المطالب العالية" في علم الكلام، "ونهاية الإجاز في دراية الإعجاز" في البلاغة، و"الأربعين في أصول الدين". . توفي بهراة يوم عيد الفطر سنة606هـ ....انظر : أساس التقديس دراسة وتحقيق الدكتور عبدالله محمد عبدالله إسماعيل ، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر 2010م. :الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ج 21، ص501 .

وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل، وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله ، والمعارضة أقوى القوادح، فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها ، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً ، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة ، فوجب أن يكون معجزاً، فهذا هو المراد من تقرير هذه الدلالة (1).)

ويعرض دليلا آخر من أدلة التحدي بفصاحة القرآن بقوله :

(واعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً ..

أحدها:

إن فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات مثل وصف بعير، أو فرس،أو جارية ،أو ملك ،أو ضربة ،أو طعنة ،أو وصف حرب ،أو وصف غارة وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء ،فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم..

وثانيها: أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق ،وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ، ولم يكن جيداً ، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما. ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى.

وثالثها: أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح ، إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين. والباقي لا يكون كذلك، وليس كذلك القرآن ، لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء ، فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول. وفي القرآن

---

1 – الفخر الرازي : ج2: ص 115 – 116.

التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة، ولم يظهر التفاوت أصلاً.

وخامسها: أنه اقتصر على إيجاب العبادات ، وتحريم القبائح ، والحث على مكارم الأخلاق ، وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة.

وسادسها: أنهم قالوا إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب ، وذكر النساء ، وصفة الخيل. وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب ، ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن ، فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن، أما القرآن فإنه جاء فصيحاً في كل الفنون على غاية الفصاحة..).

وبجانب هذا الآراء ساق رأيا آخر بقوله : (الطريق الثاني: أن نقول: القرآن لا يخلوا إما أن يقال :إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول : ثبت أنه معجز. وإن كان الثاني : كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، **فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق العادة ، فكان ذلك معجزاً** ، (أي أنهم لم يعارضوه لأنهم مصروفين عن ذلك.) فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه ، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب...) [1] فههنا أطلق القول ، ولم يحدد ذلك بسورة معينة ، ثم يقول بعد ذلك :- (فإن قيل : قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر ، وسورة (قل يا أيها الكافرون)، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن ، **فإن قلتم** : إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر، **كان ذلك مكابرة** ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين، **قلنا** : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، **وقلنا** : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز ، فقد

---

1 – الفخر الرازي ، التفسير الكبير : ج2: ص 116.

حصل المقصود ، وإن لم يكن الأمر كذلك ، كان امتناعهم عن المعارضة – مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره –معجزا ، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز .)(1) .

ففحوى كلام الرازي هنا يوحي بأنه يميل إلى القول بالصرفة ، خاصة في السور القصار ، أما غيرها فوجه إعجازها عنده يكون في فصاحتها . والسبب في قول الرازي : بأن الإعجاز في قصار السور يكون بالصرفة ؛ حيث" إننا لا نستطيع أن نُقنع بوجه إعجازها البلاغي من يتماحك ، ويكابد ويشغب ". (2) ثم يعطينا الفخر الرازي خلاصة رأيه في قضية الإعجاز في تفسيره الكبير بقوله : (اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً..

فقال **بعضهم:** هو الفصاحة.. وقال ب**عضهم:** هو الأسلوب..

وقال **ثالث:** هو عدم التناقض.. وقال **رابع:** هو اشتماله على العلوم الكثيرة..

وقال **خامس: هو الصرف** ..

وقال **سادس:** هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب.. (ثم عاد وأكد على فصاحة القرآن فقال) : **والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة**، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم ، أو الأخبار عن الغيوب ، أو عدم التناقض ، لم يكن لقوله: (**مُفْتَرَيَاتٍ**) معنى ، أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة ، صح ذلك ، لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام، سواء أكان الكلام صدقاً أو كذباً..

وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في

---

1 –– الرازي : مفاتيح الغيب ،ج1/ ص 116–117 ، ومحسن عبد الحميد: الرازي مفسرا ، ص 233–234

2 – انظر : قصة الصرفة د. محمد محمد أبو موسى، مقال في مجلة الأزهر ، عدد شوال 1404 هـ . 1984 م .ص 1626 .

الفصاحة..)(1) وإن اضطربت أقوال الرازي في تفسيره في إعجاز القرآن ، بين الفصاحة والصرفة ، إلا أن إعجاز القرآن في فصاحته ، كان هو الوجه الذي قرره وارتضاه في كتابه (**نهاية الإيجاز**) حيث يقول في مقدمة كتابه : (**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**) : (والدليل على كون القرآن معجزا : أن الرسول – ﷺ – دعا العرب وتحداهم إلى معارضته ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ولولا عجزهم ، ما تركوا المعارضة ، ليعرضوا أنفسهم لأطراف الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت ، ولما آثروا القتال على الكلام .) (2) وكما اختلف قول الإمام الرازي في القول بالصرفة ، اختلف قوله في كون (الإنباء بالغيب) وجها من وجوه الإعجاز ، فأعلن في تفسيره أن آية التحدي تدل على الإنباء بالغيب ، وتكشف بذلك عن إعجازه ، إلا أ نه رفض في(**المحصول في علم أصول الفقه**) هذا الوجه من الإعجاز . (3)

2 – وتضاربت أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية(تـ 728 هـ.)(4) في الصرفة، فقال : (وكون القرآن أنه معجزة ، ليس هو من جهة فصاحته

---

1 – الفخر الرازي ، التفسير الكبير : 17: 195.

2 – الرازي : تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص 21 . ومفاتيح الغيب : ج17: ص195 .

3 – على حد قول : د. حسين نصار ،في كتابه : الصرفة والأنباء بالغيب : ص 104.

4 -**شيخ الاسلام ابن تيمية:** وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس النميري ولقبه «شيخ الإسلام» ولد يوم الإثنين 10 ربيع الأول 661 هـ أحد علماء الحنابلة' أشتهر في مجالات عدّة أهمها : الفقه و الحديث والعقيدة وأصول الفقه والفلسفة والمنطق والفلك و كما أنّه كان بارعًا في شرح الحساب والجبر . ولد في حران وهي بلدة تقع حاليا في الجزيرة الفراتية بين الخابور والفرات، و داخل الحدود التركية على مقربة من الحدود السورية الشمالية. وحين استولى المغول على بلاد حران وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة 667 هـ فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. كانت جدته لوالده تسمى **تيميَّة** وعرف بها. قرأ الحديث والتفسير واللغة وشرع في التأليف من ذلك الحين. بَعُدَ صيته في تفسير القرآن واستحق

وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، **ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط،** بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل،

الإمامة في العلم والعمل وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول. يقال عنه أنه كان مقترحا متحمسا للجهاد والحكم الشرعي, وقد كان أيضا شخصا مؤثرا في نمو حركة الإسلام السياسي. **عائلته** : وأسرة الإمام تقي الدين أحمد عريقة في التدين والمعرفة والعلم، وقد عرفوا بذلك من زمن طويل، ويعتبرون من حماة المذهب الحنبلي. فجده أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلي وسمي بالمجتهد المطلق..

بداية عمله بالتدريس: بدأ تقي الدين حياته بتعلم القرآن، فحفظه صغيرا وتعلم التفسير والفقه، وقد افتى وله سبع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت. وماكاد أن يبلغ من العمر الحادية والعشرين حتى توفي والده عبد الحليم فقيه الحنابلة سنة 682 هـ / 1283 م فخلفه فيها ابنه تقي الدين أبو العباس وقد كان عمره إذ ذاك 22 سنة. وقد كان يجلس بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيء له لتفسير القرآن العزيز.

ابن تيمية المجاهد: مع اقتراب المغول لغزو دمشق من جديد خلال عهد المماليك بدأ **ابن تيمية** بتحريض أهل الشام في دمشق وحلب وانتدبه الناس للسفر إلى مصر لملاقاة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون، وحثه على الجهاد، فأعاد نشر فتاويه في حكم جهاد الدفع ورد الصائل ثم سافر إلى أمير العرب مهنا بن عيسى الطائي فلبى دعوة ابن تيمية لملاقاة التتار.كان ابن تيمية أول الواصلين إلى دمشق يبشر الناس بنصر المسلمين ولما أحس بخوف السلطان من أن يستغل ابن تيمية حب الناس له فيثور عليه قال: "أنا رجل ملة لا رجل دولة".

مؤلفاته: لابن تيمية موروث كبير من المؤلفات كما قال الذهبي منها : اقتضاء الصراط المستقيم. و الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.ودرء تعارض العقل والنقل. ومجموع الفتاوي في 37 مجلدا وغيرها . انظر البداية والنهاية.ابن كثير.(14/ 141-145). والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.ابن حجر العسقلاني.طبعة المستشرق كرنكو.(1 / 144 - 160). و الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى الحنبلى . وغيرها

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا) (الإسراء: 89) . وقال تعالى: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) (الكهف: 54) . وقال: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون - قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (الزمر: 27 - 28) .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.؟!

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن أضعف الأقوالِ - أي في إعجاز القرآن - قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها ، أو بسلب القدرة التامة ، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى لزكريا : (... آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا)(مريم : 10) وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ... الخ)(1) .

وهذا يدل على أن ابن تيمية يرد القول بالصرفة ويعتبره من أضعف ما قيل في بيان وجه الإعجاز ، غير أنه يقبله في كلامه السابق على سبيل التنزل مع المخالف . ولذلك قال ابن تيمية في آخر كلامه ص 431 : فهذا **غاية التنزل** ، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد - ﷺ - نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وسائر كلامه لكل من

1 - انظر : ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ج5: 429

له أدنى تدبر ...)(1) وقال في أواخر العقيدة الأصفهانية :

(وإن معجزته من جهة صرف الدواعي عن معارضته..؟! وقول بعضهم إنه من جهة فصاحته ، وقول بعضهم من جهة إخباره بالغيوب، إلى أمثال ذلك ، **فإن كلا من الناظرين قد يرى وجها من وجوه الإعجاز** ، وإن لم ير غير ذلك الوجه ، واستيعاب الوجوه ليس هو مما يتسع له شرح هذه العقيدة.) [2]

ومما سلف نتبين أن ابن تيمية لم يرفض الصرفة رفضا باتا وإنما رأى القول بها أضعف الأقوال .

3- وقال الحسن بن محمد النيسابوري (تـ 728 هـ) [3] في تفسيره : **(غرائب القرآن ورغائب الفرقان).. حيث قال في تفسير قوله تعالى : (وَإِن**

---

1 - انظر : الجواب الصحيح 5: 428- 431. والمحققة :3: 496. وانظر : إعجاز القرآن عند شيخ الاسلام ابن تيمية ، د. محمد بن عبد العزيز العواجي ، ط ا، 1427هـ مكتبة دار المنهاج ، الرياض .

2 - انظر: ابن تيمية : العقيدة الأصفهانية ، ص 139.

3 - هو الإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني النيسابوري من علماء القرن الثامن الهجري؛ كما ذكر عنه خير الدين الزركلي..!ولقد انتسب إلى نيسابور، وهي مدينة مشهورة من مدن الإسلام، افتتحت للمرة الثانية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان – رضى الله عنه –، على يد عبدالله بن عامر بن كريز، وهي يؤمئذ عاصمة خراسان..! واعتنى في تفسيره بالوقف.. والوقف باب من الأبواب التي ينبغي للعلماء والفقهاء ان يتقنوه ، وكم من معنى يستغلق وسرٌّ لا يدرك إذا لم يحسن القارئ الوقف كما يجب ان يكون .. وقد استقصى النيسابوري في كتابه مواضع الوقف وأحكامها في كل سورة.. وهذه ميزة لم تتوفر بهذا الاستقصاء إلا عنده..!! واعتنى في كتابه بأسباب النزول، كما اعتنى باللغة ومعاني المفردات، وفي ذلك بيان لغريب القرآن. ويقول: (إنني لم أمِلّ في هذا الكتاب إلا إلى أهل السنة والجماعة، فبينت أصولهم ووجوه استدلالاتهم). وشغل نفسه بتدريس هذا التفسير بعد إتمامه، وأصبح بالفعل من خدم القرآن الكريم وعلومه ، مما دعا الأستاذ نصر العادلي، إلى القول: (فلا غرو أن أعجب بتفسيره كل من اطلع عليه، وقدموه في مناظراتهم على كثير من كتب التأويل، لما حواه من باهر الحجة وساطع الدليل....! وفي تحديد تاريخ وفاته خلاف مشهور أشار إليه شيخنا الذهبي في التفسير والمفسرون 330/1.

كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ)(البقرة : 23–24). وقد ذكر في كون القرآن معجزاً طريقان:

الأول: أنه إما أن يكون مساوياً لكلام سائر الفصحاء أو زائداً عليه بما لا ينقض العادة أو بما ينقضها. والأولان باطلان لأنهم – وهم زعماء وملوك الكلام – تحدّوا بسورة منه مجتمعين أو منفردين ، ثم لم يأتوا بها مع أنهم كانوا متهالكين في إبطال أمره ، حتى بذلوا النفوس والأموال، وارتكبوا المخاوف والمحن، وكانوا في الحمية والأنفة إلى حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل؟ فتعين القسم الثالث.

الطريق الثاني: أن يقال: إن بلغت السورة المتحدى بها في الفصاحة إلى حد الإعجاز فقد حصل المقصود ، وإلا فامتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجز..؟! **فعلى التقديرين يحصل الإعجاز.؟!!**

فإن قيل: وما يدريك أنه لن يعارض في مستأنف الزمان وإن لم يعارض إلى الآن؟

قلت: لأنه لا احتياج إلى المعارضة أشد مما في وقت التحدي، وإلا لزم تقرير المبطل المشبه للحق. وحيث لم تقع المعارضة وقتئذ ، علم أن لا معارضة، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله " ولن تفعلوا ". وللنيسابوري رأي في الإعجاز يدل على لطف في الفهم ، وعمق في الادراك ، يدل على إحساسه البلاغي الرفيع ، وذوقه البياني البصير ، يقول في ذلك : واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة فمدرك الإعجاز هو الذوق.

ويقول : **ومن فسر الإعجاز بأنه صرف الله تعالى البشر عن معارضته**، أو

بأنه هو كون أسلوبه مخالفاً لأساليب الكلام، أو بأنه هو كونه مبرأ عن التناقض، أو بكونه مشتملاً على الأخبار بالغيوب ، وبما ينخرط في سلك هذه الآراء، **فقد كذب ابن أخت خالته.** (1) فإنا نقطع أن الاستغراب من سماع القرآن إنما هو من أسلوبه، ونظمه المؤثر في القلوب تأثيراً لا يمكن إنكاره لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لا من صرف الله تعالى البشر عن الإتيان بمثله .... وأيضاً تسمية كل أسلوب غريب معجزاً باطل، وكذا تسمية كل كلام مُبَرَّءٍ عن التناقض أو مشتملاً على الغيب ككلام الكهان ونحوهم. فإن قيل: كيف نعتقد إعجاز القرآن بحيث يعجز عنه الثقلان فقط والزائد غير معلوم الحال، أو بحيث يعجز عنه المخلوقات بأسرها؟ قلنا: لا ريب أن الحق هو القسم الثاني، إلا أن التحدي لم يقع إلا بالقدر الأول ، وبه يثبت صحة النبوة. لكن النبي صادق وقد أخبر بأنه كلام الله تعالى، ونحن نعلم أن كلامه صفته ، وصفته يجب أن تكون في غاية الكمال ونهاية الجلال .(2)

4 – الإمام ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر الدمشقي ت 751هـ) (3) : يعتبر ابن القيم من أجلّ رجال أهل السنة والجماعة الّذين جلّوا جوانب

---

1 – النيسابوري هنا يرفض القول بالصرفة ، وهو مخالف لما ذكره في الطريق الثاني قبل بضعة أسطر ، فهو ممن لم يرفضوا الصرفة جملة وتفصيلا، لذلك وضعته مع هذه الفئة من العلماء الذين تضاربت أقوالهم ، أو ترددوا في القول بالصرفة .

2 – انظر تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، عند تفسيره للآيتين : 23–24 من سورة البقرة .

3 – **ابن قيم الجوزية :** (691 هـ – 751 هـ / 1292م – 1349م) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بشمس الدين، أبو عبد الله وابن قيم الجوزية من عائلة دمشقية عرفت بالعلم والالتزام بالدين واشتهر خصوصاً بابن قيم الجوزية وقيم الجوزية هو والده فقد كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، واشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدتهم من بعد ذلك.وهو من علماء المسلمين في القرن الثامن الهجري وصاحب المؤلفات العديدة، عاش في دمشق ودرس على يد ابن تيمية الدمشقي ولازمه قرابة 16 عاما وتأثر به. وسجن في قلعة دمشق في أيام سجن ابن تيمية وخرج بعد أن

الإعجاز اللّغوي والبيانيّ في القرآن الكريم، إلاّ أنّ جهوده في هذا الباب منثورة في مصنفاته المختلفة وإن كان فيها مايعد من مظانِ ذلك ؛ كبدائع الفوائد، والأمثال في القرآن الكريم، والتبيان في أقسام القرآن، وغيرها .

تراوحت جهود ابن القيم في الإعجاز بين التأصيل النظري، والتطبيق العملي؛ فتارة نراه يؤصل قاعدة لغوية أو بلاغية، ثمّ يحلّل في ضوئها نصوص الذّكر، وتارة يعمد إلى التحليل الفني العملي للنصوص، دون تعريج على التأصيل.

تناول ابن القيم نظرية الصرفة في كتابه بدائع الفوائد أثناء كلامه عن تقصير المتكلمين في بيان الإعجاز القرآني وقد نقل بعض الوجوه التي ذكرها أستاذه ابن تيمية ، وذكر كما ذكر ابن تيمية أن الصرفة أضعف الوجوه ، ثم حدد بعض الوجوه الأخرى للإعجاز وقال : (فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه ، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها ، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمة لأساليب نظم الكلام ، وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من

توفى شيخه . **مولده**:ولد في اليوم السابع من شهر صفر لعام 691هـ. الموافق 2 فبراير 1292م. ويقال أنه ولد في إذرع(درعا) جنوب سوريا وقيل في دمشق.

مؤلفاته : بلغ بها الشيخ بكر أبو زيد 98 مؤلفا ، منها : إعلام الموقعين عن رب العالمين. وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. وبدائع الفوائد. والتبيان في أقسام القرآن.والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . و روضة المحبين ونزهة المشتاقين. وزاد المعاد في هدي خير العباد. وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. وغيرها؟ توفي في ليلة الخميس 751/7/13هـ، 1349م في وقت أذان العشاء وبه كمل من العمر ستون سنة. وصلى عليه في الجامع الأموي بدمشق بعد صلاة الظهر ، ودفن بجوار والدته بمقبرة الباب الصغير. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.ابن حجر العسقلاني.طبعة المدني بمصر سنة 1387 هـ (4 :21-22).

الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله (1)

5- يقول ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير **تـ 774هـ**)(2) **في تفسيره** موضحا أن القرآن لا يستطيع أحد معارضته" إن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن , وأنىّ يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى " .(3)

ثم نراه بعد ذلك يصرح بأن القول بالصرفة ، يصح قبوله في موطن مجاراة الخصم واستدراجه ، فقال في تفسيره : (وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة، فقال: إن كان هذا

---

1 – ابن القيم ، بدائع الفوائد : ج4: ص 116تحقيق معروف مصطفى وزملاؤه .

2 - **ابو الفداء عماد الدين إسماعيل** بن عمر بن كثير بن زرع القرشي المعروف بـ**(ابن كثير)**, عالم مسلم، وفقيه, ومفت, ومحدث, وحافظ, ومفسر, ومؤرخ,وعالم بالرجال, ومشارك في اللغة, كان والده (عمر بن كثير) خطيب مسجد جامع بمدينة (بصرى) ويعود أصله الى (البصرة) التي نزح منها إلى الشام . ولد في سوريا سنة **700** هـ بقرية "مجدل" من أعمال بصرى من منطقة سهل حوران. انتقل إلى دمشق سنة **706** هـ في الخامسة من عمره، وتفقه على علمائها ، قرأ على شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه . له مؤلفات عديدة ، منها : تفسير القرآن العظيم، المشهور بتفسير ابن كثير وهو أجل مؤلفاته .والبداية والنهاية، وهي موسوعة ضخمة تضم التاريخ منذ بدء الخلق إلى القرن الثامن الهجري حيث جزء النهاية مفقود.والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث.والسيرة النبوية لابن كثير. وغيرها . توفي إسماعيل بن كثير يوم الخميس 26 شعبان 774 هـ في دمشق عن أربع وسبعين سنة. وكان قد فقد بصره في آخر حياته،,و هو يؤلف "جامع المسانيد"، فأكمله الا بعض مسند أبي هريرة. فرحمه الله رحمة و اسعة، و أجزل له المثوبة. انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة, ج1: 17.

3 – انظر : تفسير ابن كثير 1/ 56 ط: دار القلم بيروت ، الطبعة الأولى : 1410هـ. 1990م.

القرآن معجزاً في نفسه، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية؛ لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا،- **إلا أنها تصلح على** سبيل **التنزل ، والمجادلة ، والمنافحة عن الحق** ، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار؛ كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر.([1])

وقوله تعالى: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) وقوله في سورة يونس: (**بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**) (يونس: 38) يعم كل سورة في القرآن، طويلة كانت أم قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً. وقد قال الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله تعالى: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، وقل يا أيها الكافرون، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه، ممكن، فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر، كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين، **(قلنا)**: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، **وقلنا**: إن بلغت هذه السور في الفصاحة حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، **وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه.**

والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها، طويلة كانت أو قصيرة. قال الشافعي- رحمه الله- : لو تدبر الناس هذه السورة

---

1 - تفسير ابن كثير : 1 : 62.

لكفتهم (**وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ**)(العصر: 1 – 3) وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: (**وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ**)(العصر: 1 –2) ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل علي مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم أنك تكذب.) (1)

فابن كثير قبل الصّرفة بتحفّظ شديد ، **وعدّها – مع كونها غير مقبولة لديه – وجها يصلح للدفاع به عن القرآن وإعجازه ، وكتدبير وقائي يُبعد الجدل عن كتاب الله . وعلى هذا يدل السياق الذي أورده ابن كثير عليه..**

هكذا يصرح ابن كثير بأن طريقة القول بالصرفة كوجه من وجوه الإعجاز تصلح على سبيل **التنزل والاستدراج للخصم، والمنافحة عن الحق** ، ثم نراه يؤكد صحة قبول هذا الوجه على هذه الطريقة بنقله عما ذكره الفخر الرازي عن وجه الإعجاز في قصار السور خاصة.. أنه يكون بالصَّرفة .

6 – ولم يكن الآلوسي :(أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي تـ 1270هـ (**2**) حاسما في رفضه للصرفة ، بل

---

1 –، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج1 : ص 60.

2 - **الآلوسي الكبير**: محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي (1217–1270 هـ)،(1803 – 1854م)، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر. يرجع نسبه إلى مدينة آلوس وهي جزيرة في وسط نهر الفرات في محافظة الأنبار، حيث فر إليها جد هذه الأسرة من وجه هولاكو التتري عندما دهم بغداد فنسب إليها. ويرجع نسب عائلته إلى سبط الرسول محمد فهي عائلة علوية النسب. وآلوسية في الموطن ، وبغدادية السكن. وهو مجتهد، تقلد الإفتاء ببلده عام 1248هـ، بموجب الفرمان السلطاني العثماني ثم عزل فانقطع للعلم. وتصدر للتدريس في مدرسة الحاج أمين جلبي في رأس القرية، وفي المدرسة العمرية المعروفة في جانب الكرخ ،

ترددت أقواله في ذلك ، فبعد أن ذكر بعض من قالوا بالصرفة ، والرد عليهم بقوله : (قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرايني ، والنظام ، إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته ، وقال المرتضى : بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة ، واعترض بأربعة أوجه : -

الأول :- أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة ، لا القرآن ، وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل .

الثاني : أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب ، فلو كان الإعجاز بالصرفة ، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه ، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له ، والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه، فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك

الثالث : أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتادا من قبل لتحقق الصرفة من بعد ، فتجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها .

الرابع : وهو خاص بمذهب المرتضى ، أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتناطقوا به ، ولو تناطقوا لشاع ، إذ العادة جارية بالتحدث بالخوارق ، فحيث لم يكن ، دل على فساد الصرفة بهذا الاعتبار . واستدل بعضهم على فساد

وتولى صدارة التدريس في المدرسة القادرية والمدرسة المرجانية وقد قصد إليه العلماء والفقهاء من سائر أقطار المعمورة، وكان له مجلس حافل في محلة العاقولية من جانب الرصافة يختلف إليه رواد العلم والمعرفة ومن رواد هذا المجلس الشيخ عبد الباقي العمري، والشاعر عبد الغفار الأخرس، والخطاط أحمد أفندي القايمقجي، وللشيخ محمود الآلوسي الأثر الكبير في إنعاش الحركة العلمية في بغداد في عصره، وسافر عام 1262هـ إلى الموصل والأستانة، ومر بماردين وسيواس فغاب 21 شهرا، وذهب إلى الباب العالي فأكرمه السلطان عبد المجيد. ثم عاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته. وكان خطاطاً بارعاً دون وخط معظم كتبه بخطه الجميل . توفي أبو الثناء الآلوسي في بغداد في 25 ذو القعدة عام 1270هـ/17 أيلول عام 1854م. ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي. انظر : الزركلي: الأعلام **176/7.**

القول بها بقوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن ..) (سورة الإسراء : آية : **88** .) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرهم ، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لأنه بمنزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره .. (1). وبعد هذه الردود الأربعة قال : [**لا بأس بانضمامه إلى ما ذكرناه (من وجوه)، وأما الاكتفاء به فلا أظنك ترضاه.]** (2)
)

7- وكذلك **بديع الزمان سعيد النورسي(تـ 1960 م)** (3) : لم يكن حاسما كذلك في رفضه للصرفة ، بل أشار النورسي إلى هذا الوجه إجمالا وحكم بمرجوحيته ، وبتقديم وجه البلاغة والنظم - الذي قال به أكثرية العلماء - عليه وقد جاء حديثه عن الصرفة ضمن إجابته على سؤال مهم قد يتبادر إلى ذهن القارئ ، مضمونه: كيف يمكننا القول بأن القرآن لا يمكن أن يعارض حتى الجملة أو الكلمة من كلماته ، فضلا عن آياته وسوره ، وفي كلام البشر ما يشبه جمل القرآن وعباراته؟ **فيجيب النورسي**: هناك مذهبان في إعجاز القرآن :(**المذهب الأول** :وهو الغالب والراجح وهو مذهب الأكثرية من العلماء، وهو أن لطائف بلاغة القرآن ومزايا معانيه هي فوق طاقة البشر. **أما المذهب الثاني** :وهو المرجوح فهو أن معارضة

---

1 - الآلوسي : روح المعاني ، ج1/ ص 28 .

2 - الآلوسي، روح المعاني : مجلد1، ص 28-29.

3 – **بديع الزمان سعيد النورسي:** ولد سعيد النورسي في قرية نورس الواقعة شرقي الأناضول في تركيا عام (1294هـ – 1877م) من أبوين كرديين ، ونشأ في بيئة كردية يخيم عليها الجهل والفقر وإلى قريته نورس ينسب. توفي سعيد النورسي في الخامس والعشرين من رمضان المبارك سنة 1379هـ الموافق 23 آذار 1960م فدفن في مدينة أورفة. ولكن السلطات العسكرية الحاكمة لتركيا قامت بعد أربعة أشهر من وفاته بهدم القبر ونقل رفاته بالطائرة إلى جهة مجهولة ، فأصبح قبره مجهولا حتى الآن لا يعرفه الناس.

من مؤلفاته: رسائل النور .وإشارات الإعجاز في مظان الإيجاز .والكلمات.واللمعات.والمكتوبات. وغيرها انظر : موقع الكتروني:النورسي للدراسات.

سورة واحدة من القرآن ضمن طاقة البشر ، إلاَّ أن الله سبحانه قد منعها عن الخلق ليكون القرآن معجزة الرسول – ﷺ – أطلق على هذا المذهب المرجوح :مذهب الصرفة، أي أن الله هو الذي صرف الجن والإنس عن القدرة عن المعارضة، فلولم يصرفهم الله سبحانه عن الإتيان بالمثل، لكان الجن والإنس بمقدورهم الإتيان بمثله.) (1) ويقول : (وهكذا فالعلماء الذين يقولون وفق هذا المذهب : لا يمكن معارضة القرآن حتى بكلمة واحدة ، **هو كلام حق لا مراء فيه ، لأن الله سبحانه قد منعهم عن ذلك إظهارا للإعجاز ، فلا يستطيعون إذن أن يتفوهوا بشيء للمعارضة** ، ولو أرادوا قول شيء ما للمعارضة فلا يقدرون عليه من غير إرادة الله ومشيئته .؟! **واكتفى قائلا : أما أن إعجاز القرآن كان بالصرفة فقول مرجوح** ، وإن مذهب أكثرية العلماء هو : أن لطائف بلاغة القرآن ، ومزايا معانيه فوق طاقة البشر ، لأن كلمات القرآن وجمله ينظر بعضها إلى بعض ؟؟ فتتواجه الكلمات والجمل ، فقد تكون كلمة متوجهة إلى عشرة مواضع ، وعندها تجد فيها عشر نكات بلاغية ، وعشر علاقات تربطها مع الكلمات الأخرى ..) ثم يقول : نعم ، إن في كلام البشر ما يشبه كلمات القرآن وجمله وآياته ، إلا أن تلك الآية الكريمة ، أو الكلمة والجملة القرآنية ، قد وضعت في موضعها الملائم لها بحيث روعي في وضعها كثير جدا من الارتباطات والعلاقات مما يلزم علما محيطا كليا كي يضعها في ذلك الموقع اللائق به)(2)

وبعد اتفاق المسلمين على إعجاز القرآن الكريم ، تسابق العلماء المدققين منهم ، لإبراز الجهة التي من أجلها أعيا القرآن العرب . وهم أصحاب الفن القولي ، واللغة طوع لسانهم . أن يأتوا بسورة من مثله ، فتعددت بذلك وجوه إعجازه ، وتباينت آراءُ العلماء فيها ، وأدلى كل واحد منهم بدلوه ، وحدد ما ارتآه ، ودلل عليه ، واستشهد له . فعند بعضٍ إعجازه : إخباره بالغيب ،وعند بعضٍ : جمعه للحقائق والعلوم ،وعند بعضٍ : سلامته من التخالف والتناقض، وعند بعضٍ : غرابة أسلوبه ، وبديعيته في مقاطع ومبادئ الآيات والسور ، وعند بعضٍ :

---

1 – انظر المكتوبات ، للنورسي : ص ٢٤٥ .

2 – انظر المرجع نفسه : ص ٢٤٥ – 247 . ترجمة إحسان الصالحي .

ظهوره من أمي لم يقرأ ولم يكتب ، وعند بعضٍ : بلاغة نظمه إلى درجة خارقة عن طوق البشر ، إلى آخر الوجوه التي ذكرها العلماء ، والتي بلغت عند بعضهم إلى خمسة وثلاثين وجهًا وهذه الوجوه على الرغم من كثرتها إلا أنها كما يقول .

النورسي . لا تزاحم بينها ، لأن كل واحد قد اختار جهة من جهاته المتعددة . (1)

فهو ممن لم يرفضوا الصرفة جملة وتفصيلا كمن ذكرناهم في المبحث السابع .

ويؤيد ذلك **الدكتور زياد الدغامين** (أستاذ التفسير بجامعة آل البيت) حيث يقول : (واقتصار النورسي على وصف هذا القول بأنه مرجوح غير كاف في رده ، لأن القول بالصرفة تغافل عن إدراك طبيعة المواجهة بين الحق والباطل ، فالموجهة تتطلب من الحق دليلا وبرهانا ينتصر فيه بجدارته وكفاءته ، وليس بفعل قوة خارجة تقف وراءه وتدافع عنه ، والتحدي أمر مشهود في العصور كلها ، وهدفه الوصول إلى أن هذا القرآن هو كتاب هداية ، ومنهج حياة للبشر ، فإن لم يظهر الدليل من القرآن نفسه على هذه الحقيقة ، وعلى هذا الهدف ، فإنه لا قيمة لإعجازه عندئذ .. إن القول بالصرفة لا يثبت للقرآن إعجازا ، لأن الإعجاز يتمثل – عند ذلك – في قدرة الله تعالى الذي صرف الناس عن المعارضة ، وسلب منهم القدرة على ذلك ، فكأن الناس يستطيعون المعارضة لولا أن الله صرفهم ، ويبدو أنهم لما لم يقفوا على سر القرآن لم يجدوا إلا القول بالصرفة تعليلا له .. وقد ذكر الشيخ رشيد رضا أن الصرفة رأي كسول ، لأنه أحب أن يريح نفسه من عناء البحث، وإجالة قدح الفكر في الوقوف على وجه الإعجاز.)(2)

---

1) انظر : الإشارات في الإعجاز في مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسي ص226 ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، ط : دار الأنبار ، ط : الأولى 1409 هـ . 1989 م .

2 – محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ج1: ص 198. نقلا عن : إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي – عرض وتحليل ، للدكتور زياد الدغامين ، ص 51–52.

المبحث السادس

القائلون بالصرفة من الشيعة الإمامية الاثنى عشرية

قال بها الشيخ المفيد في كتابه أوائل المقالات ، وإن حكي عنه غيره ، المرتضى) ، وقال بها الشريف المرتضى في رسالة خاصة له ، تحت عنوان :(الموضح عن جهة إعجاز القرآن) ، والشيخ الطوسي : في شرحه لجُمل (الشريف وإن رجع عنه في كتابه (الاقتصاد)، وقال بها كذلك ابن سنان الخفاجي .

1 – قال الشيخ المفيد (محمد بن محمد النعمان البغدادي تـ413هـ)[1] في وجه إعجاز القرآن :- (إن جهة ذلك : هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي –ﷺ– بمثله في النظام ، عند تحديه لهم ، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله – وإن كان في مقدورهم – دليلا على نبوته ، واللطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان ، وهذا أوضح برهان في الإعجاز ، وأعجب بيان ، وهو مذهب – – النظام – وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال)[2] .

---

1 – **الشيخ المفيد** : محمَّد بن محمَّد بن النعمان بن عبد السَّلام الحارثي المذحجي العكبري، المعروف بابن المعلم، والمفيد، كنيته أبو عبد الله، (336هـ / 948م – 413 هـ –1022م) ولد في قرية عكبرا على بُعد عشرة فراسخ من بغداد سنة 336هـ، وقيل سنة 338هـ. يعتبر أحد أبرز علماء الإمامية الإثنى عشرية. نشأ وترعرع في كنف والده الذي كان معلّماً بواسط، ولذلك كان يكنّى بابن المعلم، ، ارتحل مع والده إلى بغداد فأخذ يتلقى العلم عن شيوخ ذلك العصر، برزت مواهبه وهو لا يزال في دور التلمذة، حتّى انبهر به كبار أساتذته، ما دفعهم إلى تلقيبه بالمفيد. توفي في بغداد سنة 413 هـ، وصلّى عليه الشريف المرتضى في ميدان الأشنان بحضور أعداد كبيرة من النّاس، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً وعظيماً، وبكاه المؤالف والمخالف . **انظر** : رجال النجاشي ، ص 399 باختصار .

2 – آية الله جعفر السبحاني : الإلهيات ، ص 341.

هذا وقد نقل **المجلسي**[1] في : – بحار الأنوار– قولا آخر للشيخ المفيد في بيان وجوه إعجاز القرآن ، جاء فيه :–

(ما ذهب إليه الشيخ المفيد ، وهو أنه إنما كان معجزا من حيث اختص برتبة في الفصاحة خارقة للعادة ، قال :– لأن مراتب الفصاحة إنما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد ، فلا يمنع أن يجري الله العادة بقدر من العلوم ، فيقع التمكن بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية ، ويكون ما زاد على ذلك غير معتادة ، معجزا خارقا للعادة)(2).

2 – وقال بها كذلك الشريف المرتضى (3) :(علي بن الحسين بن موسى بن محمد ت436هـ):– فقد نقل عنه الطوسي قوله : – (إن الله سلب العرب

---

1 – **محمد باقر المجلسي** : من علماء الشيعة الأمامية الأثني عشرية. ولد في عام 1037 هـ. في مدينة أصفهان التي كانت آنذاك من المراكز العلمية المعروفة في العالم الإسلامي، وكان والده المولى محمد تقي المجلسي من علماء الشيعة، له مؤلفات كثيرة في شتى المجالات ينتهي نسب عائلة العلامة المجلسي إلى احمد بن عبد الله المعروف بـ الحافظ أبونعيم المتوفى عام 430 هـ صاحب الكتاب المعروف بـ حلية الاولياء في طبقات الأصفياء. للمجلسي أكثر من سبعين مؤلفاً باللغتين العربيَّة والفارسيَّة، أهمها : **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار** .يعد هذا الكتاب من أكبر الموسوعات عند الشيعة الإثني عشريَّة إذ بلغت مجلَّداته (114 مجلدا)(بعدد سور القرآن الكريم ؟؟) . توفي في السابع والعشرين من شهر رمضان 1111 هـ وكان عمره **73** عاما، وقد أرخوا تاريخ وفاته بهذه العبارة (**غم وحزن**– بحساب الجُمَّلْ) وقد تم دفنه في الجامع العتيق بأصفهان. انظر : الذريعة إلى تصانيف الشيعة. آغا بزرگ الطهراني، طبع بيروت – لبنان.

2– الإلهيات : ص 341 . نقلا عن بحار الأنوار للمجلسي ج92/ ص 137 .

3 – **الشريف المرتضى** (355 هـ – 436 هـ / 966 – 1044 م) الملقب ذي المجدين ، من علماء الامامية الاثني عشرية . وهو: أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن **علي بن أبي طالب** . ولد في رجب سنة 355 هـ – 966م في بغداد. عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين وهي فترة انكماش الدولة العباسية وضعفها ووهنها ، قال فيه الثعالبي في تتمة يتيمة الدهر: "قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم

العلوم التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة ، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم) (1)

ومُؤدى كلامه : **أن العرب أوتوا القدرة على معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، بما كانوا عليه من بيان ، وبلاغة ، وفصاحة ، ولكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ، لأنهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن .**

وأوّل من ردّ على المرتضى قوله بالصرفة، هو تلميذه الأكبر أبو جعفر محمد بنالحسن بن علي الطوسي في كتابه (الاقتصاد) قال: (وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزا خارقا للعادة، لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها ، ودون النظم بانفراده ودون الصرفة. وإن كنت نصرت في شرح الجمل القول بالصرفة، على ما كان يذهب إليه المرتضى رحمهالله من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه) (2) معتذرا لنصرته في (شرح الجمل) بأنّه حيث شَرَحَ كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه! ثمّ أخذ في الرّد على القول بالصرفة، قال: (واعلم أنّه لو كان وجه الإعجاز سلب العلوم، لكانت العرب إذا سلبوا هذه العلوم خرجوا عن كمال العقل... قال: وبهذا أجبنا من قال: لم لا يجوز أن يكون من تأتّى منه الفعل المحكم، معتقدا أو ظانّا دون أن يكون عالما. بأن قلنا: ما لأجله تأتّى الفعل المحكم هو أمر

والأدب والفضل والكرم، وله شعر في نهاية الحسن ". بلغت تصانيفه ورسائله ومؤلفاته مئة وسبعة عشر مصنفا. توفي ببغداد في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة 436 هـ- 1044م، وسنه يومئذ ثمانون سنة وثمانية أشهر، ودفن في داره أولا ثم نقل إلى جوار جده الحسين. أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16 ص380.الخطيب البغداديّ،: تاريخ بغداد، ج7 ص286.

1 – الإلهيات : – ص341 ، نقلا عن الاقتصاد للشيخ الطوسي ص 172 وانظر لوامع الأنوار البهية ، ج1/ ص174 . وشرح المصطلحات الكلامية ، ص / 187 ، إعداد قسم الكلام ، في مجمع البحوث الإسلامية . وشرح المواقف ج8/ ص 246 .

2 – . الطوسي : الاقتصاد، ص 172–173

يلزم مع كمال العقل، فلا يخرج عنه إلاّ باختلال عقله. والعلم بالفصاحة من هذا الباب، فلو سلبهم الله هذه العلوم لكانوا خرجوا من كمال العقل، ولو كان كذلك لظهر واشتهر، وكان يكون أبلغ في باب الإعجاز من غيره. ولمّا لم يعلم كونهم كذلك وأنّ العرب لم يتغيّر حالهم في حال من الأحوال، دلّ ذلك على أنّهم لم يسلبوا العلوم، وإذا لم يسلبوها وهم متمكّنون من مثل هذا القرآن كان يجب أن يعارضوا، وقد بيّنا أنّ ذلك كان متعذّرا منهم، فبطل هذا القول) [1].

3- **وقال الطوسي (أبو جعفر** محمد بن الحسن الطوسي **تـ 460هـ)** (2) - شيخ الطائفة - بالصرفة : في كتابه: (تمهيد الأصول في علم الكلام) ، وهو شرح على كتاب : (جمل العلم والعمل) للمرتضى ، ثم تراجع عنه بعد ذلك في كتابه - الاقتصاد- الذي وضعه على أُسس علم الكلام ، وحقّق فيه أُصول العقيدة على مباني الإسلام نذكر منه ما ملخّصه: قال: الاستدلال على صدق النبوّة بالقرآن يتمّ بعد بيان خمسة أُمور:

1 . إنّه ظهر بمكة وادعى النبوّة.

2 . إنّه تحدّى العرب بهذا القرآن.

3 . إنّه لم يعارضوه في وقت من الأوقات.

4 . وكان ذلك لعجزهم عن المعارضة.

---

1 - الطوسي : الاقتصاد ، ص 175-176.

2 - **الطوسي** (385هـ - 460هـ) : هوأبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي ، مفسر ، فقيه.انتقل من خراسان إلى بغداد سنة **408 هـ** ، وأقام أربعين سنة ، ورحل إلى النجف فاستقر إلى أن توفي.كان شافعياً في بادئ أمره إلا أنه تعرف على محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد ! فلزمه وأخذ عنه الكلام و أصول الشيعة. أعرض عنه الحفاظ لبدعته، وقد أحرقت كتبه عدة مرات ، له الكثير من الكتب منها : الاختيار في تهذيب كتاب معرفة الرجال. الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار .الاقتصاد فيما يجب على العباد. التبيان في تفسير القرآن.. تهذيب الأحكام في الفقه . وغيرها الكثير. توفي سنة 460 هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ج18 ص334، الوافي بالوفيات . الصفدي ج1 ص291

5 . وإنّ هذا كان لتعذّر خرق العادة.
فإذا ثبت ذلك أجمع دلّ على أنّ القرآن معجز ، سواء كان لفصاحته البالغة أم لأنّ الله صرفهم عن ذلك. وأيّ الأمرين ثبت ثبتت نبوّته - ﷺ - .
أمّا ظهوره بمكة وادعاؤه النبوّة فضروري. وكذا ظهور القرآن على يده وتحدّيه للعرب أن يأتوا بمثله، لأنّه صريح القرآن في مواضع عديدة.
وأمّا أنّه لم يعارض فلأنّه لو كان عُورض لوجب أن يُنقل، ولو نُقِلَ لَعُلِمَ، لأنّ الدواعي متوفّرة إلى نقله، ولأنّ المعارض لو كان لكان هو الحجّة دون القرآن، ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.
والذي يدعوا إلى المعارضة . لو أمكنت . ونَقْلِها هو طلب التخليص ممّا ألزموا به من ترك أديانهم ، ومفارقة عاداتهم ، وبطلان ما ألفوه من الرئاسات، ولذلك نقلوا كلام مسيلمة ، والأسود العَنَسي ، وطليحة مع ركاكته وسخافته ، وبعده عن دخول الشبهة فيه. ولا يمكن دعوى الخوف من أنصاره وأتباعه، إذ لا موجب للخوف مع ضعف المسلمين بمكة وعلى فرضه فلا يمنع نقله استسرارا، أو في سائر البلاد النائية كالروم والحبشة وغيرهما، كما نقل هجاؤهم وسبّهم وكان أفحش ، وكان أدعى للخوف إن كان. وإذا ثبت أنّهم لم يعارضوه، فإنّما لم يعارضوه للعجز ، لأنّ كلّ فعل لم يقع مع توفّر الدواعي لفاعله وشدّة تداعيه عليه، قطعنا على أنّه لم يفعل للتعذّر . وقد توفّرت دواعي العرب إلى معارضته فلم يفعلوها، وقد تكلّفوا المشاقّ من أجله، فقد بذلوا النفوس والأموال وركبوا الحروب العظام ودخلوا الفتن، طلبا لإبطال أمره، فلو كانت المعارضة ممكنة لهم لما اختاروا الصعب على السهل، لأنّ العاقل لا يترك الطريق السهل، ويسلك الطريق الوعر الذي لا يبلغ معه الغرض، إلاّ أن يختلّ عقله أو يسفه رأيه، والقوم لم يكونوا بهذه الصفة.
وليس لأحد أن يقول: إنّهم اعتقدوا أنّ الحرب أنجح من المعارضة فلذلك عدلوا إليها. وذلك أنّ النبي - ﷺ - لم يدّع النبوّة فيهم بالغلبة والقهر ، وإنّما ادّعى معارضة مثل القرآن، ولم يكن احتمال حرب إذ ذاك. ثمّ مع قيام الحرب كانوا

في الأغلب مغلوبين مقهورين، فكان يجب أن يقوموا بالمعارضة، فإن أنجعت وإلاّ عدلوا إلى الحرب.

فإن قالوا: خافوا أن يلتبس الأمر فيظنّ قوم أنّه ليس مثله. قيل: قد حصل المطلوب، لأنّ الاختلاف حينذاك يوجب الشبهة، فكان أولى من الترك الذي يقوى معه شبهة العجز.

وليس لهم أن يقولوا: لم تتوفّر دواعيهم إلى ذلك. لأنّهم تحمّلوا المشاق، والعاقل لايتكلّف ذلك إذا لم تتوفّر دواعيه إلى إبطال دعوى خصمه.

فإن قالوا: إنّما لم يعارضوه، لأنّ في كلامهم ما هو مثله أو مقاربه. قلنا: هذا غير مسلّم. وعلى فرض التسليم فإن التحدّي وقع لعجزهم فيما يأتي، فلوكان في كلامهم مثله فهو أبلغ لعجزهم في تحقّق التحدّي بالعجز عن الإتيان بمثله في المستقبل.

فإن قيل: واطأه قوم من الفصحاء. قيل: هذا باطل، لأنّه كان ينبغي أن يعارضه من لم يواطئه، فإنّهم وإن كانوا أدون منهم في الفصاحة، كانوا يقدرون على ما يقاربه. على الفرض. لأنّ التفاوت بين الفصحاء لاينتهي إلى حدّ يخرق العادة. على أنّ الفصحاء المعروفين والبلغاء المشهورين في وقته، كلّهم كانوا منحرفين عنه، كالأعشى الكبير الذي في الطبقة الأُولى ومن أشبهه مات على كفره، وكعب بنزهير، أسلم في آخر الأمر، وهو في الطبقة الثانية، وكان من أعدى الناس له - ﷺ - ولبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي من الطبقة الثالثة، أسلما بعد زمان طويل، ومع ذلك لم يحظيا في الإسلام بطائل. على أنّه لو كان لكان ينبغي أن يوافقوه على ذلك ويقولون له: الفصحاء المبرزون واطؤوك ووافقوك، فإنّ الفصحاء في كلّ زمان لا يخفون على أهل الصناعة.

فإن قيل: لم لا يكون النبيّ - ﷺ - وهو أفصح العرب، قد تأتّى منه القرآن، وتعذّر على غيره، أو تعمله في زمان طويل فلم يتمكّنوا من معارضته في زمان قصير؟

قيل: هذا لا يتوجّه على من يقول بالصرفة، لأنّه يجعل صرف هممهم عن ذلك دليلاً على الإعجاز، ولو فرض تمكّنهم من المعارضة.

وأمّا من قال: إنّ جهة الإعجاز في الفصاحة والبيان، فإنّ كون النبي - ﷺ - أفصح، لا يمنع من أن يقارنوه أو يدانوه، كما هو المتعارف بينهم في المعارضة ومقارضة الشعر. على أنّ العرب لم يتفوّهوا بذلك ولم يقولوا له: أنت أفصحنا، فلذلك يتعذّر علينا ما يتأتّى منك. وأمّا احتمال التعمّل فباطل، لأنّه - ﷺ - عارضهم في مدّة طويلة أكثر من عشرين عاما يتحدّاهم طول المدّة. **قال:** وإذ قد ثبت أنّ القرآن معجز، لم يضرّنا أن لا نعلم من أيّ جهة كان إعجازه. غير أنّا نومئ إلى جملة من الكلام فيه.

كان المرتضى علي بن‌الحسين الموسوي رحمه‌الله يختار أنّ جهة إعجازه الصّرفة وهي: أنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتّى منهم. وبذلك قال النظّام ، وأبو إسحاق النصيبي أخيرا.

وقال قوم: جهة الإعجاز الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة من غير اعتبار النظم، ومنهم من اعتبر النظم والأُسلوب مع الفصاحة، وهو الأقوى.

وقال قوم: هو معجز لاختصاصه بأُسلوب مخصوص ليس في شيء من كلام العرب.

وقال قوم: تأليف القرآن ونظمه مستحيل من العباد، كاستحالة الجواهر والألوان.

وقال قوم: كان معجزا لما فيه من العلم بالغائبات.

وقال آخرون: كان معجزا لارتفاع الخلاف والتناقض فيه، مع جريان العادة بأنّه لا يخلو كلام طويل من ذلك.

وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزا خارقا للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون الصرفة.

وإن كنت نصرت في شرح الجمل([1]) **القول بالصرفة**، على ما كان يذهب إليه المرتضى – رحمهالله – من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه.

قال: والذي يدلّ على ما قلناه واخترناه: أنّ التحدّي معروف بين العرب بعضهم بعضا، ويعتبرون في التحدّي معارضة الكلام بمثله في نظمه ووصفه، لأنّهم لا يعارضون الخطب بالشعر ولا الشعر بالخطب، والشعر لا يعارضه أيضا إلاّ بما كان يوافقه في الوزن والرويّ والقافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، ولا الرجز بالكامل، ولا السريع بالمتقارب، وإنّما يعارضون جميع أوصافه. فإذا كان كذلك، فقد ثبت أنَّ القرآن جمع الفصاحة المفرطة والنظم الذي ليس في كلام العرب مثله، فإذا عجزوا عن معارضته، فيجب أن يكون الاعتبار بهما.

فأمّا الذي يدلّ على اختصاصها بالفصاحة المفرطة، فهو أنّ كلّ عاقل عرف شيئا من الفصاحة يعلم ذلك، وإنّما في القرآن من الفصاحة ما يزيد على كلّ فصيح، وكيف لا يكون كذلك وقد وجدنا الطبقة الأوّلى قد شهدوا بذلك وطربوا له، كالوليد بنالمغيرة والأعشى الكبير ، وكعب بنزهير ، ولبيد بنربيعة ، والنابغة الجعدي، ودخل كثير منهم في الإسلام ككعب، والنابغة ، ولبيد، وهمّ الأعشى بالدخول في الإسلام فمنعه من ذلك أبوجهل وفزّعه، وقال: إنّه يحرّم عليك الأطيبين الزنا والخمر. فقال له: أمّا الزنا فلا حاجة لي فيه، لأنّي كبرت، وأمّا الخمر فلا صبر لي عنه، وأنظَر فأتته المنيّة ، واخترم دون الإسلام.

والوليد بنالمغيرة تحيّر حين سمعه، فقال: سمعت الشعر وليس بشعر، والرجز وليس برجز، والخطب وليس بخطب، وليس له اختلاج الكهنة. فقالوا له: أنت شيخنا، فإذا قلت هذا ضعف قلوبنا، ففكّر وقال: قولوا: هو سحر، معاندةً

---

1 – في كتابه (تمهيد الأُصول) شرحا على القسم النظريّ من جمل العلم والعمل، وقد طبع في جامعة طهران.

وحسدا للنبيّ – ﷺ – فأنزل الله تعالى هذه الآية (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. إلى قوله . إِنْ هذاإلاّ سِحْرٌ يُؤثَرُ) (المدّثّر: 18–24.) فمن دفع فصاحة القرآن لم يكن في حيّز من يُكَلَّم!

وأمّا اختصاصه بالنظم فمعلوم ضرورة، لأنّه مدرك مسموع، وليس في شيء من كلام العرب ما يشبه نظمه، من خطبة أو شعر على اختلاف أنواعه وصفاته. فاجتماع الأمرين منه لايمكن دفعهما.[1]

4– وقال بها كذلك ابن سنان (عبد الله محمد بن سعيد الخفاجي ت466هـ)[2] في كتابه – سر الفصاحة – ، وقد ذهب ابن سنان الخفاجي

---

1 – الاقتصاد في أُصول الاعتقاد، ص 166–174. وانظر : العلامة محمد هادى معرفة : التمهيد في علوم القرآن ، ج4: ص 66-70 .

2 - **ابن سنان الخفاجي** (466.423هـ/1073.1032م) هو : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، أبو محمد، ينتسب إلى بني خفاجة ، وهي قبيلة عربية تنتمي إلى عدنان. ولد في قلعة عزاز، وهي من القلاع المحيطة بمدينة حلب، وكان أبوه أحد وجهاء هذه القلعة. زار ابن سنان الخفاجي مدينة حلب وأخذ عن علمائها، وقد حظي بصحبة أبي العلاء المعري ، ولكن ابن سنان الخفاجي يختلف عن أبي العلاء في أنه قد شارك في الحياة السياسية في عصره، فقد كان على صلة بوزير حلب أبي نصر محمد ابن النحاس الذي زكّاه عند أمير حلب، فولّاه قلعة عزاز التي ولد فيها، ولكنه لم يكن راضياً بما نال من السلطة، وقد بدت منه تصرفات أحنقت الأمير عليه، فاستعصى بالقلعة، مما دفع الأمير إلى تدبير مكيدة له انتهت بقتله، وقد حُمل إلى مدينة حلب، وصلى عليه الأمير محمود، ودفن فيها. وكان يرى رأي الشيعة الإمامية. عُرف ابن سنان بعلمه الواسع في البلاغة العربية وعلوم العربية الأخرى، وترك عدداً من الآثار التي تدل على طول باعه في هذه العلوم، ومما وصل منها كتاب (سر الفصاحة) ، الذي ألفه سنة 454هـ، ولهذا الكتاب منزلة كبيرة عند الباحثين في العربية وبلاغتها ونقدها؛ ففيه آراء مهمة في بعض القضايا البلاغية والاصطلاحات النقدية، حتى إن الناقد ابن الأثير قد أثنى على هذا الكتاب.وللخفاجي من التصانيف الأخرى كتاب(الصرفة)، وكتاب (الحكم بين النظم والنثر)، وهو صغير، وكتاب (عبارة المتكلمين في أصول الدين)، وغيرها . عرف ابن سنان أيضاً بأنه كان شاعراً أديباً، وهو في شعره يصور نفسه المضطربة الرافضة للواقع ، وشعره يمتاز بالجزالة ، وهو في بعضه شبيه بشعر أستاذه المعري. انظر : الزركلي ، الاعلام ، ج4:ص 122.

إلى أن مفهوم الصرفة عنده تارة تعني : سلب العلوم التي تمكنهم من المعارضة ، كما هو مفهومها عند الشريف المرتضى.... وتارة أخرى تعني : صرف العرب عن معارضته ، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف ، كما هو مفهومها عند النظام ومن تبعه ، ثم يرجح المفهوم الأخير..

يقول ابن سنان معلقا على كلام الرماني الذي أشار فيه إلى أن تأليف الكلام علي ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا وهو القرآن الكريم ،" وأما قول الرماني : إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا ، وغيره في الطبقة الوسطى ، وهو يعني بذلك جميع كلام العرب ، فليس الأمر علي ذلك ، ثم يقول : ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسان إلي نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه (1)، ولعل أبا الحسن يتخيل أن الإعجاز في القرآن لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة " .أي القول بأن إعجاز القرآن راجع إلي فصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه... ثم يقول : " وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .

وفي موطن آخر نراه يرجح القول بالصرفة في إعجاز القرآن بمفهومها الأخير عنده ، – أعني : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن . يقول " : إن الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته ، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم " .(2) هكذا

1– ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ، ص 89 ، 217

2 -انظر : سر الفصاحة ، ص : 89، 109 ، 217 ، 265 .

يصرح ابن سنان بأن وجه إعجاز القرآن عنده هو : صرف العرب عن معارضته ، وأن هذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل صناعة الفصاحة والبيان . وهذا رأي عجيب من ابن سنان ، لأنه على ما يبدو ، إنما ألف كتابه – سر الفصاحة – ليبين أن أسرار إعجاز القرآن تكمن في فصاحته ، فكيف استطاع أن يوفق بين قوله بأن إعجاز القرآن يكمن في فصاحته ، وبين قوله بالصرفة ..؟ أم أنه كما يقول الدكتور محمد محمد أبو موسى : (وكان الأمير الخفاجي– رحمه الله وأثابه – قليل التدقيق والتروي ، وفي كتابه تجاوزات كثيرة . مرجعها غالبا إلى واحد من أمرين : السرعة المؤدية إلى عدم إحكام مقالة أهل العلم ، أو ضعف سليقة الرجل ، وإحساسه بالفروق بين طبقات الكلام ، وهذا لا يدفع أن الرجل قد هدي إلى كثير من الدقائق ..) (1)

المبحث السابع

بطلان القول بالصرفة

مما سبق تبين لنا أن الصرفة نشأت في بيئة المعتزلة على يد –النظام – ومن تابعه، واعتبروها وجها من وجوه إعجاز القرآن ،– مع اختلافهم على مفهومها – ، وقال بها كذلك طائفة من علماء أهل السنة، والظاهرية ، والشيعة الامامية ، مع عدم موافقة بعضهم على مفهوم – النظام – لها، ويمكننا أن نتعرف من أقوال القائلين بالصرفة على المفاهيم التالية :–

1– د. محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي (مرجع سابق) ص/ 370– 371 .
وانظر د. أحمد سيد محمد عمار : نظرية الإعجاز القرآني ، وأثرها في النقد العربي القديم ، ص 42 وما بعدها . (بتصرف) ط1، 1998م ، دارالفكر ، دمشق .

المفهوم الأول : مفهوم النظام ومن تابعه، فقد ذهبوا إلى أن العرب صرفوا عن المعارضة جبرا ، ولم يتوجهوا إليها ، ولو توجهوا لاستطاعوا الإتيان بمثل القرآن ، وهذا المذهب ينفي عن القرآن الإعجاز .

المفهوم الثاني : قال به الشريف المرتضى ، وابن سنان الخفاجي، ومن تابعهما ، فقد ذهبوا إلى أن الله سلب من العرب علومهم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، ولو توجهوا لمعارضته ، لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن .

المفهوم الثالث : وهو مفهوم الجاحظ ، والرماني لها ، وهولا يقدح في إعجاز القرآن ، بل هو ضرب من التدبير الإلهي ، فصرف نفوس العرب وأوهامهم عن معارضة القرآن ، ليحفظه من عبث العابثين .

المفهوم الرابع :- وهو ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار ، حيث رفض المفاهيم السابقة للصرفة ، واعتبر أن الصرفة مرتبطة بالقوم أنفسهم ، وليست شيئا خارجا عنهم ، أو مفروضة عليهم فرضا ، بل إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة ، لعلمهم أنها غير ممكنة ، فهي في الواقع انصراف ، وليست صرفة . وقد تصدى نفر من العلماء لهذه المفاهيم جميعها ، وقاموا بردها وتفنيدها بأدلة منها:-

1- **قال الخطابي : أبوسليمان حمد بن محمّد بنإبراهيم الخطّابي البُستي[1]** (317-388) أديب لغويّ ،ينتهي نسبه إلى زيد أخي عمر بنالخطّاب.

---

1 -**أبو سليمان الخطابي:** (319 هـ - **388 هـ**)، هو الإمام العلاّمة الحافظ اللّغوي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب البستي الخطّابي ، صاحب التصانيف، كان عالمًا بالحديث إسنادا ومتنا، أخذ الفقه على مذهب الشافعي عن أبي بكر القفّال الشاشي ، وغيره. له كتب قيّمة منها في القرآن: كتاب معالم التنزيل، ورسالة في إعجاز القرآن، هي على صغر حجمها كبيرة الفائدة. ومصنفاته كثيرة منها : كتاب غريب الحديث، ومعالم السنن: شرح

يُعْتَبَر الخطّابي أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن إعجاز القرآن، بحثا فنّيا منظّما في ضوء قواعد اللغة والأدب السامي. يُقرّر الخطّابي أنّ الناس قديما وحديثا ذهبوا في الموضوع كلّ مذهب من القول ولم يصدروا عن رَيٍّ. ويناقش فكرة الصرفة، وفكرة تضمّن القرآن للأخبار المستقبلة، ولا يرتضيها شرحا لأسرار الإعجاز، ثمّ ينتقل إلى موضوع البلاغة، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد وعدم تحقيقهم، وقصور كلامهم عن الإقناع. ويعالج هو الموضوع على طريقته، فيذكر للكلام المحمود أقساما ثلاثة: أعلى هو أرفع و أوسط هو أقصد و أدنى هو أقرب. ويقرّر أنّ بلاغات القرآن قد أخذت من كلّ قسم من هذه حصّة ومن كلّ نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الضخامة والعذوبة. وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن فضيلة خُصّ بها، يسرّها اللطيف الخبير، لتكون آية بيّنة لنبيّه. وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله، لأنّ علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها. ولا تدرك أفهامهم

سنن أبي داود ، وغيرها . وذكر ابنالنديم لمحمد بن زيد الواسطي (ت **307**) كتابا في إعجاز القرآن. (انظر : الفهرست ص 63 و ص 256. وراجع: الذريعة إلى تصانيف الشيعة للطهراني، ج 2، ص 232، برقم 917.) ولأبي عمرو الباهلي (المتوفى سنة 300) رسالة في إعجاز القرآن، وكان أوّل من بحث في هذا الموضوع وكانت رسالته أُولى رسالة ظهرت في الوجود بهذا العنوان! غير أنّ الذي وصل إلينا من كتب المتقدّمين في إعجاز القرآن هي رسالة الخطابي «البيان في إعجاز القرآن» وطبعت مع رسالتين أُخريين في الإعجاز إحداهما للرماني والأُخرى للشيخ عبدالقاهر الجرجاني، باسم ثَلاث رسائل في إعجاز القرآن. دارالمعارف بمصر: 1387هـ . 1968م. .توفّي رحمه الله بِبست في شهر ربيع الآخر 388هانظر:الذّهبي، سير أعلام النبلاء: ج17، ص 23–27.

جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جمع النظوم التي بها ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض.
وإنّما صار القرآن معجزا، لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمّنا أصحّ المعاني. ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأُمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمر تعجز عنه قوى البشر.
وعمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخصّ الأشكل به. ومن هنا كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن، لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه.
ويفنّد الخطّابي بعض ما أورده المعترضون من شُبَه ضدّ أُسلوب القرآن.
ومن الطريف في رسالة الخطّابي ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلاً فنّيّا جميلاً، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام.
وقد أثبت في آخر رسالته وجها آخر للإعجاز ذهب عنه الناس .كما يقول . وذلك صنيع القرآن بالقلوب، وتأثيره في النفوس. ويلاحظ أنّ هذه الفكرة هي التي دار حولها بحث الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس. والرسالة قيّمة، فريدة في بابها، ولعلّه لم يعهد مثلها فيما غبر وحضر، ومن ثَمَّ اخترناها أُولى رسالة عالجت الموضوع بشكله الفنّي، ولله درّ مؤلّفها. واستمع الآن إلى ما يقوله هو:
يقول: قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول وما وجدناهم بعد صدروا عن ريٍّ، وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ثم يقول : والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمرّ على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أنّ النبيّ - ﷺ - قد تحدّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقي - ﷺ - يطالبهم به مدّة عشرين سنة، مظهرا لهم النكير، زاريا على أديانهم،

مسقّها آرائهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأُريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال...

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلّفوا هذه الأُمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة(1) ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل.(2) هذا مالا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لبّ. وقد كان قومه قريش خاصّة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلّقون(3)وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» . (الزخرف: 58.) وقال سبحانه: «وتُنْذِرَ بِهِ قَوْما لُدّا»(مريم: 97.) فكيف كان يجوز . على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة . أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه(4) وأن يضربوا عنه صفحا، ولا يجوزوا الفلج

---

1 – الفاقرة: الداهية. والمبيرة : المهلكة .

2 – الدماثة: السهولة. يقال: أرض دمث أي ذلول، ضدّ الحزونة والوعورة.

3 – يقال : **أفلق الشاعر** : أتى بما يعجب في شعره . ومُفلقٌ في الأمر : كان به حاذقا . فالشاعر المفلق : شاعر مبدع يأتي في شعره بالغرائب .. انظر : المعجم الوسيط، ط4، 2004م ، ص 710 . مكتبة الشروق الدولية ، إشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قَالَ :[[شَرُّ النَّاسِ فِي الْفِتْنَةِ الْخَطِيبُ الْمِصْقَعُ وَالرَّاكِبُ الْمُوَضِعُ "]] (حديث موقوف). **والخطيب المصقع** : هو الذي لا يُرتَجُّ عليه ، ولا يُتَعتع في كلامه. وأصله من الصَّقع ، وهو: رفع الصوت ومتابعته .. يقال : خطيب مِصْقَعْ ، وخطيب مِسْحَلْ ، وهو الماهر بالخطبة ، الماضي فيها . قال قيس بن عاصم :

خطباء حين يقول قائلهم .... بيضُ الوجوه مصاقع لُسُن.

والمُوضع : المسرع في الفتنة ، الساعي فيها .ومنه قول دريد بن الصِّمة : (أَخِبُّ فيها وأضع ..) انظر : غريب الحديث لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (388هـ) .تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، دار الفكر ، بيروت 1982م، خرج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النبي .: رقم الحديث: 1094 .

4 – اهتبال الفرصة: اغتنامها.

والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه.
قال: وهذا . من وجوه ما قيل فيه . أبيَنُها دلالة وأيسرها مؤونة. وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفيّة وجه الإعجاز فيه.
ثمّ أخذ في بيان مذاهب أُخر في بيان وجه الإعجاز، قال: وذهب قوم إلى أنّ العلّة في **إعجازه الصّرفة** ، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدورا عليها، غير معجوز عنها، إلاّ أنّ العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات... قال: وهذا أيضا وجه قريب، إلاّ أنّ دلالة الآية تشهد بخلافه، قال سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْاءنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيرا» (الإسراء: 88.) فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهّب والاحتشاد. والمعنى في الصّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدلّ على أنّ المراد غيرها، والله أعلم.
قال: وزعمت طائفة أنّ إعجازه إنّما هو فيما يتضمّنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، نحو قوله سبحانه: «وهُم مِنْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنينَ» (الروم: 3–4.) وكقوله سبحانه: «قُلْ لِلْمُخَلَّفينَ مِنَ الأعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلي بَأسٍ شَديدٍ» (الفتح: 16.) ونحوهما من الأخبار الّتي صدقت أقوالها مواقع أكوانها.. قلت: ولا يشكّ في أنّ هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنّه ليس بالأمر العامّ الموجود في كلّ سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كلّ سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» .(البقرة: 23) من غير تعيين، فدلّ على أنّ المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه.
وزعم آخرون أنّ إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيّتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال.
ووجدت عامّة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة القرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظنّ ، دون التحقيق له وإحاطة العلم به.

ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميّز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنّه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام. قالوا: قد يخفى سببه (سبب التفاضل بين كلامين) عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان، ثمّ لا يوقف لشيء من ذلك على علّة... قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنّما هو إشكال أُحيل به على إبهام. وبذلك ينتهي إلى إبداء رأيه الأخير في وجه الإعجاز، قائلاً:

فأمّا من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلّة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنّه يقول: إنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة، التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألسن على أنّه كلام لايشبهه كلام، وتحصر الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمرٌ لابدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف. قال: وقد

استقرأنا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئا منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس، ويطرد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبا من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدلّ النظر وشاهد العبر على أنّ السبب له والعلّة فيه: أنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده. والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين، لأنّ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كلّ واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن.

قال: وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأُمور، منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربيّة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله.

وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأُمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتّى لاترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولاترى نظما أحسن تأليفا وأشدّ تلاؤما وتشاكلاً من نظمه.

وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقّي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأمّا أن توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلاّ في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكلّ شيء علما، وأحصى كلّ شيء عددا.

قال: فتفهّم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في

أحسن نظوم التأليف، مضمّنا أصحّ المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم و حظر وإباحةٍ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعا كلّ شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعا أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعا في ذلك بين الحجّة والمحتجّ له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأُمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله. ثمّ صار المعاندون له يقولون مرّة: إنّه شعر، لمّا رأوه كلاما منظوما، ومرّةً سحر، إذ رأوه معجوزا عنه غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعا في القلوب وقرعا في النفوس، يريبهم ويحيّرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا من الاعتراف.

وكيفما كانت الحال ودارت القصّة، فقد حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً، أنّه معجز. وفي ذلك قيام الحجّة وثبوت المعجزة، والحمد لله.(1) وأضاف . قائلاً .

: إعلم أنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أنّ في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، غير أنّ الأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف

---

1 – البيان في إعجاز القرآن للخطّابي، ص 21–29.

ذلك، لأنّ لكلّ لفظة منها خاصّيّة تتميّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها... ومن هنا تهيّب كثير من السلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه، حذرا أن يزلّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان، فقهاء في الدين.

فإذ قد عرفت هذه الأُصول، تبيّنت أنّ القوم إنّما كاعوا(1) وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه، وقد كانوا بطباعهم يتبيّنون مواضع تلك الأُمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، ويعلمون أنّهم لا يبلغون شأوها(2) فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم، فكان حظّهم ممّا فرّوا إليه حظّهم ممّا فزعوا منه، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين، والحمد لله ربّ العالمين.(3)

وقال . في خاتمة الرسالة . : في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذّة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أُخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق. تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوّ للرسول – ﷺ – من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأوّل، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيمانا.

بعث الملأ من قريش عتبة بنربيعة إلى رسول الله – ﷺ – ليوافقوه على أُمور

---

1 – كاع عن الشيء: هابه وخاف عن مقابلته.

2 – الشأو: الأمد، الغاية.

3 - البيان في إعجاز القرآن للخطّابي ، ص 29-35.

أرسلوه بها فقرأ عليه رسول الله –ﷺ– آيات من حم السجدة، فلمّا أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش، قالوا: أقبل أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به.(1)

ولمّا قرأ رسول الله– ﷺ –القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلاّ وفيه قرآن.(2) وقد روي عن بعضهم أنّه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن.

ولمّا سمعته الجنّ لم تتمالك أن قالت: (إنّا سَمِعْنا قُرْآنا عَجَبا. يَهْدي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ) .(الجنّ: 1–2.) ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعا مُتَصَدِّعا مِنْ خَشْيَةِ الله».(الحشر: 21.) وفي قوله: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتابا مُتَشابِها مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلوبُهُم إلى ذِكْرِ الله) .(الزمر: 23) وقال سبحانه: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ).(العنكبوت: 51.) وقال سبحانه: (وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيمانا) .(الأنفال: 2.) وقال سبحانه: «وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقّ» .(المائدة: 83.) في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. وهو من عظيم آياته ودلائل معجزاته...(3)

2– رد الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم تـ 403هـ) (4) الصَّرْفَة بردود منها : –

---

1 – سيرة ابن‌هشام، ج 1، ص 314.

2 – المصدر السابق ، ج 2، ص 70.

3 - بيان إعجاز القرآن، ص 70–71. وانظر " محمد هادى معرفة التمهيد في علوم القرآن : الجزء الرابع ، ص 39 وما بعدها باختصار .

4 - **الباقلاني: (328 هـ – 402 هـ)** . أوحد المتكلّمين، مقدم الأصوليين،القاضي أبو بكر محمد بن الطّيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري ثمّ البغدادي، ابن الباقلاّنيّ، صاحب

أولا :- لو كان الأمر على ما ذهبوا اليه ، وكان الإعجاز بالصرفة حقا ، لكان الأقوى في الحجة ، والأبين في الدلالة ، أن يجيء القرآن في أدنى درجات البلاغة ، لأن ذلك أبلغ في الأعجوبة ، فإن الذي يعجز عن كلام هو في مستوى كلام الناس أو أدنى منه، يكون ذلك دليلا على أن هناك قوة غلابة ، حالت بينه وبين المعارضة، ولم يكن هناك حاجة لمجيء القرآن الكريم في نظم بديع ، ومستوى رفيع عجيب ، لأن الأقرب إلى قوة الدليل ، ووضوح الحجة- حين تكون الصرفة هي الوجه للإعجاز- أن يكون القرآن في مستوى كلامهم ، أو دونه .

ثانيا :- إننا لو سلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وعجيب الرصف ، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله ، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان

التصانيف، مالكي المذهب، انتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري يضرب به المثل في ذكائه وحفظه؛ ومن ذلك أنه سار رسولاً عن أمير المؤمنين إلى طاغية الروم، وجرت له أمور؛ منها :أنّ الملك أدخله عليه من بابٍ مدخله قصير؛ بحيث لا يستطيع داخُله الولوج منه إلاّ بالانحناء، ليدخل راكعا للملك، ففطن لها القاضي، ودخل بظهره .ومنها أنه قال لراهبهم :كيف الأهل والأولاد؟ فقال الملك :مه أما علمت أنّ الراهب يتنزّه عن هذا، فقال :تنزّهونه عن هذا، ولا تنزّهون رب العالمين عن الصاحبة والولد..؟

قال له طاغية الروم: خبرني عن عائشة زوجة نبيكم؟ فقال له الباقلاني: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل: زوج نبينا ومريم ابنة عمران، فأما زوج نبينا فلم تلد وكان لها بعل، وأما مريم: فجاءت بولد، وليس لها بعل، وكل قد برأها الله مما رميت به. فسكت طاغية الروم ولم يُحِر جوابًا.

فأفحمه كان قائد الكتيبة في الحرب التي دارت رحاها بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية . وكان لقلمه الأثر القوي في تمزيق حجج الفاطميين. وقد كثرت تصانيفه في أنواع العلوم ولا سيما الردود على الجهمية والخوارج والكرامية وغيرهم من أهل التحريف .توفّي سنة402هـ، وكانت جنازته مشهودة . انظر :الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ج17 ، ص 190-193. السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلّاني، د.ط دار المعارف، مصر..والقاضي أبو بكر الباقلاني، وآراؤه الكلامية والفلسفية ص: 36.

ثالثا :– إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره.)(1).

4 – **أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني(أبو بكر بن عبد الرحمن تـ 471هـ)**[2] فصلا كاملا في رسالته – الشافية – (في الذي يلزم القائلين بالصرفة) ، أبطل فيه مذهبهم ، بردود كاقية شافية ، **منها :**

---

1 – الباقلاني: إعجاز القرآن ، ص 42 .

2 - **عبد القاهر الجرجاني : أبو بكربن عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني**، فارسي الأصل، جرجاني الدار، ولد في جرجان وعاش فيها دون أن ينتقل إلى غيرها حتى توفي سنة **471 هـ**. لا نعرف تاريخ ولادته، لأنه نشأ فقيراً، في أسرة رقيقة الحال، ولهذا أيضا، لم يجد فضلة من مال تمكنه من أخذ العلم خارج مدينته جرجان، على الرغم من ظهور ولعه المبكر بالعلم والنحو والأدب. وقد عوضه الله عن ذلك بعالمين كبيرين كانا يعيشان في جرجان هما: أبو الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي، نزيل جرجان، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، قاضي جرجان من قبل الصاحب بن عبّاد. تتلمذ عبد القاهر على آثار الشيوخ والعلماء الذين أنجبتهم العربية، وترك آثاراً مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن، من ذلك : كتاب "الإيضاح في النحو" وكتاب "الجمل"، أما في الأدب وعلوم القرآن فكان له: "إعجاز القرآن" و"الرسالة الشافية في الإعجاز" و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وقد أورد في كتابيه الأخيرين، معظم آرائه في علوم البلاغة العربية ، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، كما ألف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" حققها مع رسالتين أخرىين للخطابي والرماني في نفس الكتاب كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، وهي من أفضل ماكُتِب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، وقد قيل عنه: كان ورعًا قانعًا، عالمًا، ذا نسك ودين، قيل :دخل عليه لص فأخذ ما وجد، وهو ينظر، وهو في الصلاة، فما قطعها. توفي عبد القاهر الجرجاني سنة **471 هـ.** انظر :الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18 ، ص 432–433، وطبقات الشافعية للسبكي : 5: 150.

1 – (أنه يلزم على ادعائهم هذا ، أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها ، – من بعد أن أوحي إلى النبي- ﷺ - وتحدوا إلى المعارضة – قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وإذا كان الأمر كذلك ، وأنهم منعوا منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها ، لزمهم أن يعرفوا ذلك من أنفسهم ، ولو عرفوا لجاء عنهم ذكره ، ولكانوا قد قالوا للنبي – ﷺ - :إنا كنا نستطيع هذا قبل الذي جئتنا به ، ولكنك سحرتنا ، واحتلت علينا في شيء حال بيننا وبينه ، وكان أقل ما يجب عليهم في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم ، ويشكوا البعض إلى البعض ، ويقولوا : ما لنا نقصنا في قرائحنا ..؟ وإذا كان ذلك لم يرد ، ولم يذكر إن كان منهم قول في هذا المعنى ، لا ما قل ولا ما كثر ، فهذا دليل على أنه قول فاسد ، ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل.

2 – الأخبار التي جاءت عن العرب في شأن تعظيم القرآن ، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو :-(إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر) فمحال أن يعظموه وأن يبهتوا عند سماعه ، ويستكينوا له ، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم ، لأنهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة ، والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه ، بل الواجب في مثل هذه الحال أن يقولوا : – إن كنا لا يتهيأ لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه ، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما
شئت ، وكيف شئت ، بما لا يقصر عنه .

وردها كلك في كتابه دلائل الإعجاز فقال :

1 – (ويلزم القائلين بالصرفة إثبات أن العرب كانت أشعارهم وخطبهم

بعد البعثة قاصرة عما كانت قبلها و.يلزم _ القائلين بذلك _ أن تكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفى جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها، وكل كلام احتفلوا فيه، من بعد أن أوحى إلى النبي -ﷺ- ، وتحدوا إلى معارضة القرآن؛ قاصرةً عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم، ونضبت عنهم موادُّ قد كانت تغزُر، وخذلتهم قوًى قد كانوا يصولون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبي -ﷺ- التي قالوها في مدحه عليه السلام وفى الرد على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية).(1)

2 – ولم يقر العرب بالصرفة، ولم يتهموا الرسول -ﷺ- أنه سحرهم في هذا الجانب ، ولو أن العرب كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها؛ لكان ينبغي لهم أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، ولو عرفوه لجاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي -ﷺ- : (إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتَلتَ في شيء حال بيننا وبينه)، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض ويقولوا: (ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلول في أذهاننا)، ففي أن لم يُرو ولم يُذكر أنه كان منهم قولٌ في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثُر، دليل على أنه قول فاسد).

3 – لو كان هناك صرفة كما زعموا، لكان سياق التحدي غير الذي جاء به هذا، وفـd سياق آية التحدي ما يدل على فساد هذا القول. وذلك أنه لا يقال عن الشيء يُمنَعُهُ الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يكثُر مثلُه : (إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنس والجن إلى نُصرتكم فيه)، وإنما يقال: (إني أُعطيتُ أن أحول بينكم وبين كلام كنتم

1 - دلائل الإعجاز، ص61

تستطيعونه وأمنعُكم إياه، وأن أُفحِمكم عن القول البليغ، وأعدمكم اللفظ الشريف، وما شاكل هذا..).

وخلاصة القول : – إن دليل النبوة عند القائلين بالصرفة ، إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن ، لا في نفس النظم ، ولو كان ذلك صحيحا ، لكان ينبغي إذا تعجب متعجب ، أن يقصد بتعجبه إلى المنع من شيء كان يستطيعه ، لا أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى الممنوع وهو القرآن الكريم.) (1)

وظهر مما تقدم أن القول بالصرفة، قول في غاية البعد والتهافت، وأنه من جنس ما لا يُعذر العاقل في اعتقاده.

4- رد الحاكم الجشمي [2] **(أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي تـ 494هـ)** الزيدي المذهب ،المعتزلي العقيدة، الصَّرفة ، وأبان عن فسادها بقوله :– (وقول من يقول بالصرفة لا يصح لوجوه ، منها : أن القوم في أيامه لم يكونوا ممنوعين من الكلام ، فإن أراد صرفهم عن العلم

1 – الجرجاني : – عبد القاهر ، الرسالة الشافية ص 146– 154 ، بتصرف . ودلائل الإعجاز : 614–615

2 - **الحاكم الجشمي** (413 . 494هـ) : هو المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، المعروف بـ «الحاكم الجشمي»، أحد المفسرين العظام المتبحرين في علام الكلام، شيخ الزمخشري. قرأ بنيسابور وغيرها. واشتهر بصنعاء «اليمن» وتوفي مقتولاً بمكة. له تآليف يبلغ إلى اثنين وأربعين، منها : «التهذيب» في تفسير القرآن، في ثمانية أجزاء، ويوجد منها الجزء 4، 6، 8 في مكتبة الفاتيكان.و شرح عيون المسائل في علم الكلام. و المنتخب في فقه الزيدية .و تحكيم العقول في الأُصول. و الإمامة على مذهب الزيدية.وغيرها . ألف الكعبي المعتزلي كتاباً باسم «ذكر المعتزلة» وأكمله عبد الجبار القاضي المعتزلي بكتاب أسماه «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» وقد استدركه الحاكم الجشمي بطبقتين من طبقات المعتزلة: الحادية عشرة، والثانية عشرة، وقد طبعه فوَاد السيد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية عام 1406هـ .
انظر : الزركلي، الاَعلام: 5: 289. و بحوث في الملل والنحل لجعفر السبحاني : 3 : 408 .409 .

الذي معه يتأتى مثله ، فهو الذي نقول ، وإن أراد صرفهم – وتلك العلوم قائمة والدواعي إلى المعارضة متوافرة – فذلك يستحيل ، وإن قال يصرفهم عن الدواعي ، فقد بينا ثبوت الدواعي فيهم . وبعد ، فلو كان الإعجاز الصرفة ، لكان أدون في الفصاحة آكد في الإعجاز ، ولكنه كان لا يصح التحدي به)([1])

5 – رد ابن عطية : (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربي الغرناطي، الفقيه المفسّر ت 546هـ)([2]) برد يشبه رد الخطابي أبي سليمان البُستي، ولعلّه اختزال منه، ذكره في مقدّمة تفسيره (المحرّر) ونقله الإمام بدرالدين الزركشي، مع تصرّف واختصار.

قال ابنعطيّة: (إنّ الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه، أنّ التحدّي إنّما وقع بنظمه، وصحّة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علما، وأحاط بالكلام كلّه علما، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علم . بإحاطته . أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى، ويتبيّن المعنى دون

---

1 – د. عدنان زرزور : الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير ، ص 446 .

2 - **ابن عطية الأندلسي : هو أبو محمد عبد الحق** بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب ، من قبيلة قيس غيلان بن مضر .ولد سنة **481**هـ بغرناطة بالأندلس مع بداية عهد دولة المرابطين التي كانت تعرف بدولة الفقهاء .ينتمي لأسرة مهاجرة من المشرق، تتلمذ على كبار علماء الأندلس، فهو لم يرحل كما رحل غيره من علماء الأندلس بسبب ظروف بلاده آنذاك.كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث. وكانت له اليد الطولى في اللغة والأدب والشعر .وذكرت المصادر التي ترجمت لعبد الحق بن عطية كتابين:فهرس ابن عطية، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. هذا وقد أشار الزركشي إلى إتهام ابن عطية بالزندقة وأفاد براءته منها . اختلف المؤرخون في سنة وفاته، فذهب ابن بشكوال والسيوطي ومحمد مخلوف إلى أنها سنة 542 هـ. وذهب الداودي وابن فرحون والبغدادي وعبد الحي الكتاني إلى انها سنة 546 هـ أما في مقدمة البحر المحيط لمحمد بن يوسف أبي حيان الغرناطي فورد أنه توفي في 25 رمضان 541 هـ .انظر : منهج ابن عطية في تفسير القرآن لكريم – عبد الوهاب عبد الوهاب فايد . ص 11- 52.

المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورةً أنّ بشرا لم يكن قطّ محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إنّ العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلمّا جاءهم محمّد - ﷺ - صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه! ......والصحيح أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر، في أنّ الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثمّ لايزال ينقّحها حولاً كاملاً، ثمّ تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقّح، ثمّ لاتزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. **وكتاب الله سبحانه لو نزعت منه لفظة، ثمّ أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد**، ونحن تَبَيّنُ لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

إلى أن يقول : فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب : أنه لما جاء محمد- ﷺ - وقال : (فأتوا بسورة من مثله) (سورة البقرة ، آية : 23) ، قال كل فصيح في نفسه : وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأمله وتدبره ، ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال : والله ما هو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ، ولا بالجنون ، وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله ، فصح عنده أنه من عند الله ، فمنهم من آمن وأذعن ، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ، ففر إلى القتال ، ورضي بسفك الدم ،عجزا عن المعارضة ، حتى أظهر الله دينه ، ودخل جميعهم فيه ولم يمت رسول الله – ﷺ – وفي الأرض قليل من العرب يعلن كفره)(1) .

---

1 – ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج1/ ص 71– 73 ، و القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – ، ج1/ ص51 .

6 – **يعد أبو حيان (أبو علي محمد بن يوسف بن علي الأندلسي تـ 654هـ)([1])** : من المعارضين للقول بالصرفة ،حيث ذكر أن قوما لم يدركوا إعجاز القرآن من جهة الفصاحة ، ورأوا أنه من نمط كلام العرب ، فقال (اختلفوا فيما به إعجاز القرآن ، فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها ، وتوغل في معارف الآداب وقوانينها ، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها ، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها ، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر ، ولا داخلة تحت القدر ، ومن لم يدرك هذا المدرك ، ولا سلك هذا المسلك ، رأى أنه من نمط كلام العرب ، وأن مثله مقدور لمنشئ الخطب ، فإعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ، ومناضلته ، وإن كانوا قادرين على مماثلته) .وقد عير أبو حيان هؤلاء ، وهو المعروف بسلاطة اللسان فقال : (والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف ، هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء ، حين رأت زوجها يطأ جارية ، فعاتبته ، فأخبر أنه ما وطئها ، فقالت له : إن كنت صادقا فاقرأ شيئا من القرآن ، فأنشدها بيت شعر ذكر الله فيه ورسوله وكتابه فصدقته ، فلم ترزق من الرحمة ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق .)(2) فهو يرميهم بقصر النظر ، وخطل التفكير ، ونقصان العقل . ثم أورد حكاية عن شيخه ابن الزبير الغرناطي عن بعض من كان له معرفة بالعلوم القديمة ، ومعرفة بكثير من العلوم الإسلامية ، وكان يقول : لا أدرك فرقا بين

---

[1] - **أبو حيان الغرناطي:** العلامة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين، أبو حيان، الأندلسي الجياني النفزي. ولد في غرناطة سنة 654هـ،أشهر أعمال أبي حيان وأعظمها هو تفسيره الضخم : البحر المحيط الذي يُعد قمة التفاسير التي عنيت بالنحو، و له أيضاً :ارتشاف الضرب من لسان العرب.و إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب..وغيرها . عمّر أبو حيان في القاهرة حتى توفي في منزله خارج باب البحر بظاهر القاهرة في الثامن والعشرين من صفر سنة **745**هـ، ودُفن بمقابر باب النصر شمال القاهرة. انظر : شذرات الذهب (6: 145) ، و(الأعلام) للزركلي (7: 152).

2 – أبو حيان : البحر المحيط ج1 : ص 8–9 .

القرآن وبين غيره من الكلام ، فهذا الرجل وأمثاله من علماء المسلمين يكون من الطائفة الذين يقولون بأن الإعجاز وقع بالصرف .

7- إجماع الأمة قبل ظهور القول بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتي ، وقد حكى **الإمام القرطبي:(محمد بن أحمد تـ684هـ)**([1]) الإجماع في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن). وتفسيره قمة شامخة في الأحكام ، وأمور التشريع ، أضف إلى ذلك ما حواه من نكت بلاغية ، ولمسات بيانية . ولقد تعرض في تفسيره المذكور للحديث عن القرآن وعلومه ، وأهمية التفسير وشروطه ، وأطنب في بيان فضائل القرآن ، ولم ينس أن يتناول جانب الإعجاز فقال :

[[**باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها** : المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم - صلوات الله عليهم - وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة ، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة.

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه ، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة ، لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجيء الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر ، وانشقاق القمر ، وما شاكلها مما

---

1 - **القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح** كنيته **أبو عبد الله** ولد بقرطبة ب(الأندلس) حيث تعلم القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وتوسع بدراسة الفقه والقراءات والبلاغة وعلوم القرآن وغيرها. انتقل إلى مصر واستقر بمنية بني خصيب في شمال أسيوط حتى وافته المنية في **9 شوال 671هـ**، وهو يعتبر من كبار المفسرين وكان فقيهًا ومحدثًا ورعًا وزاهدًا متعبدًا. ذكر المؤرخون للقرطبي عدة مؤلفات:"الجامع لأحكام القرآن" هو كتاب جمع تفسير القرآن كاملاً. والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. والتذكار في أفضل الأذكار..وغيرها . تأثر به كثير من المفسرين جاءوا بعده، وانتفعوا بتفسيره وأفادوا منه كثيرا.انظر : القرطبي المفسر: سيرة ومنهج ، يوسف عبد الرحمن، دار القلم,1982م .

لا يقدر عليها البشر.

والشرط الثاني هو أن تخرق العادة ، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعي للرسالة آيتي مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها ، لم يكن فيما ادعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كان قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه ، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذي يستشهد به الرسول- ﷺ- له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي على الرسالة فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات ، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه لو أسمعنا كلامه العزيز وقال: صدق أنا بعثته ، ومثال هذه المسألة – ولله ولرسوله المثل الأعلى – ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقي ، فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله لو قال ، صدق فيما ادعاه علي ، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال صدق عبدي في دعوة الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا.

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله – عز وجل – فيقول آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا ، أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به.

الشرط الرابع هو أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها

معجزة له وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي للرسالة: آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت كذب وليس هو نبي فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه وكذلك ما يروى أن مسيلمة الكذاب– لعنه الله – تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر ، وذهب ما كان فيها من الماء ، فما فعل الله سبحانه من هذا كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب.

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة ، فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به ، يعمل مثل ما عمل ، بطل كونه نبيا وخرج عن كونه معجزا ، ولم يدل على صدقه ، ولهذا قال المولى سبحانه: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور : 34) وقال: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) (هود : 13) كأنه يقول: إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد – ﷺ – وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله لا يقال إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين وهذا المسيح الدجال فيما رويتم عن نبيكم – ﷺ – يظهر على يديه من الآيات العظام والأمور الجسام ما هو معروف مشهور فإنا نقول ذلك يدعي الرسالة وهذا يدعي الربوبية وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة.

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيح الدجال فيه التصوير والتغيير من

حال إلى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبه شيء، ليس كمثله شيء هو السميع البصير... ثم قال :

فصل- إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين:

الأول- ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي - ﷺ- والثاني- ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله واستفاضت بثبوته ووجوده ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب وهذه صفة نقل القرآن ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي - ﷺ- المعلوم وجوده بالضرورة وصدقه بالأدلة والمعجزات والرسول أخذه عن جبريل - عليه السلام - عن ربه عز وجل فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلوه ويسمعونه لكثرة العدد ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد - ﷺ- ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة فالقرآن معجزة نبينا - ﷺ- الباقية بعده إلى يوم القيامة ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه أو دخلها التبديل والتغيير كالتوراة والإنجيل.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة:

منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) (يس: 61) وفي صحيح مسلم أن أنيسا

أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله قلت فما يقول الناس قال: يقولون شاعر كاهن ساحر وكان أنيس أحد الشعراء قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . (1) وكذلك

أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله – ﷺ – : (حم) فصلت على ما يأتي بيانه هنالك. فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.(2)

ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال وتأمل ذلك في سورة (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق:6-8) إلى آخرها وقوله سبحانه: (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الزمر : 67) إلى آخر السورة وكذلك قوله سبحانه : (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) (ابراهيم : 42) إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)(غافر : 16) ولا أن يقول : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)(الرعد : 13). قال ابن الحصار(3) : وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة لازمة كل سورة بل

---

1 - انظر : صحيح مسلم (2473) وعنده : فما يلتئم ، وهو في مسند أحمد (21525) .

2 - أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابن إسحاق فيما ذكر ابن هشام (293/1-294) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (204/2-205) وسترد القصة في أول تفسير سورة فصلت (390/18-391) ط : الرسالة .

3 - عبدالرحمن بن أحمد بن سعيد ، أبو المطرِّف ، القرطبي المالكي ، توفي سنة 422هـ ، سيرة أعلام النبلاء (473/17) .

هي لازمة كل آية وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدي والتعجيز ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار وهي أقصر سورة في القرآن وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل .

والثاني الإخبار عن الوليد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد على ما يقتضيه قول الحق: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً) (المدثر : 11-14) ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده وانقطع نسله.

ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها والقرون الخالية في دهرها وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر – عليهما السلام – وحال ذي القرنين فجاءهم وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته فتحققوا صدقه قال القاضي ابن الطيب: ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى المتعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي.

ومنها: الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله سبحانه

وينقسم إلى أخباره المطلقة كوعده بنصر رسوله – ﷺ – وإخراج الذين أخرجوه من وطنه وإلى وعد مقيد بشرط كقوله: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطلاق : 2) و (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) (التغابن : 11) و (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) (الطلاق : 2) و(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)(الأنفال : 65) وشبه ذلك.

ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي فمن ذلك: ما وعد الله نبيه – ﷺ – أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) (التوبة : 23) الآية ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضي الله عنه: إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه ليثقوا بالنصر وليستيقنوا بالنجح وكان عمر يفعل ذلك فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا برا وبحرا قال الله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (النور : 55) وقال: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) (الفتح : 27) وقال: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) (الأنفال : 7) وقال: (ألم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) (الروم :1–3) فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين أو من أوقفه عليها رب العالمين فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه.

ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

ومنها: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف قال الله تعالى : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء : 82) .

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا – رحمة الله عليهم –..

ووجه حادي عشر قاله النظام وبعض القدرية: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصرفة عند التحدي بمثله. وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعال صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله.

وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز، فلوا قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذ كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا.

واختلف من قال بهذا الصرفة على قولين:

أحدهما: – أنهم صرفوا على القدرة عليه، ولو تعرضوا له لعجزوا عنه.

الثاني : – أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه.

قال ابن عطية : وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد – ﷺ – صُرفوا عن ذلك وعجزوا عنه .. والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، إلى أن يقول : وكتاب الله لو نزعت مكنه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد . ... ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جل ذكره، ذكر في آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن

أرضعيه)(القصص: 7 .) الآية. وكذلك فاتحة سورة المائدة: أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن حكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت، وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردى المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ... الآية.)(آل عمران: 185) " وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية وذلك في قوله تعالى: (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا) (العنكبوت: 40) ". وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عز وجل: (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها " إلى قوله: " وقيل بعدا للقوم الظالمين) (هود: 41–44) إلى غير ذلك.

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت: إن النبي – ﷺ – تقوله، أنزل الله تعالى: (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)(الطور :33–34.) ". ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال: (أم يقولون افتراه قل فاتوا لعشر سور مثله مفتريات) (هود: 13) ".

فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) (البقرة:33) ". فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سبي الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا، وأبلغ في الحجة وأشد تأثيرا. هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن (اللحن (بالتحريك: الفطنة واللغة)، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن (اللسن : بالتحريك، الفصاحة).

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة. هذا رسول الله – ﷺ – مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطا عن رتبة القرآن، وذلك في قوله – عليه السلام – : (فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..) فأين ذلك من قوله عز وجل (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) (الزخرف : 71). وقوله(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)(السجدة : 17) . هذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى – عليه السلام – على الأطباء، ومعجزة موسى – عليه السلام – على السحرة؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء –عليهم السلام– بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في زمان موسى– عليه السلام – قد انتهى إلى غايته وكذلك الطب في زمن عيسى – عليه السلام – والفصاحة في زمن محمد – ﷺ – .]](1)

8– رد كمال الدين الزملكاني(تـ 727هـ) (2) الصرفة في كتابه (

---

1 – القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ،ج1: ص 73–78. وانظر :د. عبد الفتاح محمد سلامة: قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين ، ص 154 .

2 – ابن الزملكاني: هو الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، من شيوخ الشافعية بالشام، إنتهت إليه رياسة المذهب تدريسا وإفتاءً ومناظرةً .سمع منه ابن كثير دروسه في دمشق. توفي عام 727هـ. انظر : البداية والنهاية – ابن كثير – الجزء 14 – صفحة 131–132.

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)([1]) ، وهو كتاب متوسط الحجم ، بدأ فيه مصنفه بمقدمة ، ثم قسمه إلى أقسام ، وجعل القسم الأول منه في بيان إعجاز القرآن ، وقد ذكر ثمانية أوجه للإعجاز ، ومنها : الصرفة .. وتوسع في ردها ، فقال :

(أ – لم يرد عن العرب أنهم تعجبوا من حالهم إزاء القرآن ، حيث أنه مما يقدرون على مثله ، لكنهم لا يجدون في أنفسهم الرغبة على معارضته ، كما هو لازم القول بالصرفة .

ب– لم يرد عن العرب أنهم عارضوا القرآن بكلامهم الفصيح الذي قالوه قبل حدوث الصرفة بزعمهم .

ج– سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى، فلا يجدي اجتماعهم قوّة وظهورا على المعارضة، وهو مخالف لقوله تعالى: (قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) .(الإسراء: 88)... ولما أثبت بطلان الصرفة ، وبطلان كون القرآن معجزا لأمر خارج عنه ، شرع في ذكر الأوجه التي يمكن أن يتبين بها إعجاز القرآن الذاتي. وبعد أن ذكرها بين الوجه الذي ارتضاه منها وهو (التأليف ..) بقوله : (فتعين أن يكون الإعجاز نشأ من التأليف الخاص به لا مطلق التأليف ، وذلك بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة ، وعلت مركباته معنى ..)(2) وقوله : (اعتدلت مفرداته تركيبا)، يقصد : النظم . وقوله : (زنة) ، فيه إشارة إلى الفصاحة . وقوله : (علت مركباته معنى) ، إشارة إلى البلاغة , وهذا الوجه الذي ارتضته جماهير من السلف والخلف .

---

1 – كتاب البرهان الكاشف في إعجاز القرآن ، حققه د. أحمد مطلوب ، والدكتورة خديجة الحديثي ، بغداد ، 1394هـ.

2 – البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق : د. أحمد مطلوب ، ود. خديجة الحديثي 53– 54.

9 – تحدث العلوي الزيدي : (يحيى بن حمزة تـ 749هـ)[1] عن الصرفة كذلك وردها، وضع صاحب الطراز الأمير يحيى بنحمزة العلوي الزيدي في خاتمة كتابه تحقيقا مستوعباً عن مسألة إعجاز القرآن وعن وجوهه المتنوّعة في أُسلوب أدبيّ كلاميّ لم يسبق لمثله نظير في مثل تحقيقه، وجعله على أربعة فصول:

وسنذكر منها **الفصل الثاني** في كون القرآن معجزا. وكذا **الفصل الثالث** في بيان وجوه إعجاز القرآن.

الفصل الثاني: في بيان كون القرآن مُعجزا :

اعلم أنّ الكلام في هذا الفصل وإن كان خليقا بإيراده في المباحث الكلاميّة والأسرار الإلهية، لكونه مختصّا بها ومن أهم قواعدها، لما كان علامةً دالّةً على النُبُوَّة وتصديقا لصاحب الشريعة حيث اختاره الله تعالى بيانا لمعجزته وعلَما دالاًّ على نبوّته وبُرْهانا على صحّة رسالته، لكن لا يخفى تعلّقه بما نحنُ فيه تعلّقا خاصّا، والتصاقا ظاهرا، فإنّ الأَخْلَق بالتحقيق أنّا إذا تكلّمنا على

---

1 – ا **لموَيد بالله يحيى بن حمزة بن علي** : (٦٦٩ . 749 هـ): هو الإمام الموَيد بالله ، أبو إدريس يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن علي التقي ابن محمد الجواد بن الإمام علي الرضا.وهو المعروف بعلمه الجم ، واطّلاعه الواسع ، وتوغّله في علم الكلام وبروزه في أسرار البلاغة والفصاحة ، يعرّفه الموَيدي بقوله : هذا الإمام من منن الله على أرض اليمن ، وأنواره المضيئة في جبين الزمن ، نفع الله بعلومه الأئمّة وأفاض من بركاته على هذه الأمّة ، قام بالحكم بعد وفاة الإمام محمد بن المطهر سنة ٧٢٩ هـ وتوفي ٧٤٩ هـ عن عمر يناهز ٨٢ سنة.وأمّا موَلفاته فهي كثيرة جداً وقد وصل إلينا منها: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، طبع بالقاهرة عام ١٣٣٢ هـ بمطبعة المقتطف في ثلاثة أجزاء وهذا الكتاب من حسنات الدهر ، وله كتاب : الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ، ومصنفاته كثيرة حتى قيل إن عدد كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره ، وشملت عدة فروع من المعرفة ، كالبلاغة ، والفقه ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والنحو ...وغيرها . انظر : الشيخ جعفر السبحاني بحوث في الملل والنّحل - ج ٧، ص 418. ومحمد علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، تحقيق حسين العمري ، دار الفكر ، دمشق .

بلاغة غاية الإعجاز بتضمّنه لأفانين البلاغة، فالأحقُّ هو إيضاحُ ذلك، فنُظْهِرُ وجه إعجازه، وبيانَ وجه الإعجاز، وإبراز المَطاعِن التي للمُخالفين، والجواب عنها، والذي يُقْضى منه العَجب، هو حالُ علماء البيان، وأهل البراعة فيه عن آخرهم، وهو أنّهم أغفلوا ذكر هذه الأبواب في مصنّفاتهم بحيث أنّ واحدا منهم لم يذكره مع ما يظهرُ فيه من مزيد الاختصاص وعِظَم العُلْقَة، لأنّ ما ذكروه من تلك الأسرار المعنويّة، واللطائف البيانيّة من البديع وغيره، إنّما كانت وُصْلَةً وَذَريعَةً إلى بيان السِّرِّ واللباب، والغرض المقصودُ عند ذوي الألباب، إنّما هو بيان لطائف الإعجاز، وإدراكُ دقائقه، واستنهاضُ عجائبه، فكيف ساغَ لهم تركها وأعرضوا عن ذكرها، وذكروا في آخر مصنّفاتهم ما هو بمعزل عنها، كذكر مخارج الحُروف وغيرها ممّا ليس مُهِمّا، وإنّما المُهِمّ ما ذكرناه، ثمّ لو عَذَرْنا مَن كان منهم ليس له حظّ في المباحث الكلاميّة، ولا كانت له قدَمٌ راسخة في العلوم الإلهية، وهم الأكثرُ منهم ، كالسّكاكي، وابن الأثير، وصاحب التبيان، وغيرهم ممّن برَّز في علوم البيان، وصَبَغ بها يَدَه، وبلغ فيها جَدَّه وجَهْده، فما بال مَن كان له فيها اليد الطولى، كابن الخطيب الرازي فإنّه أعرض عن ذلك في كتابه المصنّف في علم البيان فإنّه لم يتعرّض لهذه المباحث، ولا شمّ منها رائحة، ولكنّه ذكر في صدر كتاب النهاية كلاما قليلاً في وجه الإعجاز لايَنقعُ من غُلّة، ولا ينفع من علّة، فإذا تمهّد هذا فاعلم أنّ الذي يدلّ على إعجاز القرآن مسلكان:

المسلك الأوّل منهما: من جهة التحدّي، وتقريرُه هو أنّه عليهالسلام تحدّى به العرب الذين هُم النهاية في الفصاحة والبلاغة، والغايةُ في الطلاقة والذّلاقَة، وهم قد عجزوا عن معارضته، وكلّما كان الأمر فيه كما ذكرناه فهو مُعْجِزٌ، وإنّما قلنا: إنّه عليهالسلام تَحَدّاهمْ بالقرآن لما تَواتَرَ من النقل بذلك في القرآن، وقد نزَّلهم الله في التّحدّي على ثلاث مراتب:

الأُولى: بالقرآن كلّه، فقال تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيرا) .

(الإسراء: 88.)

الثانية: بعشْر سُوَرٍ منه كما قال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ».(هود: 13).

الثالثة: بُسورةٍ واحدةٍ كما قال تعالى: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّه» ثمّ قال بعد ذلك «فإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)(البقرة: 23-24.)

فنفى القدرة لهم على ذلك بقضية عامّة، وأمرٍ حَتْمٍ لا تردُّدَ فيه.

فدلّت هذه الآيات على التحدّي، مرّةً بالقرآن كلّه، ومرّةً بعشر سُوَر، ومرّة بسورة واحدة، وهذا هو النهاية في بلوغ التحدّي، وهذا كقول الرجل لغيره: هاتِ قوما مثل قومي، هاتِ كنِصفهم، هاتِ كَرُبْعهم، هَاتِ كواحدٍ منهم.

وإنّما قلنا: إنّهم عجزوا عن معارضته لأنّ دواعيهم متوفّرةٌ على الإتيان بها، لأنّه عليهالسلام كلّف العرب تَرْكَ أديانهم، وحَطّ رئاستهم، وأوْجَب عليهم ما يُتْعِبُ أبدانهم، ويَنْقُصُ أموالَهم، وطالبَهُم بعداوة أصدقائهم، وصَداقَةِ أعدائهم، وخلع الأنداد والأصنام من بين أظهرهم، وكانت أحبَّ إليهم من أنفسهم، من أجل الدين، ولا شك أنَّ كلّ واحدٍ من هذه الأُمور ممّا يَشُقُّ على القلوب تحمّلهُ ولا سيّما على العرب مع كثرة حميّتِهِم وعظيم أنفَتِهِمْ، ولا شكّ أنّ الإنسان إذا استنْزَلَ غيرهِ عن رئاسته ودعاه إلى طاعته، فإنّ ذلك الغير يُحاولُ إبطال أمره بكلّ ما يَقْدر عليه ويجدُ إليه سبيلا.

ولمّا كانت معارضة القرآن بتقدير وقوعها مُبْطلةً لأمر الرسول - ﷺ - علمنا لا محالة قطعا توفّرَ دواعي العرب عليها، وإنّما قلنا: إنّه ما كان لهم مانعٌ عنها لأنّه - ﷺ - ما كان في أوّل أمره بحيث تَخاف قهره كلُّ العرب، بل هو الذي كان خائفا منهم، وإنّما قلنا: إنّهم لم يُعارضوه لأنّهم لو أتوا بالمعارضة لكان اشتهارُها أحقّ من اشتهار القرآن لأنّ القرآن حينئذ يصير كالشبهة وتلك المعارضة كالحجّة، لأنّها هي المبطلة لأمره، ومتى كان الأمر كما قلناه وكانت الدواعي متوفّرةً على إبطال أُبَّهَةَ المدّعى وإبطال رونقه، وإزالة بهائه، كان اشتهارُ المعارضة أولى من اشتهار الأصل، فلمّا لم تكن مشتهرة علمْنا لا

محالَةَ بُطلانها، وأنّها ما كانت، وإنّما قلنا: إنّ كلّ من توفّرتْ دواعيه إلى الشيء ولم يُوجَدْ مانع منه، ثمّ لم يتمكّن من فعله، فإنّه يكون عاجزا، لأنّه لامعنى للعجز إلاّ ذاك، وبهذا الطريق نَعْرِف عجْزَنا عن كلّ مانعْجزُ عنه كخلق الصور والصفات، ويؤيّد ما ذكرناه من عجزهم ويوضّحه، أنّهم عدلوا عن المعارضة إلى تعريض النفس للقتل، مع أنّ المعارَضةَ عليهم كانت أسهل وما ذاك إلاّ لمّا أحسُّوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كونُ القرآن معجزا، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة الواردة عليها والانفصال عنها...

ثمّ جعل يورد أسئلة ثمانية للملاحدة حاولوا فيها إخفاء وجه الإعجاز في القرآن. وأجاب عن كلّ واحدة منها إجابة وافية على أُسلوب منهجي رتيب، أبدى خلالها جوانب لامعة من إعجاز القرآن..إلى أن قال :

المسلك الثاني: في الدلالة على أنّ القرآن معجز من جهة العادة ، وتقريرُه أنّ الإتيان بمثل كلّ واحدة من سور القرآن، لا يخْلُو حالُه إمّا أن يكون معتادا، أو غير معتاد، فإنْ كان معتادا كان سكوتُ العرب مع فصاحتهم وشدّة عداوتهم للرسول - ﷺ - ومع توفّر دواعيهم على إبطال أمره، والقدْح في دعواه بمبلَغ جَهْدهم وجدّهم، يكون لا محالةَ من أَبْهَرِ المعجزات، وأظهر البيّنات على عجزهم عن الإتيان بمثل سورة منه.

وأمّا إن لم يكن معتادا، كان القرآن مُعْجزا، لخروجه عن المألوف والمعتاد، فثبت بما ذكرناه أنّ القرآن سواء كان خارقا للعادة أو لم يكن خارقا، فإنّه يكون مُعْجزا، وهذه نكتة شريفةٌ حاسِمةٌ لأكثر أسئلة المنكرين التي يوردونها على كونه خارقا للعادة كما ترى.

الفصل الثالث: في بيان الوجه في إعجاز القرآن :

اعلم أنّ الكلام في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا دقيقٌ، ومن ثمّ كثرت فيه الأقاويلُ واضطربت فيه المذاهب، وتفرّقوا على أنحاءٍ كثيرة، فنلذكّر ضبط المذاهب، ثمّ نُرْدفه بذكر ما تحتمله من الفساد، ثمّ نذكر على أَثَرِهِ المختارَ

منها، فهذه مباحث ثلاثة:

المبحث الأوّل: في الإشارة إلى ضبط المذاهب في وجه الإعجاز فنقول: كون القرآن معجزا ليس يخلو الحال فيه إمّا أن يكون لكونه فعلاً من المعتاد، أو لكونه فعلاً لغير المعتاد، فالأوّل هو القول بالصِّرفَةِ، ومعنى ذلك أنّ الله تعالى صَرَفَ دواعيهم عن معارضة القرآن مع كونهم قادرين عليها، فالإعجازُ في الحقيقة إنّما هو بالصّرفة على قول هؤلاء، كما سنحقّق خلافهم في الردّ عليهم بمعونة الله تعالى، ونذكر من قال بهذه المقالة، وإن كان الوجه في إعجازه هو الفعل لغير المعتاد، فهو قسمان:

القسم الأوّل: أن يكون لأمر عائد إلى ألفاظه من غير دلالتها على المعاني، ثمّ هذا يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون مشترطا فيهم اجتماع الكلمات وتأليفها، وهذا هو قول من قال: الوجهُ في إعجازه هو اختصاصه بالأُسلوب المفارق لسائر الأساليب الشعرية والخَطابيّة، وغيرهما، فإنّه مختصّ بالفواصل والأسجاع، فمن أجل هذا جعلنا هذا الوجه مختصّا بتأليف الكلمات.

وثانيهما: أن يكون إعجازُه لأمر راجع إلى مفردات الكلمات دون مؤلّفاتها، وهذا هو رأيُ من قال: إنّه إنّما صار معجزا من أجل الفصاحة، وفسّر الفصاحة بالبراءة عن الثقل والسّلامة عن التعقيد، واختصاصه بالسلاسة في ألفاظه.

القسم الثاني: أن يكون إعجازُه إنّما كان لأجل الألفاظ باعتبار دلالتها على المعاني، وهذا هو قول من قال: إنّ القرآن إنّما كان معجزا لأجل تضمّنه من الدلالة على المعنى، وهذا القسم يمكن تنزيلُه على أوجه ثلاثة:

الوجه الأوّل: أن تكون تلك الدلالةُ على جهة المُطابَقةِ وفيه مذاهبُ ثلاثة:

أوّلها: أن يكون لأمر حاصل في كلّ ألفاظه، وهذا هو قولُ من قال: إنّ وجه إعْجازه، هو سلامتهُ عن المناقضة في جميع ما تضمّنه.

وثانيها: أن يكون لأمر حاصلٍ في كلّ ألفاظه وأبعاضها، وهذا هو قول من

قال: إنّ إعجازَه إنّما كان لما فيه من بيان الحقائق والأسرار، والدقائق ممّا يكون العقلُ مشتغلاً بدَرْكها، فإنّ العلماءَ مِنْ لُدُنْ عَصْرِ الصحابة- رضي الله عنهم- إلى يومنا هذا ما زالوا يستَنْهِضُون منه كلّ سرٍّ عجيب، ويستنبطون من ألفاظه كلّ معنى لطيف غريب، فهذا هو الوجه في إعجازه على رأي هؤلاء.

وثالثها: أن يكون وجه إعجازه لأمرٍ حاصلٍ في مجموع ألفاظه وأبعاضها، ممّا لايستقلّ بدركه العقل، وهذا هو قول من قال: إنّ الوجه في إعجازه ما تضمّنه من الأُمور الغيبيّة، واللطائف الإلهيّة، التي لا يختصّ بها سوى علاّمِها، فهذه هي أقسامُ دلالة المطابقة، تكون على هذه الأوجه الثلاثة التي رمزنا إليها.

الوجه الثاني: أن تكون تلك الدلالة على جهة الالتزام، وهذا مذهبُ من يقول: إنّ القرآن إنّما كان معجزا لبلاغته، وفسّر البلاغة باشتمال الكلام على وجوه الاستعارة، والتشبيه المضمر الأداة، والفصل، والوَصْل، والتقديم، والتأخير، والحذف، والإضْمار، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك من فنون البلاغة.

الوجه الثالث: أن تكون تلك الدلالةُ من جهة تضمّنه لما يتضمّنه من الأسرار المُودَعة تحت ألفاظه التي لاتزال على وجهِ الدّهر غضَّةً طَرِيَّة يجتليها كلُّ ناظر ويعلُو ذِروتها كلّ خرِّيتٍ ماهِر، فظهر بما لخّصناه من الحصر أنّ كون القرآن معجزا، إمّا أن يكون للصّرْفة، أو للنظم، أو لسلامة ألفاظه من التعقيد، أو لخُلُوّه عن التناقض، أو لأجْل اشتماله على المعاني الدقيقة، أو لاشتماله على الإخبار بالعلوم الغيبية، أو لأجل الفصاحة والبلاغة، أو لما يتركّب من بعض هذه الوجوه أو من كلّها، كما فصّلناه من قبل، ونحنُ الآن نذكر كلّ واحد من هذه الأقسام كلّها، ونبطله سوى ما نختارُه منها والله الموفّق.

المبحث الثاني: في إبطال كلّ واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها سوى ما نختار منها.

وجملة ما نذكره من ذلك مذاهب:

المذهب الأوّل منها: الصّرْفة، وهذا هو رأي أبي إسحاق النظّام، وأبي إسحاق

النصيبي، من المعتزلة واختاره الشريف المرتضى من الإماميّة، واعلم أنّ قول أهل الصّرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة، لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضّحه.

التفسير الأول : أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والاستنزال عن المراتب العالية ، والتكليف بالانقياد والخضوع ، ومخالفة الأهواء .

التفسير الثاني : أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في ارتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه ، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين أحدهما : أن يقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على حهة الاستمرار ، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم .

وثانيها أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم ، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها ، مخافة أن تحصل المعارضة .

التفسير الثالث : أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة ، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة ، وحاصل الأمر في هذه المقالة، أنّهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلاّ أنّ اللّه تعالى منعَهم بما ذكرناه، قال: والذي غَرَّ هؤلاء حتّى زعموا هذه المقالة، مايَرَوْنَ من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكلّ الأساليب البلاغيّة في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أنّ كلّ من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لايقصر عن معارضته، خَلا ما عَرَض من منع الله إيّاهم بما ذكرناه من الموانع، والذي يدلّ على بطلان هذه المقالة براهين.

البرهان الأوّل منها: أنّه لو كان الأمر كما زعموه، من أنّهم صرفوا عن المعارضة مع تمكّنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن

يميّزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حدّ التواتر، فلمّا لم يكن ذلك، دلّ على بطلان مذاهبهم في الصرفة.

لايقال: إنّه لا نزاع في أنّ العرب كانوا عالمين بتعذّر المعارضة عليهم، وأنّ ذلك خارج عن العادة المألوفة لهم، ولكنّا نقول: من أين يلزم أنّه يجب أن يتذاكروا ذلك ويظهروه، حتّى يبلغ حدّ التواتر، بل الواجب خلاف ذلك، لأنّا نعلم حرص القوم على إبطال دعواه، وعلى تزييف ما جاء به من الأدلّة، فاعترافهم بهذا العجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجّته، فكيف يمكن أن يقال بأنّ الحريص على إخفاء حجّة خصمه يجب عليه الاعتراف بأبلغ الأشياء في تقرير حجّته، وهو إظهاره وإشهاره.

لأنّا نقول: هذا فاسد، فإنّ المشهور فيما بين العوام، فضلاً عن دهاة العرب، أنّ بعض من تعذّر عليه بعض ما كان مقدورا له، فإنّه لا يتمالك في إظهار هذه الأُعجوبة والتحدّث بها، ولا يخفى دون هذه القضية، فضلاً عنها، فكان من حقّهم أن يقولوا: إنّ كلّ واحد منّا يقدر على هذه الفصاحة، ولكن صار ذلك الآن متعذّرا علينا لأنّك سحرته عن الإتيان بمثله، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على فسادها.

البرهان الثاني: لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموه، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلمّا ظهر منهم التعجّب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أُثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: إنّ أعلاه لمورق، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة، فإنّ المعلوم من حال كلّ بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه، وما ذاك إلاّ لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كلّ موعظة، وحكاية كلّ قصّة، فلو كان كما زعموه من الصّرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبيّا لو قال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمّانة في كفّي، وأنتم لا تقدرون على ذلك، لم يكن تعجّب القوم من وضع الرمّانة في كفّه، بل كان من أجل تعذّره

عليهم، مع أنّه كان مألوفا لهم ومقدورا عليه من جهتهم، فلو كان كما زعمه أهل الصّرفة، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه، فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أنّ الله تعالى أنساهم هذه الصّيغ فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولاشك: أنّ نسيان الأُمور المعلومة في مدّة يسيرة، يدلّ على نقصان العقل، ولهذا فإنّ الواحد إذا كان يتكلّم بلغة مدّة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئا من تلك اللغة، لكان ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيّره، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدّي بالقرآن وأنّ حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ما عوّل عليه أهل الصّرفة، وكلامهم يحتمل أكثر ممّا ذكرناه من الفساد، وله موضع أخصّ به، فلا جرم اكتفينا هاهنا بما أوردناه).(1)

المذهب الثاني: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه إنّما هو الأُسلوب، وتقريره أنّ أُسلوبه مخالف لسائر الأساليب الواقعة في الكلام، كأُسلوب الشعر، وأُسلوب الخُطَب والرسائل، فلمّا اختصّ بأُسلوب مخالف لهذه الأساليب، كان الوجه في إعجازه. وهذا فاسدٌ لأوجه:

أوّلها: أنّا نقول: ما تريدون بالأُسلوب الذي يكون وجها في الإعجاز، فإن عَنيْتُم به أُسلوبا أيَّ أُسلوب كان، فهو باطلٌ، فإنَّه لو كان مطلقُ الأُسلوب معجزا، لكان أُسلوب الشعر معجزا، وهكذا أُسلوب الخطب والرسائل، يلزمُ كونه معجزا، وإنْ عَنيْتُم أُسلُوبا خاصّا، وهو ما اختصّ به من البلاغة والفصاحة، فليس إعجازُه من جهة الأُسلوب، وإنّما وجهُ إعجازه الفصاحة والبلاغة كما سنوضّحه من بعد هذا عند ذكر المختار، وإنْ عنَيْتم بالأُسلوب أمرا آخرَ غير ما ذكرناه فمِنْ حقِّكم إبرازُه حتّى ننظُر فيه فنُظهر صحّته أو فساده.

وثانيها: أنّ الأُسلوب لا يمنعُ من الإتيان بأُسلوب مثله، فلو كان الأمرُ كما

1 - العلوي : الطراز (في أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز)، ج 3، ص 392-395.

زعمتموه، جازت معارضةُ القرآن بمثله، لأنَّ الإتيان بأُسلوب يماثله سهلٌ ويسيرٌ على كلّ أحد.

وثالثها: أنّه لو كان الإعجاز إنّما كان من جهة الأُسلوب لكان ما يحكى عن «مُسَيلمَة» الكذّاب معجزا وهو قوله: إنّا أعطيناك الْجَواهر، فصلِّ لربِّك وجاهر، وقوله: والطّاحِنات طَحْنا، والخابِزاتِ خبزا، لأنّ ما هذا حالُه مختصّ بأُسلوب لا محالة، فكان يكون معجزا، وأنّه محالٌ.

ومن وجهٍ رابعٍ وهو أنّه لو كان وجهُ إعجازه الأُسلوب، لما وقع التفاوت بين قوله تعالى، (ولَكُمْ في الْقِصاصِ حَياةٌ) (البقرة: 179) وبين قول الفصحاء من العرب (القَتْلُ أنفى للقتل) لأنّهما مستويان في الأُسلوب، فلمّا وقع التفاوت بينهما دلّ على بطلان هذه المقالة والله أعلم.

المذهب الثالث: قول من زعم أنّ وجه إعجازه إنّما هو خلوُّه عن المناقضة، وهذا فاسدٌ لأوجه.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقع بكلّ واحدة من سور القرآن، وقد يوجد في كثير من الخطب والشعر والرسائل، ما يكون في مقدار سورة خاليا عن التناقض، فيلزم أن يكون معجزا.

وأمّا ثانيا: فلأنّه لو كان الأمر كما قالوه في وجه الإعجاز، لم يكن تعجُّبُهم من أجْل فصاحته، وحسن نظمه، ولوجب أن يكون تعجُّبُهم من أجْل سلامته عمّا قالوه، فلمّا علمنا من حالهم خلاف ذلك بطَلَ ما زعموه.

وأمّا ثالثا: فلأنّ السلامة عن المناقضة ليس خارقا للعادات، فإنّه رُبّما أمكن كثيرا في سائر الأزمان، وإذا كان معتادا لم يكن العلمُ بخلُوِّ القرآن عن المناقضة والاختلاف معجزا، لِما كان معتادا، ومن حقّ ما يكون معجزا أن يكون ناقضا للعادة.

وأيضا فإنّا نقول: جعلُكم الوجهَ في إعجازه خلوُّه عن المناقضة والاختلاف ليس عِلْما ضروريّا، بل لابدّ فيه من إقامة الدلالة، فيجب على مَنْ قال هذه المقالة تصحيحُها بالدلالة، لتكون، مقبولةً، وهم لم يفعلوا ذلك.

المذهب الرابع: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز اشتمالُه على الأُمور الغيبيّة بخلاف غيره، وهذا فاسدٌ أيضا لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقعٌ بجميع القرآن، والمعلومُ أنّ الحِكَمَ والآداب وسائر الأمثال ليس فيها شيء من الأُمور الغيبيّة، فكان يلزم على هذه المقالة أن لا يكون معجزا وهو محال.

وأمّا ثانيا: فلأنّ ما قالوه يكون أعظم عذرا للعرب في عدم قدرتهم على معارضته، فكان من حقّهم أنْ يقولوا: إنّا متمكّنون من معارضة القرآن، ولكنّه اشتمل على مالا يمكنُنا معرفتهُ من الأُمور الغيبيّة، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة.

المذهب الخامس: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز هو الفصاحة، وفسّر الفصاحة بسلامةِ ألفاظه عن التعقيد الحاصل في مثل قول بعضهم:

وَقَبْرِ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرُ ....وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وهذا فاسدٌ لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ أكثر كلام الناس خالٍ عن التعقيد في الشعر، والخطب، والرسائل، فيلزم كونها معجزةً.

وأمّا ثانيا: فلأنّه لوكان الأمر كما زعموهُ لم يفترق الحالُ بين قوله تعالى: (وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ في الْبَحْرِ كالأعْلامِ. إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ. أوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثير)(الشورى: 32-34.) وبين قول من قال: وأعظمُ العلاماتِ الباهرة جَريُ السّفُن على الماء، فإمّا أن يريدَ هبوبَ الريح فتجري بها، أو يُريدَ سكونَ الريح فتَرْكُدَ على ظهْره، أو يُريد إهلاكُها بالإغراق بالماء لأنّ ما هذا حالهُ من المعارضة سالمٌ عن التعقيد، فكان يلزم أن يكون هذا الكلام معارضا للآية، لاشتراكها في الخفّة والبَراءة عن الثقَل والتعقيد.

ومن وجهٍ ثالث: وهو أنّه كان يلزم أن لا يقعَ تفاوت بين قوله تعالى: (ولَكُمْ فِى القِصاصِ حَياةٌ)(البقرة: 179.) وبين قول العرب (القتلُ أنفى للقتل)

لاشتراكهما جميعا في السلامة عن الثقل وهذا فاسدٌ.

المذهب السادس: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز إنّما هو اشتمالُه على الحقائق وتضمّنه للأسرار والدقائق التي لا تزال غَضَّةً طريَّةً على وجه الدهر، ما تَنالُ لها غايةٌ، ولا يوقف لها على نهاية، بخلاف غيره من الكلام، فإنّ ما هذا حالُه غيرُ حاصل فيه، فلهذا كان وجه إعجازه، وهذا فاسدٌ أيضا لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميّزا به لا يشاركه فيه غيره، وما ذكرتموه من هذه الخصلة فإنّها مشتركة، وبيانُه هو أنّا نرى بعض من صنّفَ كتابا في العلوم الإسلامية واعتَنى في قَبْصه[1] واختصاره، فإنّ مَن بَعْدَه لايزال يَجتني منه الفوائد في كلّ وقت ويستنبطها من ألفاظه وصرائحه كما نرى ذلك في الكتب الأُصولية والكتب الدينية والفقهيّة، وسائر علوم الإسلام، وإذا كان الأمر كما قلناه، وجب الحكم بإعجازها وهم لا يقولون به. **وأمّا ثانيا:** فلأنّ قوله تعالى: (وَإِلهكُمْ إِلهٌ واحِدٌ) ،(البقرة: 163.) وقوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ) ،(محمد: 19.) وقوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) (الإخلاص: 1) صريحة في إثبات الواحدانيّة لله تعالى بظاهرها وصريحها، وماعدا ذلك من المعاني لا يخلو حالُه إمّا أن يستقلّ العقلُ بدَرْكه أو لايَسْتقلُّ بدركه، فإن استَقَلَّ بدَرْكه فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام، فلا تفرقةَ بينه وبين غيره، وإن كان لا يَسْتَقلُّ العقل بدَرْكه، فذلك هو الأُمور الغيبيّة، وهي باطلة بما أسلفناه على من قال بها، فحصل من مجموع ماذكرناه هاهنا أنّه لا وجه لجعْل دلالته على الأسرار والمعاني وجها في إعجازه لأنّ غيره مشارك له في هذه الخصلة، وما وقعت فيه الشركة فلا وجه لاختصاصه وجعله وجها في كونه معجزا.

المذهب السابع: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو البلاغة، وفسّر البلاغة باشتماله على وجوه الاستعارة، والتشبيه، والفصل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والإضمار، والإظهار، إلى غير ذلك، وهؤلاء إن أرادوا بما ذكروه أنّه

---

[1] - في جمعه.

صار فصيحا بالإضافة إلى ألفاظه، وبليغا بالإضافة إلى معانيه، ومختصّا بالنظم الباهر، فهذا جيِّدٌ لا غُبارَ عليه كما سنوضّحه عند ذكر المختار، وإن أرادوا أنّه بليغ بالإضافة إلى معانيه دون ألفاظه، فهو خطأ، فإنّه صار معجزا باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعا، وغالبُ ظَنّي أنّ هذا المذهب يُحكى عن أبي عيسى الرماني.

المذهب الثامن: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو النظْمُ، وأراد أنّ نظمَه وتأليفه هو الوجهُ الذي تميّزَ به من بين سائر الكلام فهؤلاء أيضا يُقال لهم: ما تريدون باختصاصه بالنظم، فإن عَنَيْتُم به أنّ نَظمه هو المعجزُ من غير أن يكون بليغا في معانيه، ولا فصيحا في ألفاظه، فهو خطأ، فإنّ الإعجاز شاملٌ له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعا، وإن عَنيْتُمْ أنّه مختصٌّ بالبلاغة والفصاحة، خلا أنّ اختصاصه بالنظم أعجبُ وأدخَلُ، فلهذا كان الوجه في إعجازه فهذا خطأ، فإنّ مثل هذا لا يُدْركُ بالعقل، أعني تميُّزَه بحسن النظم عن حسن البلاغة والفصاحة، وأيضا فإنَّ ما ذكروه تحكُّمٌ لا مُستَنَد له عقلاً ولا نقلاً، وأيضا فإنّا نقولُ: هلْ يكون النظمُ وجها في الإعجاز مع ضمّ البلاغة والفصاحة إليه، أو يكون وجها من دونهما، فإن قالوا بالأوّل فهو جَيِّدٌ، ولكنْ لِمَ قَصَرُوه على النظم وحْدَه ولم يضمّوهما إليه، وإن قالوا: إنّه يكون منفردا بالإعجاز من دونهما، فهذا خطأ أيضا، فإنّ نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزا بحال.

المذهب التاسع: مذهب من قال: إنّ وجهَ إعجازه إنّما هو مجموع هذه الأُمور كلّها، فلا قولَ من هذه الأقاويل إلاّ هو مختصّ به، فلا جَرَم جعلنا الوجه في إعجازه مجموعها كلّها، وهذا فاسدٌ، فإنّا قد أبطلنا رأيَ أهل الصّرفة وزَيّفنا كلامهم، فلا وجه لعدّه من وجوه الإعجاز، وهكذا، فإنّا قد أبطلنا قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه اشتماله على الإخبار بالأُمور الغيبيّة، وأبطلنا قول أهل الأُسلوب وغيره من سائر الأقاويل، فلا يجوز أن تكون معدودة في وجوه الإعجاز، لأنّ الأُمور الباطلة لا يجوزُ أن تكون عِلَلاً للأحكام الصحيحة،

ومن وجهٍ ثانٍ وهو أنّ الفصاحة والبلاغة إذا كانتا حاصلتين فيه فهما كافيتان في الإعجاز، فلا وجه لعدّ غيرهما معهما.

المذهب العاشر: أن يكون الوجه في إعجازه إنّما هو ما تضمّنه من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كلّ سورة، وفي مبادئ الآيات، وفواصلها، وهذا هو الوجه السديدُ في وجه الإعجاز للقرآن كما سنوضّح القول فيه بمعونة الله تعالى. فهذا ما أردنا ذكره من المذاهب في الوجه الذي لأجله صار القرآن معجزا للخلق كلّهم.

المبحث الثالث: في بيان المختار من هذه الأقاويل.

والذي نختاره في ذلك ما عوّل عليه الجهابذةُ من أهل هذه الصناعة الذين ضربوا فيها بالنصيب الوافر، واختصّوا بالقدح المعلّى والسّهم القامر، فإنّهم عوّلوا في ذلك على خواصّ ثلاثة هي الوجه في الإعجاز.

الخاصّة الأُولى: الفصاحة في ألفاظه على معنى أنّها بريئةٌ عن التعقيد، والثّقَل، خفيفةٌ على الألسنة تجري عليها كأنّها السلسال، رِقَّةً وَصَفاءً وعذوبة وحلاوة.

الخاصّة الثانية: البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مَضْربِ كلّ مَثَلٍ، ومَساقِ كلّ قصّة، وخَبرٍ، وفي الأوامر والنواهي، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظِ، وغير ذلك ممّا اشتملت عليه العلوم القرآنيّة، فإنّها مَسُوقة على أبْلغ سياق.

الخاصّة الثالثة: جودةُ النظم وحسن السياق، فإنّك تراه فيما ذكرناه من هذه العلوم منظوما على أتمّ نظام وأحسنه وأكمله، فهذه هي الوجه في الإعجاز.

والبرهانُ على ما ادّعيناه من ذلك هو أنّ الآيات التي يُذكر فيها التحدّي واردةٌ على جهة الإطلاق ليس فيها تَحدٍّ بجهةٍ دون جهةٍ، لأنّه لم يذكر فيها أنّه تحدّاهم، لا بالبلاغة، ولا بالفصاحة، ولا بجودة النظم والسياق، ولا بكونه مشتملاً على الأُمور الغيبيّة، ولا لاشتماله على الأسرار والدقائق، وتضمّنه المحاسن والعجائب، ولا أشار إلى شيء خاصٍّ يكون مقصدا للتحدّي، وإنّما قال: بمثله، وبسورة، وبعشر سُوَر على الإطلاق. ثمّ إنَّ العرب أيضا ما

استفهموه عمّا يريد بتحدّيهم في ذلك، ولا قالوا ما هو المطلوب في تحدِّينا، بل سكتوا عن ذلك، فوجب أن يكون سكوتُهم عن ذلك لا وجه له إلاّ لما قد عُلم من اطراد العادات المقرّرة بين أظْهرهم أنّ الأمر في ذلك معلوم أنّه لا يقع إلاّ بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم، فإنّ المعلوم من حال الشعراء والخطباء وأهل الرسائل والكلام الواقع في الأنديةِ المشهودَة، والمحافل المجتمعة، أنّهم إذا تحدّى بعضُهم بعضا في شعْر، أو خطبةٍ، أو رسالة فإنّه لا يتحدّاه إلاّ بمجموع ما ذكرناه من هذه الأُمور الثلاثة ولم يُعَهَدْ قَطُّ في الأزمنة الماضية والآمادِ المتمادية، أنّ أحدا تحدّى أحدا منهم برقّةِ شعْره، ولا باشتماله على أُمور محجوبة، ولا بعدم التناقض فيها، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنّ تعويلهم في التحدّي إنّما هو على ما ذكرناه، فيجب حمل القرآن في الآيات المطلقة عليه، وفي ذلك حصولُ ما أردناه، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة عليها والانفصال عنها.

السؤال الأوّل منها: قد زعمتم أنّ وجه إعجاز القرآن إنّما هو الفصاحة، والبلاغة، والنظم. وحاصلُ هذه الأُمور كلّها إمّا أن تكون راجعة إلى مفردات الكلم، أو تكون راجعة إلى مركّباتها. ولا شك أنّ العرب قادرون على المفردات لا محالة، ولا شك أنَّ كلّ مَن قدَرَ على المفردات فهو قادرٌ على مركّباتها، فلو كان كما ذكرتمُوه لكان العرب قادرينَ على المعارضة، وهذا يدلُّ على أنّ وجه إعجازه ليس أمرا راجعا إلى البلاغة، والفصاحة، والنظم، وهذا هو المطلوب. **وجوابه** إنّما يكون بعد تمهيد قاعدة وهو أنّ التفاوتَ بين الكاتبين في الجوْدَة والكتابة إنّما يكون من جهة العلم بإحكام التأليف بين الحروف وتنزيلها على أحسن هيئة في الإيقاع، فَمنْ كان منهما أجود علما بإحكام التأليف كانت كتابته أَعْجَب، ومن كان عادما للعلم بما ذكرناه نقص إتّقانُ كتابته، فكلّ واحدٍ منهما قد أَحْرَزَ ما تحتاج إليه الكتابة من الآلات كالقلَم، والدَّواةِ، والقِرْطاس، واليدِ، وغير ذلك ممّا يكون شَرْطا في الكتابة، ولم يتميّز أحدهما عن الآخر إلاّ بما ذكرناه من العلم

بإحكام التأليف، وهكذا حال أهل الحرف والصناعات، فإنّهم كلّهم متمكّنون من أُصول الصناعات وما تحتاج إليها، كالصناعة للذّهَبيّات والفضّيّات، والحياكَةِ للديباجِ، فإنَّ تفاوتهم إنّما يظهر في ما ذكرناه لا غيرُ، فإذا عرفت هذا فالعربُ لا محالة قادرون على مفردات هذه الكلم الموضوعة، وقادرون على حسن التأليف لهذه الكلمات، لكنّهم غير قادرين على كلّ تأليف، فإنّ من التآليف مالا زيادة عليه في الإعجاب، وهو المعْجِزُ، ومنه ما تنقص رُتْبَتهُ عن ذلك، وليس معجزا، وعلى هذا يكون المعجزُ إنّما كان من جهة عدم العلم بإحكام تأليف هذه الكلمات، فقد ملكُوا القدرة على آحادها، وملكوا القدرة على نوع من تأليفها ممّا لم يكن معجزا، فأمّا ما كان معجزا من التأليف فلم يكونوا مالكين له، فحصل من مجموع ما ذكرناه، أنّ الإعجاز ليس إلاّ تأليف هذه الكلمات على حدّ لا غاية فوقه، فإلى هذا يرجع الخلافُ، ويحصل التحقّق بأنّ عجزهم إنّما كان من جهة عدم العلم بهذا التأليف المخصوص في الكلام. لا يقال: فحاصل هذا الجواب أنّ الله تعالى لم يخلق فيهم العلم بإحكام التأليف الذي يحتاج إليه في كون الكلام معجزا، وهذا قول بمقالة أهل الصّرفة، فإنّ حاصل مذهبهم هو أنّ الله تعالى سلَبَهم الداعي إلى معارضة القرآن، وأعْدم عنهم العلومَ التي لأجلها يقدرون على المعارضة، وأنتم قد زيّفتم هذه المقالةَ وأبطلتموها، فقد وقعتم فيما فررتم منه، لأنّا نقول هذا فاسدٌ فإنّا نقول إنّهم عادمون لهذه العلوم قبْلَ المُعْجز وبعْدَه، وأنّها غير حاصلة لهم في وقتٍ من الأوقات فلهذا استحال منهم معارضةُ القرآن كما قرّرناه من قبلُ، بخلاف مقالة أهل الصّرفة فإنّ عندهم أنّ علوم التأليف كانت حاصلة معهم قبلَ ظهور المُعْجز، لكن الله تعالى سلَبَهم إيّاها كما مرّ تقريره، فلهذا كان ما ذكرناه مخالفا لما قالوه.

السؤال الثاني: لو كانت الفصاحة هي الوجه في كون القرآن معجزا لَما كان فيه دلالة على صدق الرسول -ﷺ- وقد تقرّر كونه دالاّ على صدقه، فيجب أن لا يكون الوجه في إعجازه هي الفصاحة، بل الصّرفة كما تقول أصحابها،

أو وجْهٌ آخر غير الفصاحة، وإنّما قلنا: إنّه لو كان الوجه في إعجازه الفصاحة لَما كان فيه دلالةٌ على الصدق، فلأنّ الدلالة على الصدق إنّما تقع إذا كانت موجودةً من جهة الله تعالى إلاّ أنّه تعالى ليس فاعلاً للفصاحة من جهة أنّ الفصاحة المَرْجعُ بها إلى خُلوص الكلام من التعقيد، والبلاغةُ ترجعُ إلى مطابقة الكلام وحسن تأليفه، وهذه كلّها مقدورةٌ لنا، ولهذا بطل أن يكون الإعجاز حاصلاً بها، فإذن لابدّ من أن يكون وجه الإعجاز متعلّقا بقدرة الله تعالى، لأنّه هو المتولّي لصدق أنبيائه، فكلُّ ما كان من المعجزات لا يُقَدَّرُ كونه من جهته، فإنّه لا يكون فيه دلالة على صدق مَن ظهر عليه، وإنّما قلنا: إنّ فيه دلالةً على الصدق، وهذا ظاهر لا يمكن إنكاره، فإنّ القرآن منْ أبْهَر الأدلّة على صدق صاحب الشريعة - ﷺ - فلو كان وجهُ إعجازه هو الفصاحة لم يكن فيه دلالةٌ على الصدق، لأنّ الفصاحة والبلاغة المرجعُ بهما إلى انتظام الكلام على وجه مخصوص لا مزيد عليه، وما من وجهٍ من وجوه النظم إلاّ وهو مقدورٌ للعباد بكلّ حال، وهذا يُبطل كونَه دالاًّ على صدقه، وقد تقرّر كونه دليلاً على الصدق، فبطل كون إعجازه هو الفصاحة.

وجوابه أنّا قد قرّرنا أنّ الوجه في إعجازه هو الفصاحة والبلاغة مع النظم بما لا مَطْمَع في إعادتِه.

قولُه لو كانت الفصاحة وجها في إعجازه لما كان له دلالة على الصدق، قلنا: هذا فاسدٌ فإنّ النظْم وإن كان مقدورا لنا، لكنّه قد يقع على وجهٍ لا يمكنُ كونه مقدورا لنا، ولهذا فإنّ العلْم مقدورٌ لنا، والفعلُ من جنس العلوم، وقد استحال كونها مقدورة للعباد، لِما كانت واقعة على وجه يستحيل وقوعه في حقّ العباد، فإنَّ جنس الحركة مقدورٌ لنا، وحركة المرتعش وإن كانت من جنس الحركة، لكنّها لمّا وقعتْ على وجهٍ يتعذّرُ على العباد جاز الاستدلالُ بها على الله تعالى، فهكذا حال البلاغة، فإنّها وإن كانت من قبيل النظم والتأليف. وهو مقدور لنا، لكنّه لمّا وقع على وجهٍ يتعذّرُ تحصيلُه من جهتنا، كان دليلاً على الصدق من هذه الجهة، فحصل من مجموع ما ذكرناه أنّ القرآن دالٌّ على

صدق مَنْ ظهر على يده، وما ذاك إلاّ لكونه مختصّا بالوقوع من جهة الله تعالى مع كون جنسه من مقدور العباد، وفيه دلالة على صدْقه كما نقوله في سائر المعجزات الدالّة على صدقه، وإن لم يكن لها تعلقٌ بمقدور العباد، كإطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير، ونبوع الماء من بين أصابعه، إلى غير ذلك من المعجزات الباهرة له -ﷺ-.

السؤال الثالث: هو أنّ الصحابة– رضي الله عنهم– لما اهتمّوا بجَمْع القرآن بعد الرسول -ﷺ- وكانوا يطلبون الآية والآيتين، ممّن كان يحفظها منهم، فإن كان الراوي مشهورَ العدالة قَبلُوها منه، وإنْ كان غير مشهور العدالة لم يقبلوها منه، وطلبوا على ذلك بَيِّنَةً فلو كان الوجه في إعجازه هو الفصاحة كما زعمتم، لكان متميّزا عن سائر الكلام وكان لا وجه للسؤال، لِما يظهر من التمييز، وفي هذا دلالة على أنّ وجه إعجازه هو الصرفة، أو غيرها، دون الفصاحة.

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلاً: فلأنّا لا نسلّم أنّ الرسول -ﷺ- تَوَفّاهُ الله تعالى ولم يكن القرآن مجموعا، بل ما ماتعليه السلام إلاّ بعد أن جَمَعه جبْرِيلُ، وهذه الرواية موضوعة مختلقةٌ لا نسَلّمها، ولهذا قال لمّا نَزَل صَدْرُ سورة بَراءَة: «أثبتوها في آخِرِ سُورَة الأَنفال» فما قالوه منكَرٌ ضعيفٌ.

وأمّا ثانيا: فلأنّ الاختلافَ إنّما وقع في كتبِ القرآن وجمْعه في الدّفاتر، فأمّا جَمْعُه فممّا لم يقع فيه تردّد أنّه كان في أيّام الرّسول -ﷺ- وإنّما كان مجموعا في صدُور الرجال، فأمّا كَتْبه فلعلّه إنّما كان بعد الرسول -ﷺ- ولهذا فإنّ المصاحف قد كانت كثُرت بعد الرسول -ﷺ- فلمّا وقع فيها الخلافُ، فَعَلَ «عُثمانُ» في خلافته ما فَعَلَ مِنْ مَحوِها كلّها، وكَتْبِه مصحَفَه الذي كتَبَه.

السؤال الرابع: هو أنّ ابنمسعود – رضي الله عنه – اشتبه عليه الفاتحة والمعوّذتان، هل هنّ من القرآن أو لا، فلو كان الوجه في الإعجاز هو الفصاحة لكان لا يلتبس عليه شيءٌ من ذلك ..

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ ابنمسعود لم يُنكر كونها نزلت من اللوح المحفوظ، وإنّ جبريل أتى بها من السماء، فهنّ قرآنٌ بهذه المعاني، وإنّما أنكَر كتبها في المصاحف وقال هنّ وارداتٌ على جهة التبرّك والاستعاذة، فلهذا كنّ قرآنا بما ذكرناه من المعاني، ولم يكنَّ قرآنا لورودها لهذا المقصد الخاصّ، وهذا في التحقيق يؤولُ إلى العبادة. والمقاصد المعنوية متفقٌ عليها كما ترى.

وأمّا ثانيا: فلأنّ هذا رَأيٌ لابنمسعود فلا يكون مقبولاً، والحقُّ في المسألة واحدٌ، فخطؤُه فيها كخطأ غيره ممّن خالَفَ دلالةً قاطعةً، ولنقتصر على هذا القدر من الأسئلة ففيه كفاية لغرضنا، واستقصاءُ الكلام على مثل هذه القاعدة إنّما يليق بالمباحث الكلاميّة والمقاصد الدينيّة، وإنْ نَفَّس اللهُ لنا في المُهْلَة، وتراخَتْ مُدَّة الإمهال، ألَّفْنا كتابا نذكر فيه كيفيّة دلالة المعجز على صدق مَنْ ظهر على يده، ونُجيبُ فيه عن شكوك المخالفين بمعونة الله تعالى، فالنيّة صادقة في ذلك إن شاء الله تعالى.[1]

10 – وردَّ سعدالدين التفتازاني(مسعود بن عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي سعيد الغازي) (722هـ – 792هـ) الصرفة [2]

1 – الطراز، ج 3، ص 367–413.دار الكتب العلمية ، بيروت . وقد أوردنا كلامه بطوله، لاشتماله على فوائد جمّة جليلة أحببنا إثباتها وعرضها على القارئ الكريم.

2 – الإمام **سعد الدين التفتازاني** : هو سعد الملة والدين مسعود بن عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي سعيد الغازي التفتازاني، الفقيه المتكلم النظار الأصولي النحوي البلاغي المنطقي. ولد بقرية قرية تفتازان من مدينة نسا في خراسان في صفر سنة 722 هـ في أسرة عريقة في العلم حيث كان أبوه عالماً وقاضياً وكذا كان جده ووالد جده من العلماء. كان السعد التفتزاني إماما من أئمة التحقيق والتدقيق فقد انتهت إليه رئاسة العلم في المشرق في زمنه وفاق الأقران، وبرز في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير وعلم الكلام وغيرها من العلوم، وكان يفتي بالمذهبين الشافعي والحنفي وانتهت إليه رياسة الحنفية في زمانه حتى ولي قضاء الحنفية وانتفع الناس بعلمه وتصانيفه، وكان مُلمًّا بالفارسية أيضًا وله نظم جيد باللغتين. ألف السعد التفتزاني كتبًا كثيرة تدل على علو كعبه وغزير علمه حتى غدت كتبه في علم الكلام والأصول والمنطق والبلاغة مرجع الباحثين ومنتهى طلب المتخصصين وأضحت هي كتب الدرس في جل المعاهد والمدارس العلمية، فاشتهرت تصانيفه في الأرض وانتشرت بالطول والعرض، ومن أهم مصنفاته: شرح تصريف الزنجاني ، وإرشاد الهادي. وهو كتاب في

وقال: قد استدلّ على بطلان الصرفة بوجوه:

الأوّل: أنّ فصحاء العرب إنّما كانوا يتعجّبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته في جزالته، ويرقصون رؤوسهم عند سماع قوله تعالى: «وقيلَ يا أرضُ ابْلَعي مَاءكِ...» الآية(هود: 44) لذلك، لا لعدم تأتّي المعارضة مع سهولتها في نفسها!

الثاني: أنّه لو قصد الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلوّ طبقته...

الثالث: قوله تعالى: (قُلْ لَئِن اجْتَمَعَت الإنْس والجنّ .. الآية) (الإسراء:88) فإنّ ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدّي إنّما يحسن فيما لا يكون مقدورا للبعض ويتوهّم كونه مقدورا للكلّ فيقصد نفي ذلك...(1)

11- رد الشريف الجرجاني (السيد علي بن محمد تـ 812هـ)(2) شبه القادحين في إعجاز القرآن فقال : – (وأما القول بالصرفة فلوجوه ، الأول :

النحو ، وهو متن مختصر على غرار الكافية لابن الحاجب. والشرح المطول على تلخيص المفتاح. ويعرف بـ"المطول" وغيرها . اختلف في سنة وفاته والمرجح أنها 791هـ أو 792هـ الموافق 17 من يناير عام 1390م في سمرقند ودفن بها ثم نقل إلى سرخس فدفن بها يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من نفس السنة. انظر : الدرر الكامنة 350/4). وشذرات الذهب (6 /319––322).، والبدر الطالع (2/ 303– 305).

1 – شرح المقاصد، ج 5، ص 31.

2 – الشريف الجُرجاني (740– **816** هـ / 1339 –1413م) هو علي بن محمد بن علي الشريف الحسيني الجرجاني المعروف بسيد مير شريف، فلكي وعالم حياة وفقيه وموسيقي وفيلسوف ولغوي. عاش في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي – الخامس عشر الميلادي). ولد الجرجاني في تاجو قرب أستراباذ عام 740 هـ / 1339م، وقد تلقى العلم على شيوخ العربية، واهتم اهتماما خاصا بتصنيف العلوم، وكذلك بعلم الفلك، عاش معظم حياته في شيراز، وعندما استولى تيمورلنك على شيراز عام 789هـ /1387م انتقل الجرجاني إلى سمرقند وظل هناك حتى توفي تيمورلنك عام 807هـ/1404م فعاد إلى شيراز وتوفى بها عام 816 هـ / 1413م.من المعروف أن للجرجاني أكثر من خمسين مؤلفا في علم الهيئة والفلك والفلسفة والفقه ولعل أهم هذه الكتب: كتاب **التعريفات** وهو معجم

الإجماع قبل هؤلاء) القائلين بها (على أن القرآن معجز ، و)على هذا القول يكون المعجز هو الصرف لا القرآن ، ألا ترى أنه (لو قال : أنا أقوم وأنتم لا تقدرون عليه ، وكان كذلك ، لم يكن قيامه معجزا ، بل عجزهم عن القيام) ، فهذه المقالة خارقة لإجماع المسلمين السابقين على أن القرآن معجزة لرسول الله دالة على صدقه . (الثاني): إنهم (لو سلبوا القدرة) -كما قال به الشريف المرتضى - لعلموا ذلك من أنفسهم ، و(لتناطقوا به عادة ولتواتر) عنهم(ذلك) التناطق ، لجريان العادة بالتحدث بخوارق العادات ، لكنه لم يتواتر قطعا ، (فإن قيل : إنما لم يتذاكروه) ولم يظهروه (لئلا يصير حجة عليهم)، ملجئة لهم إلى الإنقياد مع أنهم كانوا حراصا على إبطال حجته ، وانتكاس دعوته ، فلا يتصور منهم حينئذ إظهار ما علموه من أنفسهم ،(قلنا : إن كان ذلك) ، أي سلب القدرة عنهم (موجبا لتصديقه) إيجابا قطعيا ، (امتنع عادة تواطؤ الخلق الكثير على مكابرته) ، والإعراض بالكلية عن مقتضاه ، (وإن لم يكن موجبا لتصديقه بل احتمل السحر وغيره) كفعل الجن (مثلا لتناطقوا به ، وحملوه عليه) ، وقالوا : قد سلب عنا قدرتنا ، إما بالسحر ، وإما بغيره ، فلا يلزمهم بإظهاره صيرورته حجة عليهم (الثالث): إنه لا يتصور الإعجاز بالصرفة ، وذلك لأنهم

يتضمن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الفنون والعلوم حتى عصره، وهذا المعجم من أوائل المعاجم الاصطلاحية في التراث العربي، وقد حدد فيه الجرجاني معاني المصطلحات تبعا لمستخدميها وتبعا للعلوم والفنون التي تستخدم فيها، وجعل تلك المصطلحات مرتبة ترتيبا أبجديا مستفيدا في ذلك من المعاجم اللغوية حتى يسهل التعامل معه لكافة طالبيه، وهذا المعجم من المعاجم الهامة التي لا نستطيع الاستغناء عنها إلى الآن، وقد أشاد به كافة المستشرقين لأهميته الدلالية والتاريخية. ألَّف الجرجاني قرابة مائة مؤلف بين كبير الحجم وصغيره في علوم المعقول والمنقول كعلم الكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والمناظرة والصرف والنحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه وأهمها كما يلي: شرح المواقف. وحاشية على شرح مختصر المنتهى. وشرح العقائد العضدية. وشرح الأسماء الحسنى. وغيرها الكثير من الكتب والمؤلفات القيمة . انظر : الاعلام للزركلي ، **5**: **159** –**160**. والبدر الطالع ، **1** : **488**– 490 .

(كانوا) حينئذ (يعارضونه بما اعتيد منهم) من مثل القرآن الصادر عنهم (قبل التحدي به) ، بل قبل نزوله ، (فإنهم لم يتحدوا بإنشاء مثله بل بالإتيان به) فلهم بعد الصرفة الواقعة بعد التحدي ، أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل الصرفة](1)

12- قرر السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر تـ 911هـ)(2) بطلان مذهب الصرفة ، فقال: : (زعم النظام أن إعجازه بالصرفة ، أي

---

1 – شرح المواقف : ج8/ ص 249 .(ما بين القوسين من كلام الإيجي ، وما عداه فهو للشريف الجرجاني)

2 - **جلال الدين السيوطي:** أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري الأسيوطي، ولد بمدينة القاهرة في شهر رجب سنة ((القاهرة 849 هـ/1445 م)، ونسب إلى أسيوط –مدينة بصعيد مصر– لكونها بلد أبيه التي رحل منها إلى القاهرة لدراسة العلم. من كبار علماء المسلمين. رحل أبوه من اسيوط لدراسة العلم وهو يعتز بها وبجذوره واسمه عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري الأسيوطي، وكان سليل أسرة أشتهرت بالعلم والتدين، وقد توفي والد السيوطي ولابنه من العمر ست سنوات، فنشأ الطفل يتيمًا، وأتجه إلى حفظ القرآن، فأتم حفظه وهو دون الثامنة، ثم حفظ بعض الكتب في تلك السن المبكرة مثل : العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك، فاتسعت مداركه وزادت معارفه. وكان السيوطي محل العناية والرعاية من عدد من العلماء من رفاق أبيه، وتولى بعضهم أمر الوصاية عليه، ومنهم الكمال بن الهمام الحنفي أحد كبار فقهاء عصره، وتأثر به الفتى تأثرًا كبيرًا خاصة في ابتعاده عن السلاطين وأرباب الدولة. وكان السيوطي ممن سافر في رحلات علمية ليلتقي بكبار العلماء، فسافر إلى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب وتشاد ورحل إلى الحجاز وجاور بها سنة كاملة، وشرب من ماء زمزم، ليصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني. ثم تجرد للعبادة والتأليف عندما بلغ سن الأربعين.ألف جلال الدين السيوطي عددا كبيرا من الكتب والرسائل إذ يذكر ابن إياس في "تاريخ مصر" أن مصنفات السيوطي بلغت ست مائة مصنف، منها المجلدات الكبيرة ومنها الرسالة القصيرة ذات الورقة أو الوريقات. وقد ألف في طيف واسع من المواضيع تشمل التفسير والفقه والحديث والأصول والنحو والبلاغة والتاريخ والتصوف والأدب ومن أشهرها : الجامع الكبير؛ الجامع الصغير في أحاديث النذير البشير؛ الإتقان في علوم القرآن؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور؛ تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك؛ الخصائص والمعجزات النبوية؛ طبقات الحفاظ؛

أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدورا لهم ، لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد بدليل : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن .. الآية)(سورة الإسراء ، آية / 88 .) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة ، لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره ، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة إعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى ، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ؟ وأيضا فيلزم من القول بالصرفة : زوال إعجازه بزوال زمن التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة : أن معجزة الرسول العظمى باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن .) [1]

13- ورفض القول بها العلامة الحجة محمد حسين آل كاشف الغطاء (1294 هـ - 1373هـ) (2)

طبقات المفسرين؛ الأشباه والنظائر وهما كتابان باسم واحد أحدهما في اللغة، والثاني في فروع الشافعية؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة؛ الفريدة، وهي ألفية في النحو، وله ألفية أخرى في مصطلح الحديث؛ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة؛ همع الهوامع.وغيرها .. توفي الإمام السيوطي في منزله بروضة المقياس على النيل في القاهرة في 19 جمادى الأولى 911 هـ، الموافق 20 أكتوبر 1505 م، ودفن خارج باب القرافة في القاهرة، ومنطقة مدفنه تعرف الآن بمقابر سيدي جلال نسبة إليه، وقبره معروف هناك.انظر : مصطفى الشكعة: جلال الدين السيوطي . مطبعة الحلبي 1401هـ، 1981م. وعبد الحفيظ فرغلي القرني: الحفاظ جلال الدين السيوطي . سلسلة أعلام العرب (37) . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . 1990.

1 - السيوطي : الإتقان ، ج4/ ص6-7 . .

2 - **محمد حسين آل كاشف الغطاء** هو عالِم شيعي ولد في مدينة النجف الأشرف سنة 1294 هـ / 1876م. وهو من عائلة علمية عريقة شاركت مشاركة فعالة في صنع تاريخ النجف العلمي، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل مالك الأشتر النخعي، وبالتالي إلى قبيلة النخع اليمانيه الاصل وفرعها في العراق تعرف بعشيره بني مالك إحدى القبائل العربية المعروفة. وكان الشيخ كاشف الغطاء خطيباً، بارعاً، يستذوق الشعر. له أبيات في أسباب تخلف المسلمين، تدل

إذ قال العلاّمة كاشف الغطاء . بعد إبطال القول بالصدفة بشأن الأنبياء– عليهمالسلام – بأن اتّفق لهم العلم بأسباب سحر لم يعثر عليه سحرة عصرهم، وأنّ هذا يشبه القول بأنّ وجود العالم بالصدفة والبخت والاتفاق لاعن صنيع صانع ،وتدبير واضع ، قال: كما اتضح من جميع ذلك منتهى فساد القول بأنّ إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته، بل بالحجز عنه والصرفة دونه. إن ذلك إلاّ رأي عازب، وقول كاذب، قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظّا، ولا حصّل من شرائف حقائقها ومعانيها إلاّ حكاية ولفظا، فمذ ضايقه العجز والجهالة، لجأ إلى هذه المقالة، وضلّ يخبط في أمثال هذه الضلالة. ولست أرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حقّ، يدعو إلى توفّر العناية في شأنها، وإيضاح بطلانها، لاسيّما وكلّ من عنى بهذا الشأن ، وتصدّى لعلم بلاغة القرآن، قد شنّع على هذا القول وبالغ في بطلانه وإحالته ، على أنّ من نسب إليه ذلك لم ينقل عنه الاستناد إلى حجّة ولا ضعيفة، والتعويل على شبهة ولاسخيفة، وإنّما هو رأي رآه، أو احتمال أبداه، والسداد عزيز ، والصواب معوز ، إلا بتأييد من الله ولطف منه ، وإليه نرغب في ذلك ، فإنه منتهى الرغبة ، ومحط نجاح كل حاجة ، وهو أرحم الراحمين (1) .

14 – وردها السيد أبو القاسم الخوئي : (ت 1413هـ)(2) – من

على مدى براعته في نظم الشعر، **وله مؤلفات عديدة منها** : المثل العُليا في الإسلام لا في بحمدون، وأصل الشيعة وأُصولها..وغيرها .

توفي صباح ليلة الاثنين 18 ذي القعدة 1373هـ، ودفن بمقبرة وادي السلام في مدينة

1 – الدين والإسلام، ج 2، ص 137.

2 - **و القاسم الخوئي:** أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم تاج الدين الموسوي الخوئي (1899 – 1992م). هو مرجع دين شيعي إيراني ، كان يترأس الحوزة العلمية بمدينة النجف بالعراق، وكان مرجعاً وزعيماً لملايين الشيعة الاثنى عشرية في العراق وإيران والخليج وغيرها من المناطق.ترأس الحوزة العلمية في أشدّ مراحلها حساسية منذ تأسيسها عام 449 هـ على يد الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، استلم الرئاسة في فترة نظام الحكم البعثي، ووقت الثورة الإسلامية

علماء الشيعة الإمامية – : بعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن ، وتحدث عن بعض الأوهام حول إعجاز القرآن وقام بتفنيدها ، قال : (قالوا إن العارف باللغة العربية ، قادر على أن يأتي بمثل كلمة من كلمات القرآن ، وإذا أمكنه ذلك أمكنه أن يأتي بمثل القرآن ، لأن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد . الجواب :

إن هذه الشبهة لا تليق بالذكر ، فإن القدرة على الإتيان بمثل كلمة من كلمات القرآن ، بل على الإتيان بمثل جملة من جملاته ، لا تقتضي القدرة على الإتيان بمثل القرآن ، أو بمثل سورة من سوره ، فإن القدرة على المادة ، لا تستلزم القدرة على التركيب ، ولهذا لا يصح لنا أن نقول : إن كل فرد من أفراد البشر قادر على بناء القصور الفخمة ، لأنه قادر على وضع آجرة في البناء ، أو نقول : إن كل عربي قادر على إنشاء الخطب والقصائد ، لأنه قادر على أن يتكلم بكل كلمة من كلماتها ومفرداتها، وكأن هذه الشبهة هي التي دعت(النظام) وأصحابه ، إلى القول بأن إعجاز القرآن بالصرفة ، وهذا القول في غاية الضعف :

أولا : لأن الصرفة التي يقولون بها ، إن كان معناها : أن الله قادر على أن يقدر بشرا على أن يأتي بمثل القرآن ، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من

بإيران، مما جعل النظام البعثي يحس بالخطر المباشر من هذه الثورة، طالبت السلطة الخوئي بأن يصدر فتوى يعارض فيها ثورة الخميني، ولكن نتيجةً لرفضه تعرض للكثير من المضايقات على يد النظام البعثي، وفي عام 1980م عمدت السلطة لتفجير السيارة التي كان يتنقل بها السيد إلى مسجد الخضراء، ولكن نجا من حادث الانفجار بأعجوبة بالغة، إضافة لاغتيال العديد من طلاب العلم من النجف وتسفير غير العراقيين منهم إلى بلدانهم، كما أعدمت جملة من تلامذته وعلى رأسهم محمد باقر الصدر الذي أغتيل في عام 1980 لمعارضته لنظام حزب البعث. نال درجة الاجتهاد في فترة مبكرة من عمره وشغل منبر الدرس لفترة تمتد إلى أكثر من سبعين عاما. مؤلفاته عديدة منها : أجود التقريرات.والبيان. ونفحات الإعجاز. ومعجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة. موسوعة في علم الرجال تقع في أربع وعشرين مجلداً ، وغيرها . توفي السيد أبو القاسم الخوئي في العراق في مدينة النجف سنة 1992م. أُنظر: محمد أمين نجف، سيرة وحياة الإمام الخوئي: 11. مركز آل البيت العالمي للمعلومات .

جميع البشر ، ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح ، ولكنه لا يختص بالقرآن ، بل هو جار في جميع المعجزات . وإن كان معناها : أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن ، ولكن الله صرفهم عن معارضته ، فهو واضح البطلان ، لأن كثيرا من الناس تصدوا لمعارضة القرآن ، فلم يستطيعوا ذلك ، واعترفوا بالعجز .

ثانيا : لأنه لو كان إعجاز القرآن بالصرفة ، لوجد في كلام العرب السابقين مثله ، قبل أن يتحدى النبي البشر ، ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن ، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر ، لكثرة الدواعي إلى نقله ، وإذ لم يوجد ولم ينقل ، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازا إلهيا ، خارجا عن طاقة البشر .) [1]

15 – **وردها كذلك الإمام مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي :** (1298 هـ- 1356 هـ الموافق 1 يناير 1880 – 10 مايو 1937 م) [2]

---

1 – علوم القرآن عند المفسرين ، مركز الثقافة والمعارف القرآنية التابع لمكتب الإعلام الإسلامي –إيران . ج2/ ص 542-543 ، نقلا عن تفسير البيان ج1/ ص 51- 114

2 – **مصطفى صادق الرافعي :** ولد في بيت جده لأمه في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية في أول وعاش حياته في طنطا. و لقب بمعجزة الأدب العربي تولى والده منصب القضاء الشرعي في كثير من أقاليم مصر وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية. أما والدة الرافعى فكانت سورية الاصل كأبيه وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجر تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، واصله من حلب، وكانت اقامته في بهتيم من قرى محافظة القليوبية.
ولد مصطفى صادق الرافعي في يناير سنة **1880** أرادت أمه أن تكون ولادته في بيت أبيها في قرية بهتيم. دخل الرافعى المدرسة الابتدائية في دمنهور حيث كان والده قاضيا بها وحصل على الشهادة الابتدائية بتفوق ثم أصيب بمرض يقال انه التيفود أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصابا في أذنيه, واستفحل به المرض حتى فقد سمعه نهائيا في الثلاثين من عمره. لم يحصل الرافعى في تعليمه النظامى على أكثر من الشهادة الابتدائية. مثل العقاد في تعليمه، فكلاهما لم يحصل على شهادة غير الشهادة الابتدائية. كذلك كان الرافعى مثل طه حسين صاحب عاهة دائمة هي فقدان البصر عند طه حسين وفقدان السمع عند الرافعى ومع ذلك فقد كان الرافعى مثل زميله طه حسين من اصحاب الارادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات، وإنما

اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد، وتعلم على يد والده.
كتب الإمامُ محمد عبده إلى الرافعي قال : «ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي، زاده الله أدباً.. لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضَمِن لي قلبُكَ، لا أقارضك ثناء بثناء؛ فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكني أَعُدك من خُلَّص الأولياء، وأُقدم صفك على صف الأقرباء.. وأسأل اللهَ أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل، وأن يُقيمَك في الأواخر مقامَ حَسَّانٍ في الأوائل، والسلام».
وقال الزعيم مصطفى كامل : «سيأتي يوم إذا ذُكر فيه الرافعيُّ قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان».
وقال واصفاً إياه السيدُ محمد رشيد رضا منشئُ مجلة «المنار»: «الأديب الأروع، والشاعر الناثر المبدع، صاحب الذوقِ الرقيق، والفهمِ الدقيق، الغواص على جواهر المعاني، الضارب على أوتار مثالثها والمثاني».
وقال عنه الأديبُ عباس محمود العقاد بعد وفاة الرافعي بثلاث سنين: «إن للرافعي أسلوباً جزلاً، وإن له من بلاغة الإنشاء ما يسلكه في الطبقة الأولى من كُتَّاب العربية المنشئين».
وقد قال قبلُ (قبل أن تدور رحى الحرب بينهما ببضع عشرة سنة): «إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثلُه لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها» .
وخَطَّ شكيب أرسلان كلمةً رائعة. عنونها بـ«ما وراء الأكمة»، صدرها بقوله عن الرافعي: «حضرة الأستاذ العبقري، نابغة الأدبِ، وحجة العربِ».
وقال عنه المُحَدِّث أحمد محمد شاكر: «إمام الكُتَّاب في هذا العصرِ، وحجة العربِ».
له مؤلفات عديدة ، منها : تاريخ آداب العرب (ثلاثة أجزاء)، صدرت طبعته الأولى في جزأين عام 1329 هـ، 1911 م. وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق محمد سعيد العريان وذلك عام 1359 هـ الموافق لعام 1940 م.و إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (وهو الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب العرب)، وقد صدرت طبعته الأولى باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عام 1928 م. ورسائل الرافعي، وهي مجموعة رسائل خاصة كان يبعث بها إلى محمود أبي رية، وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما. وتحت راية القرآن، مقالات الأدب العربي في الجامعة، والرد على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين. و على السفود، وهو رد على عباس محمود العقاد. ووحي القلم، (ثلاثة أجزاء) وهو مجموعة فصول ومقالات وقصص كتب المؤلف أكثره لمجلة الرسالة القاهرية بين عامي 1934– 1936 م. وديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى عام 1900 م. وغبرها .
في يوم الاثنين العاشر من مايو لعام 1937 استيقظ الرافعي لصلاة الفجر، ثم جلس يتلو القرآن، فشعر بحرقة في معدته، تناول لها دواء، ثم عاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض

وكلمة أخيرة قالها الأُستاذ الرافعي: فذهب شيطان المتكلّمين أبوإسحاق النظّام إلى أنّ الإعجاز كان بالصرفة، وهي أنّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة... قلنا: وكأنّه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن. وهذا الذي يروونه عنه أحد شطرين من رأيه، أمّا الشطر الآخر فهو الإعجاز إنّما كان من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية والآتية. وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أنّ الله سلبهم العلوم.. التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن. فكأنّه يقول: إنّهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأُسلوب ولا يستطيعون ماوراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم... وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى. غير أنّ النظّام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتّى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولَسَن وحسن تصرّف... وقد جاء رأيه في مذهب الصرفة دون قدره، بل دون علمه، بل دون لسانه... وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه، لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنّهم قد عرفوا! وإلاّ فإنّ من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعد قادر عليه مقرن له، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلاّ كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة. ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزا، وقد يعتريه السأم ويتخوّنه الملال، فينصرف عن الشيء وهُو لَهُ مطيق، وذلك ليس أحقّ بأن يسمّى عجزا من أن يسمّى تهاونا، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل ثقة. وعلى الجملة

وسار، فلما كان بالبهو سقط على الأرض، ولما هب له أهل الدار، وجدوه قد أسلم الروح، وحُمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في طنطا. مات مصطفى صادق الرافعي عن عمر يناهز 57 عاماً. انظر : حياة الرافعي, محمد سعيد العريان.

فإنّ القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: «إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر»(المدّثّر: 24) وهذا زعم ردّه الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العمى «أفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ» (الطور: 15) فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد...(1)

16- وردها شيخ مشايخنا الزرقاني (محمد عبد العظيم تـ 1948 م) (2): وقال تحت عنوان شبهة القول الصرفة :- (ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة ، أي : صرف الله العرب عن معارضته ، على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية ، وضربوا لذلك مثلا ، فقالوا : إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الإختيارية ، ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعده همته ، وثبط عزيمته ، وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه ، فعطل آلاته ووسائله ، وعاق قدرته قهرا عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه ، وتوجه إرادته إليه ، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن ، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة ، بل لواحد من ثلاثة :

أولها : أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم .

ثانيها : أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة ، فلم تتعلق بها إرادتهم ، ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي .

---

1 – مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن، ص 144-146.

2 – **محمد عبد العظيم الزرقاني** من علماء الأزهر بمصر .من أهالي الجعفرية في المحافظة الغربية من مصر. ونسبته إلى زرقان وهي بلدة تابعة لمحافظة المنوفية. ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة في عام 1367 هـ = 1948 م. من كتبه: مناهل العرفان في علوم القرآن. وبحث في الدعوة والإرشاد. انظر :

خيرالدين الزركلي: الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت 1990

ثالثها : أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرتهم البلاغية ، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها . بهذا التوجيه أو نحوه ، يعزى القول بالصرفة إلى : أبي إسحق الإسفراييني من أهل السنة ، والنظام من المعتزلة ، والمرتضى من الشيعة .
وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها ، أو التمست لهم ، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجئ من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم ، بل جاءت على الفرضين الأولين ، من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة ، ولو أنهم حاولوها لنالوها ، وجاءت على الفرض الأخير ، من ناحية عجزهم عنها بسبب خارجي عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا ، ذلك المانع هو : حماية الله لهذا الكتاب ، وحفظه إياه من معارضة المعارضين ، وإبطال المبطلين . ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ،لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه وبعد أن ذكر الزرقاني شبه القائلين بالصرفة ، أخذ في تفنيد شبههم فقال : وهذا القول بفروضه التي افترضوها ، أو بشبهاته التي تخيلوها ، لا يثبت أمام البحث ، ولا يتفق والواقع .
أما الفرض الأول : فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر ، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ، ودوافعها كانت ماثلة متآخذة ، وذلك لأدلة كثيرة :
منها : أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه ، ثم سجل العجز عليهم ، وقال بلغة واثقة : إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ، ولن يفعلوا ، ولو ظاهرهم الإنس والجن ، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ، ولو كانوا أجبن خلق الله .؟
ومنها : أن صناعتهم البيان ، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام ، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة .؟
ومنها : أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم ، وهي عقائدهم

المتغلغلة فيهم ، وعوائدهم المتمكنة منهم ، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ..؟ ما دامت المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا **وأما**

الفرض الثاني : فينقضه الواقع التاريخي أيضا ، ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء ، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، ونالت منالها من عزائمهم ، فهبوا هبة رجل واحد ، يحاولون القضاء على دعوة القرآن ، بمختلف الوسائل ، فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه ولم يدعوا بابا إلا دخلوه . لقد آذوه ، وآذوا أصحابه ، فسبوا من سبوا ، وعذبوا من عذبوا ، وقتلوا من قتلوا . ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يزوجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر . ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة ، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية ، منها : أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمرا دونه ، وأن يتوجوه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا ، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن . كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به . ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم ، فيعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة ، فأبى أيضا

ولقد اتهموه – ﷺ – بالسحر ، وأخرى بالشعر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة ، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم فيبهتونه ، ويكذبونه أمام من لا يعرفونه ، ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم . ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم ، وأمره بالهجرة من بينهم . ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجره ، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة ، منها سبع وعشرون غزوة ، وثمان وأربعون سرية فهل يرضى عاقل لنفسه

أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ، ونبي القرآن ، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل ، زاهدين في النزول إلى هذا الميدان .؟

وأما الفرض الثالث : فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته ، اقتناعا بإعجازه ، وعجزهم الفطري عن مساجلته ، ولو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها ، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم ، ولكان هذا مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك في الناس ، ليلتمسوا لأنفسهم العذر ، وليقللوا من شأن القرآن في ذاته ، ولعمدوا إلى كلامهم القديم ، فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن ، يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه ، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله ، ولأمكننا نحن الآن ، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر ، أن يتبينوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن ، وكل هذه اللوازم باطلة ، فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة ..) [1]

---

1 - الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2- ص 310- 315(باختصار يسير) . بل شكك الزرقاني في نسبة الصرفة إلى هؤلاء الأعلام من العلماء ، فقال : (أشك كثيرا في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ، ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم أقرب إلى العقول ، وأقوى في الدليل ، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم ، ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله ، وعلى أصحابه ، وعلى الأئمة العلماء ، فلم لا يكون هذا منه ..؟) (انظر : مناهل العرفان : ج2: 315 . وشكه – رحمه الله – في غير محله ، فقد كان الإمام مالك وهو يلقي دروسه في المسجد النبوي : كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترد إلا صاحب هذا القبر .. فهو المعصوم ، أما العلماء فكفاهم نبلا أن تُعد أخطاؤهم .

17 – وردها العلامة محمد الطاهر بن عاشور (تـ 1973م)[1] في المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن ، فقال :

[لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام ، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم ، فرجعت دونها حسرى ، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزرا ، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن ، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل وموردها للمعلول والناهل . ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه والتفرقة بين حقيقته ومجازه . إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة للصنع ، ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله .

قال أبو يعقوب السكاكي في كتاب " المفتاح " : واعلم أني مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها . واعترف لك بكمال الحذق في البلاغة أبناؤها ..... إلى أن قال : ثم إذا كنت ممن ملك

---

1 – **محمد الطاهر بن عاشور** : (12 أغسطس 1973) عالم وفقيه تونسي، أسرته منحدرة من الأندلس ترجع أصولها إلى أشراف المغرب الأدارسة تعلم بجامع الزيتونة ثم أصبح من كبار أساتذته. . سمي حاكما بالمجلس المختلط سنة 1909 ثم قاضيا مالكيا في سنة1911. ارتقى إلى رتبة الإفتاء وفي سنة 1932 اختير لمنصب شيخ الإسلام المالكي، ولما حذفت النظارة العلمية أصبح أول شيخ لجامعة الزيتونة وأبعد عنها لأسباب سياسية ليعود إلى منصبه سنة 1945 وظل به إلى ما بعد استقلال البلاد التونسية سنة 1956. من أشهر أقرانه الذين رافقهم في جامعة الزيتونة: شيخ الأزهر الراحل محمد الخضر حسين، وابنه محمد الفاضل بن عاشور كان بدوره من علماء الدين البارزين في تونس. .

من آثاره: تفسير التحرير والتنوير، وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ والنظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح ، و مقاصد الشريعة الإسلامية ، و التوضيح والتصحيح (أصول الفقه) وغيرها

الذوق وتصفحت كلام رب العزة ، أطلعتك على ما يوردك موارد العزة .
وكشفت عن وجه إعجازه القناع اهـ .
فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن ألم بك أيها المتأمل إلمامة ليست كخطرة طيف ولا هي كإقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف . وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزا وتتبصر منها نواحي إعجازه وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور ، فذلك له مصنفاته ، وكل صغير وكبير مستطر . ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر ، وفتح عقول ، وفتح ممالك ، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل .
ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولا ونكتا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني ، والرماني ، وعبد القاهر ، والخطابي ، وعياض والسكاكي ، فكونوا منها بالمرصاد ، وأفلوا عنها كما يفلى عن النار الرماد . وإن علاقة هذه المقدمة بالتفسير هي أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية ، لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر .
على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس ، كما يصف بعض العلماء كتاب " أحكام القرآن " لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي ، وكما نراه في مواضع من " أحكام القرآن " لأبي بكر بن العربي .ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام

وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي – ﷺ – ، وكونه المعجزة الباقية ، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول – ﷺ – معانديه تحديا صريحا . قال تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم.) (العنكبوت : 50– 51) ولقد تصدى للاستدلال على هذا أبو بكر الباقلاني في كتاب له سماه أو سمي "إعجاز القرآن " وأطال ..

وخلاصة القول فيه: أن رسالة نبينا – ﷺ – بنيت على معجزة القرآن ، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصا ، فأما القرآن فهو معجزة عامة ، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة ، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مجدد ، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأول ، ودليل ذلك متواتر من نص القرآن في عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله ، وبعشر سور مثله مما هو معلوم ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم ، نحو قوله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ...الآية) (البقرة : 23–24) فإنه سهل وسجل ، سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره ، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا ، فكان كما سجل ، فالتحدي متواتر ، وعجز المتحدين أيضا متواتر بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين ، وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة .

قال الله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من

مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار... الآية) (البقرة : 23-24) . وقال : (قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (يونس : 38) وقال: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) (هود: 13) . فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها .

وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي ، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب .

ويعرف هذا القول بالصرفة كما في " المواقف للعضد والمقاصد " للتفتازاني ، ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء ، وهي مرة من الصرف وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص ، فصارت كالعلم بالغلبة ، ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعري فيما حكاه أبو الفضل عياض في الشفاء ، وإلى النظام ، والشريف المرتضى ، وأبي إسحاق الإسفراييني فيما حكاه عنهم عضد الدين في المواقف ، وهو قول ابن حزم صرح به في كتاب : (الفصل) (1) ، وقد عزاه صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير من المعتزلة .وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه أئمة الأشعرية ، وإمام الحرمين ، وعليه الجاحظ ، وأهل العربية كما في المواقف ، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله ، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة .

وإنما وقع التحدي بسورة ، أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من

1 – انظر الفصل ، لابن حزم : ج2: ص 184 . وج3 : ص 7 .

الآيات ، لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض ، وفنون الفصل ، والإيجاز والإطناب ، والاستطراد والاعتراض ، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات .

وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها ، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات

الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم .

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة : ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة ، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني Kوالقاضي عياض .وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب ، وقد يدخل في هذه الجهة ما عده عياض في الشفاء **وجها رابعا** من وجوه إعجاز القرآن ، وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب ، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزا لأهل الكتاب ; وخاص ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين في نشأة الرسول – ﷺ – وأحواله ، وليس معجزا

للمكابرين فقد قالوا إنما يعلمه بشر .
فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب ، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة ، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ . فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي ، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي .

ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور ...
والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازا مستمرا على ممر العصور ، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين : إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية ، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك .
وهو من الجهة الرابعة عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث معجز لأهل عصر نزوله إعجازا تفصيليا ، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن ، وتعين صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها .
هذا ملاك الإعجاز بحسب ما انتهى إليه استقراؤنا إجمالا .. ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك وتمثيله .
فأما الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمى بالطرف الأعلى من البلاغة والفصاحة ، وهو المصطلح على تسميته حد الإعجاز ، فلقد كان منتهى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغة والفصاحة ، وقد وصف أئمة

البلاغة والأدب هذين الأمرين بما دون له علما المعاني والبيان ، وتصدوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة ، وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عد في أقصى درجاتها .

وقد تصدى أمثال أبي بكر الباقلاني ، وأبي هلال العسكري ، وعبد القاهر ، والسكاكي ، وابن الأثير ، إلى الموازنة بين ما ورد في القرآن وبين ما بلغ في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة بما فيه مقنع للمتأمل ، ومثل للمتمثل . وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفا جماليا كصنعنا هاهنا أن يصف هذه الجهة وصفا مفصلا لكثرة أفانينها ، فحسبنا أن نحيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل " دلائل الإعجاز " ، و " أسرار البلاغة " ، والقسم الثالث فما بعده من " المفتاح " ، ونحو ذلك ، وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التفاسير المؤلفة في ذلك ، وعمدتها كتاب " الكشاف " للعلامة الزمخشري ، وما سنستنبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا إن شاء الله ، غير أني ذاكر هنا أصولا لنواحي إعجازه من هذه الجهة وبخاصة ما لم يذكره الأئمة أو أجملوا في ذكره .

وحسبنا هنا الدليل الإجمالي وهو أن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته ، اعترافا بالحق ورِبئا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح ، مع أنهم أهل القدرة في أفانين الكلام نظما ونثرا ، وترغيبا وزجرا ، قد خصوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعاني ، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني ، ولا يجمح بهم عسير من المقامات .

قال عياض في الشفاء : فلم يزل يقرعهم النبيء - ﷺ - أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يؤثر وسحر

مستمر ، وإفك افتراه ، وأساطير الأولين . وقد قال تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فما فعلوا ولا قدروا ، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم . ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية ، قال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بكلام بشر .. وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر فسجد وقال : سجدت لفصاحته .. وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة " اصدع " في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها ، وكلمة " بما تؤمر " في إيجازها وجمعها . وسمع آخر رجلا يقرأ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وكون النبيء – ﷺ – تحدى به وأن العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله .

قال السكاكي في المفتاح : واعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، أو كالملاحة . ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا . وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين المعاني والبيان ، نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا . اهـ

قال التفتزاني : يعني أن كل ما ندركه بعقولنا ففي غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه ، والإعجاز ليس كذلك لأنا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيان بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب ، مع أن كلماته كلمات كلامهم ، وكذا هيئات تراكيبه ، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مستقيم الوزن دون آخر ، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك ، لكن فيه شيء نسميه الملاحة ولا نعرف أنه ما هو ، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى

الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية ، فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما ، وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه ، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النظام وجمع من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها .

قال عمر: – رضي الله عنه – كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه ، فانحصر تسابق جياد البلاغة في ميدان الكلام المنظوم ، فلما جاء القرآن ولم يكن شعرا ولا سجع كهان ، وكان من أسلوب النثر أقرب إلى الخطابة ، ابتكر للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوع بتنوع المقاصد ، ومقاصدها بتنوع أسلوب الإنشاء ، فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ، ولهذا قال الوليد بن المغيرة لما استمع إلى قراءة النبيء – ﷺ – " والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته ولا سجعه ، وقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومبسوطه ، ومقبوضه ، ما هو بشاعر . " وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفاري الشاعر أخو أبي ذر حين انطلق إلى مكة ليسمع من النبيء – ﷺ – ويأتي بخبره إلى أخيه فقال " لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان واحد بعدي أنه شعر " ثم أسلم وورد مثل هذه الصفة عن عتبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث ،

والظاهر أن المشركين لما لم يجدوا بدا من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ، ألحقوه بأشبه الكلام به، فقالوا إنه شعر ، تقريبا للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار ، من حيث ما فيه من دقائق المعاني ، وأحكام الانتظام والنفوذ إلى العقول ، فإنه مع بلوغه أقصى حد في فصاحة العربية ، ومع طول أغراضه وتفنن معانيه ، وكونه نثرا لا

شعرا ، ترى أسلوبه يجري على الألسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه ، وترى حفظه أسرع من حفظ الشعر .
وقد اختار العرب الشعر لتخليد أغراضهم وآدابهم ، لأن ما يقتضيه من الوزن يلجئ إلى التدريب على ألفاظ متوازنة فيكسبها ذلك التوازن تلاؤما ، فتكون سلسة على الألسن ، فلذلك انحصر تسابق جياد البلاغة في الكلام المنظوم ، وفحول الشعراء مع ذلك متفاوتون في سلاسة الكلام ، مع تسامحهم في أمور كثيرة اغتفرها الناس لهم وهي المسماة بالضرورات .
فجاء القرآن كلاما منثورا ، ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر وتعثر على الألسنة .
فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه ، وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز :
أولاهما : ظهور أنه من عند الله ; إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة ، كل يجيد أسلوبا أو أسلوبين .
والثانية : أن يكون في ذلك زيادة التحدي للمتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته، ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته .
نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما : مقصد الموعظة ، ومقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه ، وهو في هذا النوع يشبه خطبهم ، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها ، وقد قال في الكلام على بعضه (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) (آل عمران : 7) هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها . ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن ، وهو بداعة تنقلاته من فن إلى

فن بطرائق الاعتراض ، والتنظير ، والتذييل ، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم ، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير ، ثم الرجوع إلى المقصود ، فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه ، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) (البقرة : 17-20) بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة ، العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء ، وأصحاب بداءة الأجوبة . وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه ، هي في منتهى الرقة والبداعة ، بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله . وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم ، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى: (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن) (المزمل : 20) فقوله ما تيسر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر ، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه، مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير ..

وقال شمس الدين محمود الأصفهاني في تفسيره ، نقلا عن الفخر الرازي أنه قال : إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك . إن بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية ، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدى بها تلك التراكيب . فجاء

القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد صالح لكل العقول ، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها ، معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة : فتضمن المحاورة ، والخطابة ، والجدل ، والأمثال (أي الكلم الجوامع) ، والقصص والتوصيف ، والرواية . وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع ، وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع ، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ ، خفيف الانتقال والسير في القبائل ، مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة ، دون المبالغات الكاذبة ، والمفاخرات المزعومة ، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه ، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي . وقد رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب ، وخاصة الجناس ،كقوله: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)(الكهف: 104) والطباق، كقوله (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) (الحج:4) وقد ألف ابن أبي الإصبع كتابا في بديع القرآن . وصار لمجيئه نثرا أدبا جديدا غضا ومتناولا لكل الطبقات . وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب ، حتى وصفوه بالسحر وبالشعر ، (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) (الطور : 30) (1)

18- وردها كذلك : آية الله محمد حسين الطباطبائي [2] (1321-

---

1 – انظر : تفسير التحرير والتنوير ، للعلامة ابن عاشور ، الجزء الأول: ص101- 117 أوردنا كلامه بطوله لنفاسته ، ولاشتماله على فوائد جمّة جليلة أحببنا إثباتها وعرضها على القارئ الكريم.

2 – هو العلامة آية الله **محمد حسين الطباطبائي** ويرجع نسبه من جهة أبيه إلى الإمام الحسن بن علي ، ومن جهة أمه إلى الإمام الحسين بن علي . وُلد الطباطبائي في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 1321هجرية/ 1904 ميلادية، في مدينة تبريز في إيران. نشأ الطباطبائي وترعرع في أسرة عريقة بالعلم والثقافة.. انتقل الطباطبائي إلى النجف وأمضى فيها أحد عشر عاماً منشغلاً بالدراسات الفقهية والأصولية والفلسفية والعرفانية والرياضية.درس العلاّمة في

1402 هـ): أثناء تفسيره لقوله تعالى : (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ) (البقرة :23-24) . قال : **التحدي بالبلاغة:**

وقد تحدى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأْتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاَّ هو فهل أنتم مسلمون) (هود: 13-14) . والآية مكية، وقوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأْتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) (يونس: 38-39). والآية أيضاً مكية ، وفيها التحدي بالنظم والبلاغة ، فإن ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذٍ، فالتاريخ لا يرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم ، ووطئوا موطئاً لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان ، وجزالة النظم ، ووفاء اللفظ ، ورعاية المقام ، وسهولة المنطق. وقد تحدى عليهم القرآن بكل تحد ممكن ، مما يثير الحمية ويوقد نار الأنفة والعصبية. وحالهم في الغرور ببضاعتهم ، والاستكبار عن الخضوع للغير في صناعتهم مما لا يرتاب فيه، وقد طالت مدة التحدي وتمادى زمان الاستنهاض فلم يجيبوه إلاَّ بالتجافي ، ولم يزدهم

"النجف" على يد أكابر العلماء.. كتب العلاّمة الطباطبائي في مجال الفلسفة والتفسير وتاريخ الشيعة، وخطّ العلاّمة أكثر كُتُبه في النجف.ومن أبرز كتاباته: "الميزان في تفسير القرآن" في عشرين مجلداً. وقد ترجم إلى الفارسية وإلى لغات أخرى.وله أكثر من أربع وأربعين عنواناً، في شتى العلوم ، كما أنّ له كتابات شعرية في اللغة الفارسية والعربية. توفي الطباطبائي في الثامن والعشرين من محرّم الحرام سنة 1402هـ، ودفن بجوار مرقد السيدة فاطمة – عليها السلام– . انظر : موقع أعلام الشيعة الإمامية .

إلاَّ العجز ، ولم يكن منهم إلاَّ الاستخفاء والفرار، كما قال تعالى: (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون)(هود: 5). وقد مضى من القرون والأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرناً ولم يأت بما يناظره آت ، ولم يعارضه أحد بشيء إلاَّ أخزى نفسه وافتضح في أمره.

وقد ضبط النقل بعض هذه المعارضات والمناقشات، فهذا **مسيلمة** عارض سورة الفيل بقوله: (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل) فانظر إلى هذه الهذيانات واعتبر، وهذه سورة عارض بها الفاتحة بعض النصارى (الحمد للرَّحمن. رب الأكوان الملك الديان. لك العبادة وبك المستعان، إهدنا صراط الإيمان) إلى غير ذلك من التقوّلات.

فإن قلت: ما معنى كون التأليف الكلامي بالغاً إلى مرتبة معجزة للإنسان ، ووضع الكلام مما سمحت به قريحة الإنسان؟ فكيف يمكن أن يترشح من القريحة ما لا تحيط به ، والفاعل أقوى من فعله ، ومنشئ الأثر محيط بأثره؟ وبتقريب آخر، الإنسان هو الذي جعل اللفظ علامة دالة على المعنى لضرورة الحاجة الاجتماعية إلى تفهيم الإنسان ما في ضميره لغيره ، فخاصة الكشف عن المعنى في اللفظ خاصة وضعية اعتبارية مجعولة للإنسان، ومن المحال أن يتجاوز هذه الخاصة المترشحة عن قريحة الإنسان حد قريحته ، فتبلغ مبلغاً لا تسعه طاقة القريحة، فمن المحال حينئذٍ أن يتحقق في اللفظ نوع من الكشف لا تحيط به القريحة ، وإلاَّ كانت غير الدلالة الوضعية الاعتبارية، مضافاً إلى أن التراكيب الكلامية لو فرض أن بينها تركيباً بالغاً حد الإعجاز ، كان معناه : أن كل معنى من المعاني المقصودة ذو تراكيب كلامية مختلفة في النقص والكمال والبلاغة وغيرها، وبين تلك التراكيب تركيب هو أرقاها وأبلغها لا تسعها طاقة البشر، وهو التركيب المعجز، ولازمه أن يكون في كل معنى مطلوب تركيب واحد إعجازي، مع أن القرآن كثيراً ما يورد في المعنى الواحد بيانات

مختلفة وتراكيب متفرقة، وهو في القصص واضح لا ينكر، ولو كانت تراكيبه معجزة لم يوجد منها في كل معنى مقصود إلاَّ واحد لا غير.

قلت: هاتان الشبهتان وما شاكلهما هي الموجبة لجمع من الباحثين في إعجاز القرآن في بلاغته أن يقولوا بالصرف، ومعنى الصرف أن الإتيان بمثل القرآن أو سور أو سورة واحدة منه، محال على البشر ، لمكان آيات التحدي ، وظهور العجز من أعداء القرآن منذ قرون، ولكن لا لكون التأليفات الكلامية التي فيها في نفسها خارجة عن طاقة الإنسان ، وفائقة على القوة البشرية، مع كون التأليفات جميعاً أمثالاً لنوع النظم الممكن للإنسان، بل لأن الله سبحانه يصرف الإنسان عن معارضتها ، والإتيان بمثلها بالإرادة الإلهية الحاكمة على إرادة الإنسان حفظاً لآية النبوّة ، ووقاية لحمى الرسالة. وهذا قول فاسد لا ينطبق على ما يدل عليه آيات التحدي بظاهرها كقوله (قل فأْتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله... الآية) (هود: 13-14) ، فإن الجملة الأخيرة ظاهرة في أن الاستدلال بالتحدي إنما هو على كون القرآن نازلاً لا كلاماً تقوّله رسول الله - ﷺ - ، وإن نزوله إنما هو بعلم الله لا بإنزال الشياطين، كما قال تعالى: (أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون فليأْتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)(الطور: 233-234)، وقوله تعالى: (وما تنزّلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) (الشعراء: 210-212)، والصرف الذي يقولون به إنما يدل على صدق الرسالة بوجود آية هي الصرف، لا على كون القرآن كلاماً لله نازلاً من عنده، ونظير هذه الآية الآية الأخرى، وهي قوله: (قل فأْتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .... الآية) (يونس: 38) ، فإنها ظاهرة في أن الذي يوجب استحالة إتيان البشر بمثل القرآن وضعف قواهم وقوى كل من يعينهم

على ذلك من تحمّل هذا الشأن، هو أن للقرآن تأويلاً لم يحيطوا بعلمه فكذبوه، ولا يحيط به علماً إلاَّ الله ، فهو الذي يمنع المعارض عن أن يعارضه، لا أن الله سبحانه يصرفهم عن ذلك مع تمكنهم منه لولا الصرف بإرادة من الله تعالى...وكذا قوله تعالى:(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (النساء: 82) ، فإنه ظاهر في أن الذي يعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن إنما هو كونه في نفسه على صفة عدم الاختلاف لفظاً ومعنىً، ولا يسع لمخلوق أن يأتي بكلام غير مشتمل على الاختلاف، لا أن الله صرفهم عن مناقضته بإظهار الاختلاف الذي فيه هذا، **فما ذكروه من أن إعجاز القرآن بالصرف كلام لا ينبغي الركون إليه.(** [1] **)**

19 – وأخيرا لا آخرا تأثير القرآن في أنفس العرب : – فقد أجمع أساطين الأدب والبيان– قديما وحديثا – ، على أن للعرب في عصر الرسالة قدما راسخة في البيان ، وبلاغة المنطق ، وتذوق الكلام ، والتمييز بين جيده ورديئه ، وليس أدل على ذلك مما قاله الجاحظ في كتابه –حجج النبوة – ، حيث قال :– (بعث الله محمدا– ﷺ – أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا اقصاها وأدناها إلى توحيد الله ، وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من أعلامهم ، وعليائهم ، وأعمامهم ، وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خافيا ..

1 – الطبطبائي : تفسير الميزان في تفسير القرآن: ج1: ص 59–**73**.

إلـى أن يقـول : إن القرآن إذ تحـداهم بالحجـة ، ولـم يقـدروا علـى الإتيان بمثله عجزا منهم ووهنـا ، لا تهاونا وتغافلا ، لأن الإتيان بمثل أصـغر سورة منـه كـان كفيلا بأن يكفيهم قتل الأنفس والأولاد ، وأن التقريـع بـالعجز أشد على نفوس العرب ، والبدو خاصـة ، لما فيهم من الأنفة والعزة ، فكيف والقرآن يتحـداهم فـي أخـص خصائصـهم وهـو البيـان ، وهـم قـد عرفـوا فيـه بالبراعة والبلاغة ..؟)[1] .

ومع عناد مشركي مكة ، ومحاربتهم لدعوة محمد – ﷺ – فإن فصحاءهم لم يكتموا إعجابهم ببلاغة القرآن ، وحسن تعبيره ، وقوة تأثيره ، وجمال نظمه ، وروعة إيقاعه.

وقد صدرت عن فصحائهم وبلغائهم أقوال صريحة تشير الى علو كعبه في هذا المضـمار ، وذلـك إبـان تفكيـرهم فـي القرآن ، وحيـرتهم فـي جمـال نظمـه وجـلال معنـاه ، ولعـل **الوليـد ابـن المغيـرة** ([2]) – وهـو مـن بلغـاء عصـر

---

[1] – الجاحظ : حجج النبوة : –ضمن رسائل الجاحظ – ص 149. ود. محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي – ص76.

[2] - **الوليد بن المغيرة** بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر المخزومي القرشي ، أحد قادة قريش في العصر الجاهلي ووالد الصحابي خالد بن الوليد من أغنى أغنياء قريش حيث ورد أنه بنى ركنا من أركان الكعبة الأربعة عندما قامت قريش بترميمها واشتركت باقى القبائل في الباقي وورد كذلك أنه كان في موسم الحج وطول الاربعين ليلة يذبح للحجيج كل يوم 10 من الإبل وقيل أن قافلة تجارته تقدر بمائة بعير حتى يقال انها لاتدخل من باب واحد بل من جميع أبواب مكة حتى تصل الجمال في وقت واحد, نزلت فيه آيات من القرآن في سورة المدثر "**إنه فكر وقدر *فقتل كيف قدر *ثم قتل كيف قدر *ثم نظر * ثم عبس وبسر *ثم أدبر واستكبر *فقال إن هذا إلا سحر يؤثر *إن هذا إلا قول البشر *سأصليه سقر**" كانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة لأن قبائل قريش تكسوا الكعبه عاما وهو وحده عام. لما نشبت حرب بدر الكبرى جاء الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة إلى أبي جهل ابن هشام بن المغيرة ولما اختلى به سأله قائلاً أترى محمداً يكذب؟ فقال أبو جهل ماكذب قط ، وكنا نسميه الأمين ، ولكن إذا كان في بني هاشم السقاية والرفادة والمشورة ، ثم تكون فيهم النبوة ، فأي شيء لبني مخزوم؟ فمن هذا يتبين أن بني

الوحي – أول من تنبه إلى عظمة القرآن ، فكانت كلمته المأثورة أول تقريظ ناله القرآن من بلغاء عصره ومصره والتي يقول فيها :-

(والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق – يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطال فرعها- ، وإن غرسه لجنا –أي كثير الجنى وهو الثمر – وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته)(1) ، وما كان له أن يقولها لوعلم إمكان معارضته .

مخزوم يرون أنفسهم في درجة بني هاشم ، وسبب امتناعه من الإسلام كما ذكره الأمام البغوي في تفسيره : أن النبي في المسجد قرأ (حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) وكان الوليد يسمع قرأته ففطن له (أي انتبه) رسول الله وأعاد الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه ، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى عليه. ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش : صبأ والله الوليد، وهو ريحانة قريش ، والله لتصبأن قريش كلها فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب عمه الوليد حزيناً، فقال له الوليد : مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن أحزن؟ وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وإنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرها مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه ليكون لهم فضل؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا لا، فقالت قريش للوليد فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر فذلك قول الله في سورة المدثر : "إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر"..الآيات). وقد مات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين سنة ودفن في الحجون بمكة

1 - ابن هشام : السيرة النبوية - ج1 / ص234-235.

وروى الامام محمد بن اسحق في كتاب السيرة (أن –**عتبة بن ربيعة** [1] – كان سيدا في قومه ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله – ﷺ – جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ..ويكف عنا..؟فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إليه ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السطة(أي : الشرف) في العشيرة ، والكمال في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أ مورا ، فتنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها .

فقال رسول الله –ﷺ – : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد شرفا : سودناك علينا ، حتى لا نقطع

---

1 - **عتبة بن ربيعة بن عبد شمس** بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر هو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، العبشمي القرشي. سيد من سادات قريش، وشخصية بارزة عند ظهور الرسالة المحمدية، عرف برجاحة عقله فنصح قريشا أن يسلموا بالنبي محمد ، أو يخلوا بينه وبين القبائل بعد أن اجتمع بالرسول وسمع منه ، ونعته الرسول بقوله أبا الوليد إكبارا له. أسلم ابنه أبو حذيفة بن عتبة، نصح قريشا بواسطة حكيم بن حزام بعدم القتال في بدر لكن أبا جهل أبى. خرج للمبارزه في بدر مع عبيدة بن الحارث وكانا مسنين، فقطع رجل عبيدة ومات وهو عائد من بدر، أما عتبه فقد أجهز عليه حمزة وعلي، وجد في ابنه أبو حذيفه حزنا وهو من المسلمين عندما وجد أباه قتيلا، فسأله الرسول عن ذلك فقال: لأنك تعرف رجاحة عقل أبي، فكنت أتمنى أن يموت مسلما ، وهو ما أقره الرسول. كان أهل مكة لما قدموا ماء بدر قال الرسول محمد : إن يكن في القوم خير فعلى صاحب الجمل الأحمر، يقصد عتبة وقد كان آوى الرسول في بستانه إذ طرده أهل الطائف، أسلمت ابنته هند مع زوجها أبو سفيان يوم فتح مكة. أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابن إسحاق فيما ذكر ابن هشام (1/293–294) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (2/204–205)

أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا: ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله - ﷺ - يستمع إليه قال : أفرغت يا أبا الوليد ..؟

قال : نعم ، قال: فاسمع مني ، قال : أفعل ، قال الرسول - ﷺ - : [بسم الله الرحمن الرحيم . حم. تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون] (سورة فصلت : 1-4.) ثم مضى رسول الله - ﷺ - يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه ، وهو ملق يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، حتى انتهى الرسول إلى السجدة ، ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك) ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ..؟

قال : ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .) [1] .

---

[1] - ابن هشام :السيرة النبوية ، ج1: ص234-235.المعجزة الكبرى – القرآن ، محمد أبو زهرة : 67 . دار الفكر . والاعجاز القرآني ، جوهره وأسراره ، عبد الغني محمد سعيد بركة ، مكتبة وهبة ، القاهرة : : ص 49 .

وأمر – **الطفيل بن عمرو الدوسي** [1] – كأمر هؤلاء الذين أثر فيهم القرآن ، كان شريفا في قومه ، شاعرا نبيلا ، قدم مكة ، فمشى إليه رجال من

---

[1] - **الطفيل بن عمرو الدوسي** : صحابي جليل من أوائل السابقين إلى إسلام وأسلم قبل الهجرة النبوية بمكة في السنة السابعة من البعثه النبوية (**617** م – 6 ق.هـ). ثم لحق بالرسول بالمدينة بعد معركة أحد وأقام فيها، إستشهد في حروب الردة بمعركة اليمامة.

كان سيدًا من سادة العرب ، وسيد قبيلة دوس في الجاهلية ، وشريف من **أشراف العرب** المرموقين وواحدًا من أصحاب المروءات المعدودين، يطعم الجائع ويؤمن الخائف و يُجير المستجير، وهو إلى ذلك أديب أريب لبيب وشاعر مرهف الحس رقيق الشعور، بصير بحلو البيان ومره حيث تفعل فيه الكلمة فعل الساحر. وقد قدم إلى مكة للحج قبل الهجرة فاستقبلتة قريش ولقي الرسول فأسلم على يده ثم رجع لدوس ولبت عندهم يدعوهم إلى الإسلام والتحق بعدها بالرسول بالمدينة بعد معركة أحد ومعه **80** بيتا من دوس فشهد مع الرسول معركة الخندق وفتح مكة.

حينما قدم إلى مكة للحج نهاية السنة السابعة من البعثة(617 م) استقبلته قريش وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنّ منه شيئا فما زالوا به حتى حشي إذنيه كرسفا (أي : قُطنا)فَرقا من أن يبلغه شيء منه فلما ذهب الكعبة فإذا رسول الله – ﷺ – يصلي عند الكعبة فقام منه قريبا فلما رجع النبي – ﷺ – إلى بيته لحقه

وقال: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولا حسنا، فاعرض علي أمرك..فتلا عليه النبي – ﷺ – شيئا من القرأن فقال: والله ما سمعت قولا قط أحسن

منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلم ورجع إلى دوس يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا كلهم, وهاجر معه منهم **80** بيتا.ودعا له الرسول – ﷺ – فأصبح على سوطه ضوء .

عاد الطفيل مع النبي – ﷺ – من غزوة الطائف إلى المدينة المنورة فكان مع النبي – ﷺ – بالمدينة حتى قبض... فلما ارتدت العرب خرج المسلمون لقتالهم، فجاهد حتى فرغوا

من طليحة الأسدي وأرض نجد كلها. ثم بعثه أبو بكر الصديق إلى مسيلمة الكذاب، فقتل الطفيل شهيدا يوم اليمامة وجرح ابنه ثم قتل باليرموك بعد ذلك في زمن عمر بن الخطاب شهيدا. انظر : سيرة ابن هشام 382/1 . والوفاء بأحوال المصطفى 206/1 . والوافي بالوفيات 264/16 ، والإصابة 67/2

قريش يحذرونه من اتباع محمد – ﷺ – قائلين :إنا نخشى عليك وعلى قومك ، فإذا ما دخل عليك فلا تكلمه ولا تسمع منه ، يقول الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت – أي قصدت وعزمت –على أن لا أ سمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني حين غدوت المسجد فحشوت أذني كرسفا (أي قطنا) فرقا (أي خوفا) من أن يبلغني شيئا من قوله ، فإذا رسول الله – ﷺ – قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : أنا ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلت ،وإن كان قبيحا تركت ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قالوا لي كذا وكذا ، حتى سددت أذني بكُرْسُفْ كي لا أسمع قولك ، فاعرض علي أمرك ،فعرض عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن ، قال الطفيل : والله ما سمعت قط قولا أحسن من هذا ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت .) [1] وأكتفي بما ذكرته من أخبار منسوبة لمشركي قريش وغيرهم ، تدل على اعترافهم الصريح بإعجاز القرآن الكريم ، وبلوغه درجة في البيان لم يبلغها شاعر ، ولا خطيب منهم ، وتبين تأثيره في القلوب التي كانت تهفو لمعرفة الحق ، وتتوق للوصول إلى الطمأنينة والأمان ، وفي القلوب الصلدة رغم المكابرة والعداوة ، فلامَسَ القرآن شغاف قلوب بعضهم ، وملك أفئدتهم وعقولهم فعرفوا مزيته وإعجازه ، فقادهم إلى صراط الحق القويم .

---

1 – ابن هشام: السيرة النبوية ، ، ج2 / ص 18– 21.

الخاتمة

اختلف العلماء في القول بالصرفة كوجه من وجوه الإعجاز:

1- **فالنظام والرماني وابن سنان الخفاجي يقولون بالصرفة** كوجه أصيل من وجوه الإعجاز.. **قال الرماني :** (أما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول .) (1)

1 – النكت في إعجاز القرآن ، ص : 109.

ويؤكد ابن سنان :على القول (إن الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأن فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم .) (1)

2- **وقال فريق آخر بالصَّرفة** ولكن لا على أنها وجه أصيل من وجوه الإعجاز، بل كتدبير وقائي يُبعد الجدل عن كتاب الله. **يقول صاحب المواقف:** (أما الصرفة فلا نقول بها، ولكن ندعيها...وأيا ما كان ، يحصل المطلوب .) (2)

ويقول ابن كثير : (وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية (يقصد الصرفة) لأن القرآن في نفسه معجز ، لايستطيع البشر معارضته كما قررنا، **إلا أنها تصلح على سبيل التترل والمجادلة ، والمنافحة عن الحق،** وبهذه الطريقة **أجاب الرازي في تفسيره** عن سؤاله في السور القصار كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر .) (3)

فالأصل عند هذا الفريق في وجه إعجاز القرآن البلاغة والنظم، والصرفة لا تستقيم ، ولكن تصلح للرمي بها في وجه أعداء الإسلام.

3- وأما المفهوم الثالث فهو : مفهوم القاضي عبد الجبار : وقد خالف فيه جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها ، ولم يرض عن تفسيراتهم ، فقد أبعد مفهوم الجبرية ، الذي ساد في حديث – النظام – والجاحظ– والرماني – عنها ، فالصرفة عند القاضي عبد الجبار ، ليست تلك الصرفة التي عند النظام ، أو الجاحظ ، والتي تعني : القهر ، والجبر ، إنما هي صرفة ذاتية ، فهم أدركوا بالفطرة ، أن أسلوب القرآن في علوه وسموه ، وروعة نظمه وبيانه ، لا يمكن مجاراته ، ومعارضته ، فانصرفوا ذاتيا بلا قهر، أو جبر من قوة

---

1 – سر الفصاحة : ص **88.**

2 – المواقف ، عضد الدين الإيجي : ج3: 384.

3 – تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ج1: ص 62.

خارجية عن المعارضة ، اقتناعا منهم ويقينا بالعجز، فهو : **انصراف ، وليس صَرفة .**(1)

4 – **وفريق رابع رفض القول بالصرفة جملة وتفصيلا** ، وقد استدلوا على رفضها بحجج، أهمها: قوله تعالى : (قل لَّئِنِ اجتمعتِ الإِنس وٱلْجِنُّ عَلى َأن يْأتوْا بِمِثْلِ هذا ٱلْقُرآنِ َ لايأتون بِمِثْلِهِ وَلو كَان بعضهم لِبعضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء : 88) فالآية دلت على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة من اجتماعهم...**وبعد هذا العرض لمفهوم الصرفة ، تبينت لي الحقائق التالية ، أشير إليها بإجمال :**

1– لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزًا ، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه. ثم لو صح هذا القول، لوجد من أشعار العرب السابقة ما يضاهي القرآن، وهذا لم يكن .

2 – لو كان القرآن معجزا بالصرفة لما احتيج إلى إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب. وأيضا لو حصلت(لكان القرآن فيها بمثابة الداعي لخصمه إلى مبارزة حرم فيها الخصم من سلاحه خشية انتصاره، وهو بذلك يدعو إلى مبارزة غير متكافئة، الانتصار فيها لا يدل على شيء سوى تهيُّب القرآن من الانهزام على يد خصمه) (2) .

3 – إن القول بالصرفة ينقض باقي الأوجه التي قيل بأنها من وجوه إعجاز القرآن ، لأن الأمر يقتضي عندها عدم الحاجة إلى ذكرها، فما دام الإعجاز قد تم بالصرفة يعني أن الإعجاز قد تمَّ خارج محتوى القرآن، بينما باقي الأوجه : (النظم، والإخبار عن الغيوب، والوجه العلمي) قول بالإعجاز داخل محتوى القرآن، فالقول بأحدهما ينفي القول بالآخر.

---

1 – د. وليد قصاب : ، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، ص 320–323 . بتصرف .

2– أنظر **:**الهادي الجطلاوي ، قضايا اللغة في كتب التفسير ص **21.**

4 - لو صرفوا عن محاولة الإتيان بمثله لما وقعت المحاولة أصلا ، ولكن ذَكَرَ التاريخ من حاول ذلك كمسيلمة ، وأتى بكلام زعم أنه قد حاكى كلام الله عز وجل، ولكنه جاء مرذولا سمجا لا قيمة له . (1)

5 - الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز للقرآن الكريم، والقول بالصرفة ينفي عن القرآن ذلك، وينسِب بها الإعجاز إلى الله الذي سلبهم القدرة عن الإتيان بمثله، فالصرفة تعارض الإجماع . (2) وكيف يكون معجزًا وليس فيه صفة إعجاز ؟ بل المعجز هو الله تعالى الذي سلبهم القدرة .

6- القول بالصرفة يشبه قول الجاهليين بأن القرآن سحر يؤثر ؛ حيث إن غاية كلا القولين أن إعجازه أمر خارج عنه .كما يلزم من هذا القول أن تنقص مقدرة العرب البيانية ، عما كانوا عليه في الجاهلية ، وينزل مستوى الشعر والنثر عما كان عليه ، وهذا غير واقع .

7 - إن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبي - ﷺ - ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون ، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون ، لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، إذعانا لبلاغته وفصاحته ، مع أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فما فعلوا لئلا يُسِفُّوا في تفكيرهم ، فدل هذا على عجزهم المطلق ، (إذ نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال ، ولو كان ذلك في وسعهم ، وتحت مقدورهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول ، إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذو لب راجح ..)(3)

---

1 - الباقلاني : إعجاز القرآن : ص 65.

2 - السيوطي : الاتقان : ج2: ص 118.

3 -الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ص: 21 .

8 – إن القرآن جذب كثيرا من العرب إلى الإيمان بما فيه من قوة بيان وإيجاز معجز ، وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقصر ، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقِصَرِها ، وإطنابها الرائع، وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها حقها، بالعبارة الناصعة ، والإشارة الواضحة ، فأَدركوا أن إعجازه ذاتي ، نابع منه ، وأنه فوق طاقة البشر . وهذا يقودنا إلى أن القول بالصرفة قول باطل ، وساقط عن الاعتبار، وإن قال به نفر من أعلام العلماء ، فالحق لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف بسلامة الاستدلال

9- إن القرآن تحدى العرب في جملة من الآيات على أن يأتوا بمثله ، وهذا دليل على أن القرآن إنما جاء وفق أساليبهم ، لأنه لا يعقل أن يتحدى الناس بما لا يفهمون ولا يدركون ، إذ لا فائدة حينئذ من التحدي ، حيث لا تقوم به حجة ، وإذا فهمت العرب مناط التحدي وأقرت بالعجز ، فذلك يعني أنها أدركت وجه الإعجاز كما لا يعقل أن يتحداهم الله بالقرآن ثم يصرفهم عن الاتيان بمثله ، فلا معنى عند ذلك للتحدي . (1)

10 – على الرغم من غرابة نظرية الصرفة ،ومجافاتها لعظمة معجزة القرآن، فإنها أدت إلى إنماء فنون البلاغة ، فاتجه البلاغيون والمفسرون إلى استكشاف أسرار بلاغة القرآن الكريم ، وكما تولد عن اللَّحن في تلاوة القرآن علوم اللغة ، والنحو ، والصرف كذلك ، تولدت عن الصرفة علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة ، ولعله لولا القول بالصرفة لما تطورت علوم البلاغة هذا التطور الملحوظ ، ولما كان بين أيدينا هذه الثروة الهائلة من المصنفات في البلاغة القرآنية . (2)

---

1 – انظر : د. حسن مسعود الطوير ، جهود علماء الغرب الاسلامي واتجاهاتهم في دراسة الاعجاز القرآني: ص 574.

2 – المرجع السابق: ص 180. بينما اعتبرها الامام الرافعي– وبسبب القول بالصرفة – المانع من التأليف في بلاغة القرآن في تلك الأزمان الأولى التي اشتهرت فيها، لأن القوم أراحوا نفسهم بعد أن رأوا في الصرفة ما يكفي مؤونتهم، فأقعدهم عن القول في دقائق بلاغة القرآن...واتجه

11 - لو قيل : إن إعجاز الكفار عن المعارضة كان لصارف ثبط عزائمهم ، وعاق قدرتهم البيانية لنقل ذلك ، ولكان من المشركين تظاهرُ بذلك ، وادعاءُ بأن ذلك في الإمكان ، فلما لم يحصل منهم اجتماع أو تواطؤ على المعارضة ، دلّ على بطلان هذا القول .(1)

12- يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي . ويخلو القرآن عندئذ من الإعجاز . وفي ذلك خرق لإجماع الأمة على أن معجزة الرسول . صلى الله عليه وسلم . العظمى باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن الكريم

إلى النقيض منه أستاذنا الإمام محمد أبو زهرة ، الذي أعلن أن هذا المذهب أدى إلى إنشاء علوم البلاغة في القرآن ، إذ اتجه الكاتبون للرد عليه ، إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين ، فكان هذا الباطل سببا في خير كثير . ونحت نحوه بنت الشاطىء ، فصرحت أن هذا المذهب (الصرفة) أوقع في شبهة أن إعجازه البلاغي غير معتبر .وذلك ما التفت إليه أعلام المعتزلة أنفسهم وخشوه ، فتجردوا للاحتجاج له ، وجهدوا في تقريره . وذهب د. وليد قصاب إلى نقيض ما ذهب إليه ابن سنان ، فصرح بأن هذا المذهب كان فيه هدم لأمل كل من تحدثه نفسه بمعارضة القر آن ، لأنه ممنوع من ذلك بقدرة إلهية ، لا يستطيع أن يتخطاها أو يتغلب عليها . فبقي القرآن المعجزة الأبدية الخالدة ، التي لا يمكن أن ينجح أحد في معارضتها . انظر : الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص 146.وأبو زهرة ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص 82. ود. وليد قصاب ، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، ص : 47.ود. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ، الاعجاز البياني للقرآن ، ص 73. ود. حسين نصار ، الصرفة والانباء بالغيب ، ص 60 .

1 – انظر المراجع الآتية : المغني للقاضي عبد الجبار 6: 325 ، الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص 133 وما بعدها ، إعجاز القرآن للباقلاني ص 29 ،53 تحقيق : السيد صقر ، التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص 15 ، الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية 4: 76 ، النبأ العظيم لدراز ص86 ، إعجاز القرآن للرافعي ص145 ، المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص 79 ، مناهل العرفان للزرقاني 277/2 . وغيرها .

13- ينبغي على قولهم بالصرفة أن يكون القرآن في أقل مراتب الفصاحة والبلاغة ، حتى يكون العجز عن الإتيان بمثله أبلغ في التحدي .ثم إن مثار إعجابهم هو القرآن نفسه ، بما حوى من ضروب الإعجاز ، ولم يكن إعجابهم لعدم المعارضة .

14- إن إعجاز القرآن ذاتي ، فهو معجز بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ، مما جعل العرب يستعظمون بلاغة القرآن وفصاحته ، ففضيلة القرآن ظاهرة ، ومزاياه معجزة باهرة، مما يدل على بطلان تفسير إعجاز القرآن بالصرفة ، ويثبت الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم . ثم لو كانوا مصروفين عن المعارضة ، لكان تعجبهم للصرف ، لا للبيان المعجز ، ولو كان هناك سلب لعلومهم ، لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك ، بطل القول بالصرفة .

فهرس الأعلام

11- أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهاني

12- أحمد بن أبي دؤاد

13- الفخر الرازي -

14- الرماني أبو الحسن علي بن عيسى -

15- القاضي عبد الجبار -

16- أبو الحسن الأشعري

17- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم -

18- السفاريني : محمد بن أحمد -

19- - القاضي عياض -

20- أبو اسحاق الاسفراييني -

21- الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد -

22- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد -

23- أبو عبيد القاسم بن سلام

24- الأصمعي ، عبد الملك بن قريب

25- عبد الله بن المقفع

26- ابن حزم الظاهري -

27- أبو المعالي الجويني -

28- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد -

29- أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي -

30- محمد عبد العظيم الزرقاني -

31- الفخر الرازي -

32- شيخ الاسلام ابن تيمية -

33- الحسن بن محمد النيسابوري -

34- الامام ابن قيم الجوزية -

35- ابن كثير ، الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير -

36- أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي -

37- بديع الزمان سعيد النورسي -

38- الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان -

39- محمد باقر المجلسي -

40- الشريف المرتضى -

41- أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي -

42- ابن سنان ، عبد الله محمد بن سعيد الخفاجي -

43- أبو سليمان الخطابي -

44- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب -

45- البيهقي ، أحمد بن الحسين -

46- أبو لهب ر -

47- عبد القاهر الجرجاني -

48- الحاكم الجشمي ، أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة -

49- ابن عطية ، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب -

50- أبو حيان ، أبو علي محمد بن يوسف -

51- الامام القرطبي محمد بن أحمد -

52- كمال الدين ابن الزملكاني -

53- يحيبى بن حمزة العلوي -

54- سعد الدين التفتازاني -

55- الشريف الجرجاني علي بن محمد -

56- جلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر -

57- محمد حسين آل كاشف الغطاء -

58- السيد أبو القاسم الخوئي -

59- مصطفى صادق الرافعي -

60- الزرقاني ، محمد عبد العظيم -

61- محمد الطاهر بن عاشور -

62- آية الله محمد حسين الطباطبائي -

63- الوليد بن المغيرة -

64- عتبة بن ربيعة -

65- الطفيل بن عمرو الدوسي -

مراجع البحث

1- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري : د. محمد زغلول سلام ، تقديم د. محمد خلف الله أحمد ، ط3 ، دار المعارف بمصر .

2- إعجاز القرآن : أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بالقاهرة ، 1954م .

3- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، حققه محمد سعيد العريان ط3 ، 1945 ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

4- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة : د. منير سلطان ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .

5- أعلام النبوة : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت 450هـ) : الطبعة الأولى 1987م – مكتبة الآداب ، مصر تعليق : د. عبد الرحمن حسن محمود

6- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (تـ911هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار التراث بالقاهرة ، ط 3 ، 1985م .

7- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد : إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني :(تـ478هـ) ، تحقيق : د. محمد يوسف موسى وزميله ، طبع الخانجي بمصر سنة 1950 م .

8- الإعجاز البلاغي: د. محمد محمد أبو موسى، ط2، 1977م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

9- الإعجاز الفني في القرآن : د. عمر السلامي ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1980 م .

10- الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره : د . عبد الغني محمد سعد بركة ، ط1، 1989م، مكتبة وهبة بالقاهرة .

11- الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ، د. فتحي عبد الفتاح الدجني ، ط1، مكتبة الفلاح ، الكويت . 1984م.

12- الاقتصاد في الاعتقاد : حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، (تـ 505هـ)، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت .

13- الإلهيات : آية الله جعفر السبحاني ، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية – إيران .

14- الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي : (تـ 414هـ) ، تحقيق أحمد أمين وزميله ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1939م.

15- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، د. عبد الرؤوف مخلوف ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1978م.

16- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (تـ794هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر 1957م .

17- البخلاء : لأبي عثمان عمرو بن بحرالجاحظ (تـ 255هـ)، ، إصدار دار الشئون الثقافية العامة ببغداد سنة 1991م

18- بيان إعجاز القرآن الكريم : لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (تـ388هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد ، وزميله ، ط3، دار المعارف ، بالقاهرة .

19- البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار – عمان ، الأردن .

20- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تعليق : محمود رياض الحلبي ، دار المعرفة – بيروت 1977م .

21- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر.

22- تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (تـ606هـ) تيسير عبد القادر حسين ، دار الأوزاعي ، قطر ، 1989م .

23- تفسير البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي : محمد بن يوسف (تـ745هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

24- تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (تـ774هـ) ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

25- التراث النقدي والبلاغي لمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري : د. وليد قصاب، دار الثقافة ، الدوحة – قطر ، 1985م .

26- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (تـ671هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت 1993م .

27- الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي : خالد العلي ، دار الإرشاد ، بغداد ، 1965م .

28- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق علي بن حسن وزميليه ، ط1، الرياض .

29- حجج النبوة : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (تـ 255هـ) - ضمن رسائل الجاحظ- تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،ط1 ، الخانجي ،القاهرة ، 1979م .

30- حول إعجاز القرآن : علي العماري ، سلسلة الثقافة الاسلامية - عدد: 44 ، حزيران 1963 م ، القاهرة .

31- الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن : د.عدنان زرزور ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر . ط1، 1388هـ.

32- الحيوا ن : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (تـ 255هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، 1969م .

33- دلائل النبوة ، للبيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

34- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي (تـ 1270هـ) ، بيروت ، 1978م.

35- الرسالة الشافية ، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد ، وزميله ، ط3، دار المعارف ، بالقاهرة .

36- سر الفصاحة : لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (تـ466هـ) ،تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، 1953م .

37- السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (تـ218هـ) – حققها وضبطها مصطفى السقا وزملاؤه .الطبعة الأولى – دار الخير بدمشق -1996

38- شرح الأصول الخمسة ،للقاضي عبد الجبار ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ،مكتبة وهبة ، ط1 ، مصر ، 1965م .

39- شرح الشفا للقاضي عياض : للإمام الملا علي القاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

40- شرح المواقف للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (تـ756هـ) : السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني : (تـ ص812هـ) ط1، مطبعة السعادة ، مصر 1907م .

41- طبقات المعتزلة : ابن المرتضى (أحمد بن يحيى) ، تحقيق سوسنة ريفلد فلزر ، ط بيروت 1961 م .

42- طبقات المعتزلة : القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (تـ415هـ) ، تحقيق علي سامي النشار ، ط مصر 1972م .

43- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة اليمني العلوي (تـ 749هـ) ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

44- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية : لإمام الحرمين عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني (تـ25 ربيع الآخر 478هـ الموافق 20 أغسطس **1085**م)، تحقيق : د. أحمد حجازي السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

45- علوم القرآن عند المفسرين ، مركز الثقافة والمعارف القرآنية ، مكتب الإعلام الإسلامي ط1، 1416هـ ، إيران .

46- الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي (تـ 424هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1978م

47- الفصل في الملل والأهواء والنحل : علي بن أحمد بن حزم (تـ456هـ) ، دار صادر ، بيروت .

48- فكرة إعجاز القرآن : نعيم الحمصي ، مؤسسة الرسالة – ط2 ، بيروت .

49- فكرة النظم في تطورها وأهدافها : د. بسيوني عرفة ، ط 1، دار الرسالة بالقاهرة ، 1982م.

50- الفهرست : لابن النديم ، محمد بن اسحق (تـ 383هـ) ، ط بيروت 1964م

51- قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين : د. عبد الفتاح محمد سلامة ، دار التوفيقية للطباعة ، الأزهر ، 1980م.

52- كتاب أبو الحسن الماوردي : د. محمد سليمان داود ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية .

53- الكندي فيلسوف العرب : أحمد فؤاد الأهوا ني ، سلسلة أعلام العرب عدد/26 ، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والترجمة والنشر ، القاهرة

54- لسان العرب : لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (تـ 711هـ) ، الطبعة الثالثة ، 1999م، عني بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب وزميله ، دار إحياء الثراث العربي ، بيروت _ لبنان .

55- لوامع الأنوار البهية ، وسواطع الأسرار الأثرية : محمد بن أحمد السفاريني (تـ1189هـ)، ط2 دمشق ، 1402 للهجرة .

56- مباحث في إعجاز القرآن : د. مصطفى مسلم ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط2، 1996م .

57- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي ، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت 541هـ) ، تحقيق عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، وزميله، ط1، قطر.

58- مداخل إعجاز القرآن ، محمود محمد شاكر ، ط1، 2002م.

59- مشكلة الألوهية : د. محمدغلاب : ، ط2، 1951م ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

60- معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

61- المعتزلة : زهدي حسن جار الله : منشورات النادي العربي ، يافا ،1947م

62- المعجزة الكبرى- القرآن : لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى (ت1974م) ، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة.

63- المغني في أبواب التوحيد والعدل : للقاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت 415هـ) تحقيق : أمين الخولي – (ج 16 - إعجاز القرآن) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة .

64- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : فخر الدين محمد بن عمر الرا زي (ت606هـ)، ط2، دار الكتب العلمية ، طهران .

65- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داوودي ، دار القلم ، 1412هـ .

66- مقالات الإسلاميين ، علي بن إسماعيل ، الأشعري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة . مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، ت عبد السلام هرون ، ط1، 1411هـ.

67- مقدمة جامع التفاسير ، مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة ، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني ، حققه وقدم له وعلق حواشيه ، أ. د . أحمد حسن فرحات ، ط1، 1984م ، دار الدعوة ، الكويت

68- الملل والنحل : لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت548هـ) ، (على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي) ، دار صادر ، بيروت .

69- مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني(ت 1367 هـ - 1948 م) ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، القاهرة

70- المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن : د. أحمد أبو زيد ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،الرباط .

71- الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) ، للشريف المرتضى علي بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي ، تحقيق محمد رضا الأنصاري القمي ، ط1، إيران ، 1424هـ .

72- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم : د. أحمد سيد محمد عمار ط1، 1998م . دار الفكر بدمشق .

73- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): علي بن عيسى الرماني (ت386هـ) الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، تحقيق د. محمد خلف الله أحمد وزميله

74- النكت والعيون : لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية – بيروت .

75- مجلة الأزهر الشريف ، مجلد / 21 ، 1369هـ .
